
وحيد الطويلة
جنازة جديدة
لعماد حمدي
رواية
دار الشروق



جنازة جديدة
لعماد حمدي

إهداء

إلى المسجلين خطرًا:

تصحبكم السلامة.

وحيد

«الشر قاسٍ، عليك بالتطعيم ضده.
روحي أكثر صلابة من جسدي... نعم، إنه الحب.
لا يوجد شرفاء هنا، إنما قديسون».

سفيتلانا أليكسييفيتش
«صلاة تشرنوبل»

«كم مرة استعمل الناس القلم أو الفرشاة لأنهم
لم يستطيعوا ضغط الزناد؟».

فرجينيا وولف

١

إلى أين أنت ذاهب؟

عِشْتَ أيامًا خطرة في حياتك، لكنك الآن أمام خطر من نوع جديد.

انظر إلى قدميك.

يمشي بقدمين مُتردِّدَتَيْن إلى سيارته، يُقدِّم واحدة ويؤخِّر أخرى.

لا يعرف بالضبط ماذا يجب عليه أن يفعل؟ هل يذهب؟ يعتبره مشوار جَبْر خواطر والسلام، أم يمسح الموضوع تمامًا من رأسه، يمحوه بسكين؟ لا أحد حوله يستشيره، عاريًا بلا عائلة قديمة أو جديدة، ولا يستطيع أن يخبر أحدًا من زملائه القدامى بالموضوع.

الموضوع ليس سهلًا، عقله يدقُّ كجرس صدئ، يسمع صوته بوضوح: لا تَعُد إلى الماضي، اقطع صفحته، قلبه يَزِنُّ عليه: «عِشرة الأيام لا تهون إلا على أولاد الحرام».

أنت كبير، ويجب أن تظل كبيرًا للنهاية.

بقدمَيْن متوترتَيْن، تفصله خمسمائة متر فقط عن سيارته، يفكر أن يعود من حيث أتى، أو يدخل أقرب مقهى وينسى الموضوع.

سؤال وحيد يكاد يشرخ دماغه: إلى أين أنت ذاهب؟ إلى مُسَجَّل خطر! إلى أخطر الخَطِرين، ملك الإجرام الذي تُطبَخ المصائب في دهاليزه.

ما الذي يدعوك لذلك، أو يجبرك؟ يكفي أن تكلمه في التليفون، وتُطَيِّب خاطره، أو لا تُطَيِّبه، مجرد اتصال وكلمتين وينتهي الأمر.

العزاء الآن صار على صفحات الفيسبوك والواتس آب، ولكن هل يعرف المجرمون المُسَجَّلون خطرًا استعمال التليفونات الذكية؟

بالطبع يعرفونها، ولو أنهم ظلوا جاهلين بالتكنولوجيا لاستطعتَ أنت ومَنْ معك أنْ تقبضوا على كل مجرمي العالم في يوم واحد.

بائعات الحب، اللواتي كُنَّ يتسكَّعْنَ على النواصي، اختفَيْنَ من الشوارع تقريبًا، في البداية كانت مرحلة الهواتف ثم نَطُّوا على الفيسبوك والواتس آب والانستجرام أحيانًا، اختفين ولم يَعُدْن... فما بالك بالمجرمين!

وصل إلى سيارته، اتكأ على مُقدمتها، الأفكار تأكل رأسه.

أنت الآن تتحدث إلى نفسك كأنك تركتَ العمل بالبوليس منذ قرن! يا مولانا لم يمض على خروجك سوى شهور، أَثَر كلبش الوظيفة ما زال في يديك، والحوادث التي وقعَتْ لك تَطِنُّ في رأسك، تراها تمشي أمامك كأنها وقَعَتْ بالأمس، رأسك محشوة بوجوه المجرمين، ملابسهم، أصواتهم، تشعر بهم تحت ملابسك، مراوغاتهم في التحقيق، الأمواس التي يحشرونها تحت ألسنتهم، الرصاصات التي أخطأتك، الليالي السوداء التي قضيتها تتمرَّغ في جريمة قتل، وليس بيدك دليل واحد، أو حتى قرينة.

إلى أين أنت ذاهب؟

التردُّد على وجهه يكاد يراه العابرون.

لا يجب أن تفكر مرتين، الحكاية ليست واجبًا، بل أنت بالتحديد

مَنْ يجب عليه الذهاب، لم يكن الرجل مُسَجَّلًا خطرًا على طول الخط، بل كان المرشد الكبير لك، المُصنَّف رقم واحد، مخبر الحكومة، بيضة النعامة التي وجدْتَها أسفل مكتبك، أهداك مفتاح الحل في قضايا كثيرة، أنقذكَ من الموت مرة، وكاد يودي بك مرات، كان سندك حتى لو كان بالأساس سَندًا لنفسه.

نعم، يجب أن تذهب إليه، أنت الآن وحيد بلا عائلة، وفي لحظة قد لا تخطر على قلب أحد تشعر أن هذا المُسَجَّل هو عائلتك، ليس لقربه منك في وقت ما، أو لأنك زُرْتَه في بيته، أو زارك، بل لأنك حين تفرد حقيبة أيامك كل ليلة قبل أن تنام، حين تقلب كل صفحة فيها تجده واقفًا هناك، أحيانًا في طرف الصفحة، أحيانًا في ذيلها، وفي معظم المرات تجده في قلبها.

العائلة ليست الأم والأب والأخوة، بل الأصدقاء ومشاركة الحلوة والمرة، تقاسُم الألم، هذا ليس صديقك فقط، هذا شخص كان محور حياتك لنصف عمرك، عَشَّشَ وداس في كل اللحظات.

عندما تستعرض حياتك، بالقطع سوف تستعيد حياته.

أنت كنت ضابطًا صغيرًا دخَلْتَ البوليس رغمًا عن أنفك.

لا، هذه ليست الجملة المناسبة.

دخلْتَ البوليس والجزمة فوق رقبتك، نعم، هذه هي الجملة المطلوبة.

أبوك ضابط كبير، خلع ملابسه ودَلَّى لسانه حين رأى امتناعك، حَطَّ الجزمة فعليًّا فوق رقبتك، أخوك الأكبر استطاع الفرار من الجزمة، سافر إلى أوروبا بحجة الفُسْحة، حتى يعود رائقًا ويدخل كلية الشرطة بانشراح، خَدَعَ أباك، ما إن وطئَتْ قدمه أرض «هولندا»

الواطئة حتى قال إنه وجدها أعلى من أرضنا بكثير، ظَلَّ أبوك يطارد مكالماته ليل نهار، قابعًا بجوار الهاتف، كان يُعَنِّفُه في البداية، يُهدِّده بأنه سيسافر إليه، سيرسل الانتربول ليقبض عليه، و في الأخير راحَ يُهدهده، يترجَّاه، لكن المحروس الكبير لم يترك خلفه معشوقة في أرضنا يري دموعها في الهاتف، بل قطع علاقته بابنة خالته عامدًا، حتى لا يُجرجره أحد من قلبه.

الماكر يُكَلِّمُ أمه صباح مساء حتى تكُفّ عن طلب عودته، وتتعوَّد أن ابنها صار مجرد مكالمات هاتفية، وبدلَ أن تمسك يد ابنها راحت تتشبَّثُ بسماعة الهاتف، في لحظات كثيرة تضبط نفسها وهي تضع يدها على الهاتف الصامت لدقائق، تضغط بقوة كأنها تحضنه.. تحضنه بالفعل.

في داخلها كانت مرتاحة لأنه أفلتَ من أبيك، لا تعرف بسبب البوليس أم بسبب أبيك، وتعيسة لأنها لا تشُمُّ رائحته قبل النوم.

الابن سِرُّ أبيه.

كان أبوك يصرخ، اسمه كبير في الشرطة، لا يطمع أن يكون له ولدان ضابطان وفقط، بل تزوَّجَ على هذا الشرط، الذي بدا كمُزحة، أو لعب أيام الخطوبة.

قرأ يومًا في صحيفة، وهو الذي لا يقرأ ورقة خارج العمل إلا صحيفة الحكومة، أن والد سيرينا وڤينوس ويليامز، بَطَلتا التنس، حين رأى أبناءه الثلاثة الكبار، وقد فشل أن يصنع من أحدهم لاعب تنس كبيرًا، قرَّرَ في لحظة أن يُنجب بنتين، تصبحان أهم لاعبتين في العالم في وقت ما.

وقد كان.

ينظر إليكَ وإلى أخيكَ بقرف واضح ويقول: «هذه الفكرة سرقها مني هذا الأحمق ونجح فيها».

كانت أيامًا سوداء، تضحك منها أحيانًا، كل ملابس الأعياد هي ملابس الضباط، الألعاب هي المسدس أولًا، وبعده أيّ شيء، إن كان هناك شيء.

الابن سِرُّ أبيه.

لم نكن نحتاج لمدرسة ولا كلية عسكرية، البيت وحده ثكنة، حاضر يا أفندم، انضباط تام، كأن الحرب ستقوم بعد دقائق.

كان أحد أبطال موقعة النكسة الشهيرة، في ليلة الخامس من يونية، المذيع يصرخ: «لقد أوقعنا الطائرات، دخلنا يافا».

كان ساهرًا في عمله:

«دخلنا حيفا».

حينها تَمَطَّى بعد أن اطمئن إلى اقتراب النصر، نَفَحَ الجندي المُرافق له كل ما في جيبه، قال له: «سأدخل الآن لأنام، ولا توقظني إلا بعد أن ندخل تل أبيب».

أنت الآن على يقين أنه كان مهزومًا من داخله، ويريد أن يُعوِّض هزيمته بأبنائه.

زاغ أخوك من الحرب، هرب من الساحة على حَدّ تعبير أبيك، ولم يَبْقَ سواك.

لم يَعُد هناك جندي غيرك.

جندي وحيد ومدفع منتصب، وأب صارم، وارم، سيموت قهرًا لو تركتَ أرض المعركة ورحلْت.

كنتَ تخشاه، وفي المرة الوحيدة التي واجَهْتَه فيها قلت: «الزمن تغيَّر والعالم اتسع، وأنا خريج المدارس الفرنسية، أكتب مقطوعات، وموهوب بالرسم، ويمكن أن أصبح مذيعًا بالفرنسية ورسامًا أيضًا».

كان يقطع عليك الطريق، ويُخرِج لك السِرَّ الأبدي من جوفه، يقول: «لو ترك أبناء الضباط المهنة للرعاع سيتسلل الأوباش إلى حياتنا ولن نستطيع أن نعيش، ثم إنَّ الزمن القادم زمن الضباط، وأنا أعرف أكثر منك».

تتذكَّرْ أنك شعرتَ وقتها وكأنك في قاع قبر أو قبو مُعتِم، لُذْتَ بفُرشاتِك ولوحاتك.

مقهورًا كنتَ ترسم، لا تعرف كيف ترسم القهر والرضوخ في لوحة، كنتَ تخربش بقلم أسود جافٍ دون دموع، الحزن يُطلِق الدموع، القهر يُحوِّلها حجارة.

ترسم، ترسم بسرعة، تضرب سِنّ القلم بقوة، كأنك تطعن إحساسك بالقهر.

في النهاية رسمَ حذاءً عسكريًا «بيادة» برقبة طويلة، وفي قلب الرقبة كان وجه أبيه مخنوقًا، بعينَيْن من حجارة، وكل فَرْدَة من شاربه مُعَلَّقَة بطرف خيط من خيطي الحذاء.

لم يتنازل عن قراره، وأنت بالكاد وضعْتَ حلمك في رَسْمَة.

يقول عنك «الفردة الحالمة»، ينظر إليك بغيظ ويقول بألم واضح: «يا بني، أنا طلبت من ربنا ولدًا بعيني صقر لا عيني حمامة».

أنت متهم بإقامة علاقة.

سؤال يَطِنُّ داخل رأسك، وأنت في طريقك إلى المُسَجَّل الخطر.

إلى أين أنت ذاهب!

أنت الآن ذاهب للرجل الذي تَسبَّبَ في خروجك من المباحث، بل وخروجك على المعاش، المُسَجَّل خطر، الذي قطع علاقتك بحياة وظيفية لم تحبها يومًا، لكنك غُصْتَ فيها، وقضَيْتَ ما يزيد على نصف عمرك.

لو حدث هذا الأمر في بداية حياتك لقضيْتَ عمرك الباقي تشكره على فِعْلَتِه.

انتظرْتَ سنين طويلة أن تأتيك لحظة شجاعة، ولو لمرة واحدة وتتقدَّم باستقالتك.

نعم حاولْتَ الاستقالة مرات عديدة، لكنهم رفضوا، كان عليك أن تدفع ثمنًا لاستقالتك، ما أنفقوه عليك أثناء الدراسة، وثمنًا للأسرار التي ستحملها معك حين تغادر.

كنتَ في كل مرة تجمع المبلغ وتتقدَّم، يفاجئونك أن الثمن ازداد للضِّعْف، وحين جمَعْتَ الضِّعْف وجدْتَه صار أضعافًا، ومع الوقت رُحْتَ تنسى أو تتناسى، لم تجد بقية من روح وعزيمة لتتابع وتخرج.

دخلتَ البوليس بروح مُغتصبَة، لم تأخذ عملك به على محمل الجد أبدًا، مثلما لم يأخذك أحد فيه أيضًا، كانوا يقولون في وجهك: «يا فنان، تعال يا فنان لعمل محضر، اذهب يا فنان إلى جنازة فنان مثلك، واترك العمل الثقيل لنا».

يقولون هذا في غيابك، ويضحكون.

حين كنتَ تتحدث عن الألوان، أو تُحَلِّل خبرًا، أو نفسيَّة متهم،

أو تحكي حكاية من التاريخ الذي علَّمتكَ إيَّاه أمك، أو تسمع موسيقى الفصول الأربعة لفيفالدي في نوبتجية الليل، حين تشير لمرافقيك إلى صوت الريح أو رقص الشجر، كانوا يتقوَّلون عليك: «مجنون، ملسوع في دماغه، عنده ربع ضارب، عنده لمسة أرضية، مركوب من عفاريت الفن».

شيئًا فشيئًا ظهر لك لقب جديد، عرفتَه بالصدفة من فم جندي لا تعرفه: «اسم سعادتك فجنون باشا».

لَقَب لم تَخْتَرْه، ووظيفة لم تَخْتَرْها.

فن وجنون.

تكاد تشدُّ شَعرك، تقول لنفسك: «أنت السبب».

لو أنك اخترْتَ طريقك وأَصْرَرْتَ عليه، لعِشْتَ باسمك الحقيقي، أو لاخْتَرْتَ اسمًا جديدًا، وحياة على مقاس روحك، وأَطَلْتَ شعرك كما يفعل الفنانون بدلًا من هذه الحياة التعسة.

لم تكن مشغولًا بما ينشغل به الضباط، تستمع إلى حكايات تافهة، وبطولات زاعقة يخترعونها، أو يُلصقونها بمَن هم أعلى منهم رتبة، تُشاهد كيف تتحوَّل الواقعة إلى أسطورة، والضباط الكبار إلى أبطال.

كنت تراهم أبطالًا من وَهْم.

أبطالك الحقيقيون هم المُسَجَّلون خطرًا.

في عُرْف المباحث أن المُسَجَّل خطر، هو الذي يُكرِّر جرائمه مهما نال من عقاب.

لكأنك اكتشفْتَ أبطالك، وجدْتَهم، هؤلاء الذين يُصِرُّون على اقتراف فِعْلٍ ما، مهما كان ثمنه، ومهما كان سيئًا في عرف القانون والمجتمع.

كنتَ مُعجَبًا بهذا الإصرار على اقتراف الفِعْل نفسه لمرات، لا، ليس هذا على وجه الدقة، فبعض هذه الأفعال كان مشينًا، ولا يليق بإنسانية.

ربما كنتَ في الحقيقة مُعجَبًا بروح المخاطرة، والشراسة في تحدِّي القانون مهما كانت النتائج، أن يصطاد الواحد فريسته، يلتهمها بتلذُّذ دون أن يفكر لحظة في المصائر، أن تحلم وتنفِّذ دون أن يعنيك أحد.

تقول إن المُسَجَّلين خطرًا يفعلون أشياء مُشينة دومًا؟ صحيح، لكنهم اختاروا طريقهم بالشغف والرغبة، حتى لو كانت الظروف قد ساقَتْهم إليه، هم اختاروه في النهاية، اختاروا الصراط المستقيم الذي يخصُّهم وأصرُّوا عليه، تحدُّوا به دولة المباحث وسُلطتها، وأنت؟ أنت لم تستطع أن تتحدَّى سلطة أبيك لتدخل كلية اللغات، أو الفنون الجميلة، مثلما تمنَّيْتْ.

أبطالك الحقيقيون هم المُسَجِّلون خطرًا.

لذا رُحتَ تخلق أبطالك داخلك على شاكلتهم، بل على شاكلة مُسَجَّل واحد كبير، تابَ توبة غير نصوح، وعمل مرشدًا للحكومة.

أنت متهم بأنك لست سِرّ أبيك.

نعم، هذا صحيح، أنت سِرّ نفسك.

يتحسس دملًا لم يشعر به من قبل.

الدمامل تطلع في الجسد، لكنك تشعر بها في روحك، صادفتْكَ كثيرًا في حياتك، لكن الدمل الكبير في مواجهتك على بُعْد ساعتين أو أقل.

٢

احترس.

احترس أيها القارئ.

قف مكانك.

ثبِّتْ قدميك في الأرض جيدًا، اِسحَب نفسًا عميقًا، املأ رئتيك عن آخرهما كما يفعل الهنود حين يأخذون أنفاسًا طويلة كي تعمل المناطق النائمة غير المستعملة في رئاتهم.

الأمر يستحق، أنت مُقدِم على تجربة تستحق المخاطرة، لن تتكرر في حياتك.

قلت لك قف مكانك، إذا فكرت ألا تدخل وتعود من حيث أتيت لن ألومك، لن يلومك أحد، لن يسخر منك بنظرة أو يهزأ بصوت، ولا يجرؤ.

حذرتك، حتى لا تأتي يومًا وتقول إنني لم أفعلها، غررت بك أو دهنت لك الأرض صابونًا.

لا يعنيك أن تعرف من يتحدث معك، الراوي أم الضابط، أنت في شأن آخر.

أنت الآن أمام باب سرادق لعزاء موجع، عزاء نجل كبير المرشدين والبصاصين والمخبرين على مستوى القطر كله.

لا تدخل معي إلى هذا العالم، في لحظة لا أعرفها ستتخيل أنك خارج الكرة الأرضية، وأن آلة الزمن قد حملتك إلى زمن آخر، أجسام قد يبدو لأول وهلة أنها تشبه أجسادنا أنا وأنت، آدميون، لكنهم ليسوا كذلك كما سترى وإن تشابهنا في تفاصيل.

سوف ترى وجوهًا خليطًا من وجوه ذئاب وبشر، قد يغلب أحدها الآخر للحظات، لكنه يعود إلى أصله وأنت أمام هول المفاجأة ثم يتبدل الوضع، وهكذا...

ناس غادروا إنسانيتهم، قشروها ونفدوا، لا تخدعنك أجسادهم كما أخبرتك، ستقفز منها الذئاب وربما الثعابين.

قلتها لك وأعيدها ثانية وثالثة: إذا كنت تريد أن تعود من حيث أتيت فلا ملامة عليك، عذرك معك ولا يجب أن تنتظر رحمة من أحد.

اسمع، ما رأيك أن تدخل لتجرب، التجربة أم المعرفة، ولكن خذ حذرك على أكمل وجه، كن خائفًا مرعوبًا، الخوف الشديد هو ما يمكنك هزيمته، ولن يحسبه عليك أحد، الخوف العادي يورث القلق والتوتر ويضيع لذة المغامرة.

إذا كانت معك نقود تخلص منها على الفور، أفرغ كل جيوبك، يبدو أنك مجنون، ما الذي جعلك تحملها أساسًا، لن ينقذك أن تضعها في تكة لباسك الداخلي.

طهر روحك من أدران المحبة والطيبة قبل أن تدخل، بل يجب أن تعالجها بالكي إن استطعت، طهر أصابعك من أي خاتم، ذهبيًا كان أم فضيًا، يمكن لك أن تترك السلاسل على عنقك، بل اجعلها تتأرجح.

إن كان معك هاتف أغلقه، ما الذي جرى لي!! أنا أسرب لك الوصايا ببرود وعلى دفعات، كأنني نسيت واجبي نحوك، تخلص منه قبل أن تدخل، لن تعود به، وإن وجدت هاتفًا معك وأنت خارج فهو هاتف آخر ليس لك. لا يخصك.

اسمعني جيدًا، وحتى لا تقول إن هذا الرجل دلس عليّ ورماني في سوق جهنم فرع اللصوص، ولا تقل لي إنني من أغويتك ـ ولا لأحد ـ، فالغواية بالخطر لا يخوضها إلا واحد بقلب ميت أو أحمق.

الفضول يقتلك، أعرف، وجهك مرآة روحك، منذ دقيقة واحدة كانت ابتسامتك ساخرة تلعب على وجهك، الآن بدأ القلق الحقيقي، الآن بدأت تشد سروالك لأعلى، وأتمنى أن تستطيع معي صبرًا.

ركِّز عينيك، اخطف نظرة سريعة، الشاحنة التي ظهرت أمامك فجأة هي أم خنوفه، مات زوجها النشال العظيم أفضل ميتة وهو مسطول، ميتة يتمناها كل المجرمين، لم يترك لها بطولات تذكر، قصص النشالين إن لم تكن تعرف يتلاشى طعمها في اليوم نفسه، لكنها كانت على موعد مع التاريخ حين قتل والدها خنوفه باشا بغزة سيف في جبهته ورحل مجللًا بالعار والفجيعة، فقررت أن تحمل الراية حتى لا يسقط اسمه من صفحات المجد، ورثت ثأره واسمه وصارت أم خنوفه.

في عرف المسجلين من يسقط في ساحة المعركة ترث ابنته الكبرى اسمه حتى لو كان له ولد ذكر.

وبدأت رحلتها.

هجامة محترفة، اخطف نظرة أخرى دون أن تلمحك، هذه ليست سمنة زائدة كما قد تظن لأول وهلة، كلها عضلات، طبقات

اللحم تحميها من غز السكاكين إن حدث كما حمت معاوية ابن أبي سفيان.

وظيفتها الحالية مدير عام الخناقات، كل من يحتاج امرأة في خناقة يدق بابها، جاهدت وكافحت وفي لحظة لم تخطر ببالها صار اسمها على قمة اللائحة.

تخرج من بيتها ببساطة كأنها ستشتري صحن فول، وتعود أيضًا ببساطة، ليست وظيفة مؤقتة أو عارضة، جذورها ضاربة في العائلة، ورثت الموضوع أبًا عن جد وسمعتهم عريقة.

تم تدريبها من صغرها مثل أي شبل من أشبال كرة القدم، تذهب معهم، ومع أن الصغار يتفرجون في البدايات ثم يندمجون في مرحلة لاحقة، إلا أنها لم تنتظر مرحلة التكوين ثم التأهيل، دخلت بدماغها من أول يوم وأظهرت موهبة كبيرة، ساعدتها جثتها الضخمة ونفسها التواقة للجهاد على حفر اسمها على لائحة الهجامين الخالدين خلال أقصر فترة ممكنة، بالفعل حققت رقمًا قياسيًا من المتوقع أن يظل صامدًا لفترة طويلة.

لم تتوقف إلا أثناء زواجها، عادت إلى دكة الاحتياطي حتى سقط والدها شهيدًا فعادت إلى الملاعب مرة أخرى، وأقوى.

«قلبي جمد بعد أول خناقة».

بَنَتْ سمعتها سريعًا، ورغم أنها تعرف أن الغجرية ست جيرانها، إلا أنها لم تلعب هذا الدور وسطهن، لكنها لم تسمح لواحدة أن ترفع صوتها في حضورها، عاشت بينهن بالمعروف مهابة الجانب بعين حمراء مختبئة تحت طرحتها، تكشف عنها وقت اللزوم.

وذاع صيتها وجملتها: الفلوس قبل التيوس.

تتفق على عرقها قبل أن تخرج من عتبة بابها، تقبض أولًا كي تقبض بقلب جامد على خصمها، تترك النقود لأولادها ليدبروا حالهم ريثما تعود من غزوتها.

قبل أن تسألها أو تفكر في لومها تقول لك بعفوية غريبة كأنها تلقم ثديها لطفلها في قلب الحارة:

«العيشة عاوزه كده».

لا تستخدم شيئًا غير ذراعين متينتين تليقان بمصارع مندفع، جاهزة دومًا، يكفيها أن تشمر كميها، ولا تلجأ لاستخدام العصا إلا حين تكون هنالك سكين أو سيف في يد غريمها.

رأسها مثل رأس ضبع، تنظر في اتجاه واحد.

لا تهاب الأسلحة البيضاء ولا الحمراء، تقول جملة واحدة:

«يعني السكينة هتعمل إيه، خربوش! خربوش صغير وخلاص».

تعرف الأصيل من الخسيس، كثرة المعارك جعلتها تزن الرجال بنظرة واحدة، لذا وضعت نفسها رهن دولة الخطر، رهن رئيس جمهورية المسجلين، اقتربت منه حتى صارت ظله، ستراها دائماً خلفه مثل نبوت سمين أو لبؤة منتظرة على قدمين وساقين عظيمتين، لا يحتاج أكثر من نظرة أو التفاتة ليجدها بين يديه، تبدو كأنها ملاكه الحارس، كأنها بنته من صلبه.

وهو لا يأمن لأحد غيرها بسهولة أو بصعوبة، خاصة أنه يؤمن إيمانًا عميقًا بعمل المرأة في المشاجرات، وأن تأخذ حقوقها وحقوق الآخرين حتى لو كان بيديها، في الحقيقة هو يُفَضِّل أن تفعل هذا بيديها من البداية.

دعك منها الآن واسمعني جيدًا، إن مددتَ قدمك قليلًا ستلقط أذنك صوت المقرئ يرتل: إن الله غفور رحيم، سيضعك ذلك في طقس آخر، سيدفعك أن تنتشل قدمك الأخرى التي غاصت في الرمل، وترغب في الاندفاع داخل السرادق.

لا تكن طائشًا، وتندفع مرة واحدة بعد أن تغير الجو، ولا تعتقد أن اللقمة صارت لينة.

لا تتهور.

احترس.

سأسدي إليك معروفًا حتى ترتاح وحتى لا تغير اتجاهك فجأة وتطلق ساقيك للريح، أفكر بشدة أن أدخل معك حتى لا أتركك تواجه مصيرك وحدك كأعمى وسط قافلة من الجوعى.

تنهد الآن وخذ نفسًا عميقًا كما علمتك، تراجع خطوتين واسمعني جيدًا، علينا أن نعترف أن كل إنسان في هذا البلد يعيش بقلبين، قلب عاشق وقلب ذئب، إذا أردت أن تدخل معي - أنا قررت أن أدخل - اترك قلب العاشق جانبًا، لا، لا، اخلعه من صدرك، اسحقه بقدمك اليمنى، واستحضر قلب الذئب.

ستتأكد أنك فعلت ذلك بالفعل حين ترى نفسك دون مراوغة أو خشية أو تردد تفرغ كل جيوبك، لا تخش شيئًا، لن يمسسها أحد في الخارج، للسرادق حرمة أكبر من حرمة الجامع، الأخير يسرقون حذاءك فيه، وهنا يسرقون روحك فقط.

الآن تقدم بعد أن تأكدت من نفسك، احمرت عيناك وضربت بقوة على صدرك، تفحص كل سنتيمتر وأنت على فوهة الباب، بعين راغبة وروح مشتاقة.

لا تتلفت يمينًا أو يسارًا، لا تستجب لنظرة أحد، لا تضع عينيك في مرمى عيونه مهما حدث، خشية أن يلمح فيها ضعفًا يصطادك منه، انظر في الهواء العام كزعيم يخاطب شعبه، يرونه ولا يراهم، وحتى إنْ نظر أحدهم وأطال، دعه حتى ترتخي عيناه لأنه لم يجد ثقبًا عندك.

لا تستجب لنظرة أم حواء الواقفة في مواجهة باب السرادق ترقب الداخلين بعين شرطي ميتة، هذه المرأة تحبل من عينيها، تصبح حاملًا من نظرة، وإن لقطَت يدك، شدتها ووضعتها على بطنها، اسحبها بخفة دون أن تطرف عينك.

الساحرات الشريرات يجلسن أمامها كتلميذات مطيعات.

لكن بعد أن تدخل، أنا غير مسئول عنك بعد كل ما قلته لك، البحر خلفك، ثمة شروط أخرى خفيفة ربما نسيتها أو اعتبرتها بديهية، لكنها حاسمة بل قاتلة: أولها أن تكون سكرانًا، أو كما يقال على واحد «سكران طينة»، شربت من منقوع البراطيش ما يكفي عائلة، عائلة صغيرة حتى لا تستهول الموضوع.

في هذه اللحظة ستبدو بهيئة لص أو قاتل، ليس في قلبك رائحة ذرة من العشق، لا ترتكب أدنى حماقة يستشف منها أنك يمكن أن تكون عاشقًا، إلا إذا استطعت أن تبرز عشق الإجرام وهذه حكاية أخرى.

بقيَت خطوة سهلة ويسيرة، خذ هذا البرشام، اسمه أبو صليبه، معروف، صحيح أنه دقة قديمة لكنه سيجعل من قلبك قطعة حجر، سيدلّك لك غدة العنف حتى لا تبدو لقمة سائغة لأحد، باختصار سيساعدك على الانتقال بسهولة من عالم العشاق لدنيا الذئاب.

ولكن بما أنها أول مرة، وأنا أخشى أن تقع في المحظور وتتلجلج في أداء الدور ومن ثم قد تسقط على المسرح فيأكلونك، خذ هذه الحبة من البرشام الفاخر، اسمه حضّر كفنك، سوف تطير من على الأرض بارتفاع نصف متر، وبخفة.

لم أشأ أن أعطيك برشام استروكس فهو مخصص للشباب الجدد في الكار، أما نحن فما زلنا نستعمل البضاعة القديمة الثقيلة، فخر الصناعة الوطنية.

كنت أخشى أن أعطيه لك في البداية، خشيت أن تسقط مني، مغامرة لا يجب أن تخسر فيها وإلا داسك الحصان الذي راهنت عليه، المسألة لا تحتمل أدنى قدر من المزاح أو الاستهانة، ربما تظهر لك أنياب، ستستطيل أظافرك ولن تخشى أحدًا وربما لن ترى أحدًا.

سيخرج لك ذلك الوحش من أعماقك وحده، سيكشط ملامحك الطيبة، سيمحوها ويبدلها إلى ما يجب أن تكون عليه الآن، الآن لا يمكن لك أن تعود.

حافظ إن استطعت وأنت في بداية حالتك الجديدة على ألا تنظر تجاه أحد بعينه، لا تتفحص الوجوه، ومن الآخر يجب ألا تنظر في عيني أحد ـ يمكن أن تنظر إن استطعت إلى الأنوف فهي أكثر دلالة في وجوه المسجلين ـ، بالذات في عيني الجالس إلى اليسار الذي يلبس بالطو أسود.

لا تستغرب أن بشرته حمراء وسط كل هذه الوجوه، داكنة كانت أو فاتحة. هو ـ بكل الفخر ـ لاعب أجنبي في دنيا المجرمين، بل ربما يكون اللاعب الأجنبي الوحيد في السرادق حتى الآن.

أنت لا تصدق ـ عندك حق ـ أن سوق المجرمين يمكن أن تكون كسوق اللاعبين، يتم استقدامهم وشراؤهم، لكن غير مسموح بإعارتهم.

لا تستبعد على الإطلاق ولا تستغرب أنه عقب انتهاء المقرئ من الربع الأخير، سيقف فجأة، يسند الكمان أسفل ذقنه بأناقة، ويقوم بأداء وصلة من العزف على روح المرحوم، أنت تعرف بالطبع أن الأجانب يودعون أحبابهم بالموسيقى.

اسمع، إن فعلها وصفق الحاضرون يجب أن تصفق معهم، صفق بحزن واضح يتناسب مع المناسبة الجليلة والصوت الحزين للكمان.

هذا الروسي مسجل خطر قارح ابن لبوة، يستحقها بجدارة، كان عازفًا ماهرًا في الأوبرا، يستحوذ على التصفيق كل حفلة وينحني بسعادة، حين قدم من روسيا كان يحمل معه كمانه وزوجته ومؤونته من الكوكاكين، وقبل أن تنفد المؤونة راح يشمشم ككلب سعران عن مواقعها في مصر حتى وصل إلى مركزها الرئيسي بمساعدة مسجل خطر صغير، لا تسألني كيف تعرف عليه، لا لزوم للسؤال من أصله، لا تعرف من منهما وجد الآخر، أولاد الكار يشمون بعضهم بعضا على بعد كيلو، بالذات عاشقو الكوكايين، ما بالك إن كانوا يشتركون في شم البودرة، يعرف الأصلية من المخلوطة وهو من علم الولد كيف يشم، كان يشم كالكلاب فعلمه أن يستنشق كالبشر.

كان لا بد من نقود تكفي لشراء هذا الهباب، نقود كثيرة، ولأن الأقربين أولى بالمعروف تقدم الروسي وسرق زوجته السوبرانو

صاحبة الصوت البارع والصيت الذائع، أقنعها أنها فقدت ذهبها ونقودها إثر سكرة، وربما رمتها وهي نشوانة داخل بالوعة الحمام ولا يجب أن تبلّغ حتى لا تضيع سمعتها.

اشترى بندقية آلية، لم يهتز له وتر وهو يضعها مكان الكمان في حقيبة الكمان.

ودون أن يرتعش حدد هدفه بدقة، ينزل مع نديمه الجربوع إلى الصيدليات، لا يدخلان سوى الكبيرة منها، ينتظران أن تفرغ صيدلية من روادها، وبسرعة ومهارة تعودا عليها يلبسان ماسكات على وجهيهما، الماسك التقليدي لعصابة القناع، تظهر منه فقط عيونهما التي تلعب بجرأة وغموض.

بقلب ميت يتقدم الروسي، قبيلة من نمل في دماغه، تكاد تأكله لنفاد الشمة السابقة، لابسًا البالطو الذي تراه الآن فوق ثيابه، يلبسه مفتوحًا، حين يدخل بالحقيبة لا يفعل شيئًا سوى أن يمد يده ليفتح البالطو على آخره ناحية اليسار، بلمحة يشير للصيدلي غير المنتبه دومًا إلى البندقية الرابضة تحت إبطه، لا يقول كلمة واحدة ولا يصدر صوتًا لأنه لا يتقن غير الروسية، لغته العربية الضائعة مكسورة الحروف وستفضحه.

ولأن الطبخة حارة وسريعة، يتقدم المساعد ويستولي بشجاعة على إيراد الصيدلية، يشير له ألا ينسى شرائط الترامادول والتامول، يرمقان الصيدلي بنظرة من المؤكد أنه رآها في أحد الأفلام، ويرحلان معاُ.

ربع الغنيمة للمساعد، والثلاثة أرباع للروسي يشتري به الكوكاكين ليعمر دماغه، ليعزف جيدًا، وحين ينفد يبحثان عن صيد آخر.

صدقني، لو أنه يوم عادى في حياة صاحب السرادق، وليس عزاء ابنه، ما استطاع ذلك الوغد الروسي أن يقترب من مرابضه وإلا قتله، يكره أصحاب البودرة لكن للظروف أحكام.

يستنشق البودرة على مهل كما يليق بعازف، يعزف أفضل من سابقيه ومن نفسه، ردة فعله على الموسيقى المصاحبة أسرع من رد فعل ضابط مباحث متمرس يتعرض غيلة لإطلاق نار من مجرم غدَّار، وحين يسمع تصفيق الجمهور ينحني بنصف رأس، يود لو يقول لهم: اعطوني ما في جيوبكم لأمتعكم أكثر.

قبل صعوده للمسرح بأربع ساعات حين يأخذ جرعة «تسقيطة» البودرة يهبط هبوطًا مريعًا يستمر لساعة، أحيانًا ساعتين، بعدها يبدأ في الاستيقاظ، يشرب الكوكاكولا حتى يفيق، حين تراه كأنه خارج من جيمانيزيم بعد أن أدى مرانه ولعب على كل الآلات، ضغطه مرتفع، الأوردة التي بجانب عينيه تنتفض، ووريد في منتصف جبهته يرتعش بقوة، خصيتاه أيضًا، يبحث عن زوجته بجوع اللقاء الأول.

عازف ماهر، مسجل خطر فاجر ومدمن أصيل، سقط في المرة التي طارت فيها دماغه حين نفدت الجرعة ووضع الكمان في البالطو بدل البندقية الآلية.

لم تعرف زوجته بحكايته إلا حين دخل البوليس بيتها بحثًا عن البندقية، لم يجدوا لها أثرًا، فتشوا كل شق، كادوا أن يخلعوا بلاط الشقة وحين حاروا سألوا أين يتمرن، أشارت إلى كنبة من القش مسنودة من أسفلها بشرائح من الخشب الخفيف، وجدوا فيها فتحة

صغيرة بالكاد تكفي لنوم ثعبان، يمرر من خلالها البندقية لتنام مطمئنة فوق الألواح.

لا تظن أن زوجته ستكون معه رغم أن السيدات حاضرات بكثافة في السرادق، ورغم أن الروسية كما تعلم تعامل زوجها كحبيبة وخادمة لا كزوجة ورفيقة.

غنت بصوت حزين مكسور لسنوات، حرصت على زيارته كل شهر في سجنه، وعندما أوشكت مدته على الانتهاء تطلقت منه وعادت إلى بلادها.

كانت صدمتها كبيرة، لكن كما ترى صدمة صاحب العزاء والمسجلين أكبر بكثير.

لا تنتبه كثيرًا لحركة يديه ورجليه، هذا يعني أن ميعاد الجريمة على وشك، انظر: خدوده حمراء، عروق عينيه تنتفخ، يتكلم مع مساعده بسرعة، معظم كلامه غير مفهوم، يُعوِّض هذا بإشارات من يديه، شيئًا فشيئًا سيفقد طاقته.

يبدو أنني مَن فقدتُ طاقتي وذاكرتي، لم يسقط في يد البوليس كما أخبرتك، بل صعد على المسرح وبعد أن فتح الحقيبة وضع البندقية بدل الكمان أسفل ذقنه، وبدأ في العزف عليها.

الآن لا يمكن لك أن تعود، لا لأنك تريد أو لا تريد، لم تعد عندك إرادة أصلًا، أصبحت واحدًا آخر، وطالما تقبلت هذه الشروط ونفذتها فادخل إذًا إلى السرادق بكبد ذئب قاس، الذين يريدون أن يطردوا خوفهم من الحياة يصطادون ذئبًا ويأكلون كبده، ومن ساعتها يصولون ويجولون كأنهم ابتلعوا حبوب الشجاعة مرة واحدة وإلى الأبد.

ادخل الآن مرفوع الرأس، هذا سرادق أقامه الدكتور ناجح كبير مسجلي خطر البلاد، وربما البلاد العربية، الذي اعتزل وتحوَّل إلى كبير مرشدي البر كله، أقامه لنجله ووريثه - الله يرحمه- والذي كان يعده لخلافته وتسليمه الراية في الشهور القليلة القادمة.

الدكتور هو لقبه الذي يقدم نفسه به، المسجلون أطلقوا عليه لقب الفيلسوف رغم أنهم لا ينطقونها صحيحة في أغلب الأحيان، لكنهم سمعوا أنه أعظم لقب في الدولة، ولا أحد يستحقه سواه، وهو والحمد لله جدير به، إذ أنه لم يعد يدخل بيده في أيه عملية، بل يكتفي بوضع الخطة السنوية ويراقب التنفيذ، ولا يتدخل إلا في الحالات المتعسرة فقط.

خسر وريثه في لحظة طائشة لم تخطر على باله ولو في كابوس ذكر، لكنه وجد نفسه فجأة تحت أقدام الكابوس.

هذا الوريث كان صاحب أسماء متعددة أيضًا، أولها كلابش، اسمه وهو صغير، كل مولود جديد في عالم المسجلين خطرًا اسمه كلابش حتى يجدوا له اسمًا آخر.

منذ نعومته إن كانت له نعومة وهو يلعب بالقيود الحديدية، يفكها ويربط بها أيدي غرمائه ولا أجدع ضابط، لكنه مع الزمن ومع تغير الجريمة ووصول برامج المصارعة وإذاعتها في التليفزيون الوطني بدأ اسم كلابش يتلاشى، لم يعد يليق بالمرحلة الجديدة، أطلقوا عليه هوجان تيمنًا بالمصارع الشهير الذي يقضي على كل خصومه، ويرمي بالحكم خارج الحلبة في النهاية.

والحمد لله، رغم المأساة، فأقل ما يقال عن هوجان هذا أنه قتال قتلة، مسجل خطر أصيل ابن مسجل خطر وصولًا إلى جده الرابع،

من الفئة النقية والنطفة الخالصة، وسجل العائلة في هذه المسألة أنصع من قطعة ذهب تحت شمس يوليو.

مواهبه تفتحت في وقت مبكر، يقولون سارق النوم من العين، وتقول جدته: سارق العين من النوم، وهم للأمانة لم يقصروا في تعليمه، علموه كيف ينخر ويسب الدين في أول جملة على لسانه، وضعوه أمام المعارف بطريقة عملية، كانت أولى الكلمات التي تسربت إليه: خام، مغشوش، حشيش المعلمين، حشيش الأفندية وصولًا إلى حشيش الأناقة.

تركه الفيلسوف ناجح ينهل من حديقة العائلة وحنانها في البداية، وحين جاءت اللحظة الموعودة لفطامه تقدم بنفسه وفطمه على البيرة، نقطة أو نقطتين تدريجيًا حتى نسي لبن أمه، وفي لحظة تاريخية حاسمة قبض على الزجاجة بشفتيه ثم بأسنانه ولم يتركها إلا فارغة وصوت صراخه يصل بيوت الجيران.

قالت جدته: «نسخة من أبيك، أصيل يا بني، إن شاء الله أعيش لما أشوفك مسجل كبير ملو هدومك».

دعك منه الآن، اقترب بخفة من الرجل اللامع الجالس هناك أسفل عمود الخشب الرئيسي، الذي يتوسط السرادق، ستعرفه وحدك، طاقيته تلمع، جلبابه، كوفيته، حتى شاربه يلمع، سيذُكِّركَ على الفور بذيل الثعلب، ليس بسبب الحجم، فصاحبنا شاربه رفيع، وإنما لتلك الانثناءة الخفيفة الماكرة في طرفيه.

يمكنك أن تقول إنه الرجل الأصفر، كل ملابسه صفراء، أظن قلبه أيضًا، يقولون إن اسمه الأصفراوي بسبب لون بشرته، وربما

يفعل ذلك لأنه يحب الظهور، والأرجح أنه يريد أن يدلك على نفسه ووظيفته سريعًا.

شاهد زور جنايات، وهي أعلى المراتب في لائحة شهود الزور، إنها تعادل بالقطع رتبة لواء، هناك شهود بألف أو بخمسة، لكنه بلونه الأصفر يحصل على عشرين في القضية الواحدة.

أمير، لكنه يستيقظ مبكرًا، أول الداخلين إلى مقهى شهود الزور بالقرب من المحكمة، لا تسألني إن كانت هناك لافتة على واجهة المقهى بهذا الاسم، أو أنه اسم يتداوله الناس خفية أو سخرية، هو الاسم الرائج والمعتمد.

الروايات رهينة ما يشاع عنها مهما كانت الحقيقة.

في الركن البعيد الأصفر يجلس، بعيدًا عن شهود الزور الأدنى، إفطاره يأتيه، قهوته وسجائره دون أن يطلب، طلبه معروف، يتوسطه طبق البيض بالبسطرمة، البسطرمة أيضًا من بقايا اللحم لكن لحقتها الشائعة فازدهرت.

انتبه معي، ليس شاهدًا أعمى، هو شاهد بدبلوم صناعة حصل عليه بتفوق، لم يجد عملًا، أبوه يحتل سلالم المحكمة منذ سنوات فاحتلها معه، يكتب العرائض والشكاوى، شرب منه الصنعة، كتب آلاف الشكاوى، عرف الخبايا، تفوَّقَ على الأب، واحتلَّ مساحات شاسعة على الأرض، وفى الهواء.

لا تعتقد أنني ألعب بدماغك أو أسرح بك، يدرس القضية مثله مثل المحامي تمامًا، ومع الخبرة والأيام يشير على المحامي بما غاب عنه.

يقلبها بعناية لأنه يعرف بخبرته أن هناك محاميًا للخصم قد يصطاده في التفاصيل، ولو في تفصيله واحدة ويفوز بالقضية.

لكن بَخَّة سُمّ واحدة من الأصفراوي ستكون قاضية.

هو رجل وسيم، ولأول مرة في حياتك ستصادف كائنًا يحمل السُّم في جوفه ويكون وسيمًا، له بريق ووسامةَ نجم سينما لا يتكَرَّر، غير أنه، وحده، مليء بالنجوم.. الصفراء.

أعرف أنك ستسألني عما إذا كان القاضي يعرفه بحكم العشرة والحضور المستمر؟ القاضي يعمل من خلال أوراق بين يديه، ثم إن الداهية يُغَيِّر شكله وملابسه كل مرة، جلباب، بدلة، عباءة، عمامة، بدون عمامة، طاقية، بدون طاقية، مسبحة في اليد، بدون مسبحة، مرة بعصا، ومرة بدون عصا، حتى إنه يُغيِّر لكَنْتَه، نبرة صوته، طريقة كلامه، وحتى مشيته، يفعل هذا بإقناع كامل، دون خطأ واحد، بداخله استوديو ممثلين موهوبين، وأفلام، لا تستبعد أن يُغيِّرَ جنسه في إحدى القضايا، ثم يستعيده في القضية التالية، الأمر بالنسبة له لا يتوقف عند جمع المال، طبعًا المال مهم له جدًا، لكنه يستمتع بما يفعله، بكل شخصية يظهر بها، وإن احتفظ باللون الأصفر في قطعة منها، لا تنسْ، إنه «الأصفراوى»، لو غاب منه اللون لن يستطيع أن يُقدِّم شهادته الزور، المحبوكة، سينعقد لسانه، يَجِفُّ سُمُّه ويخسر القضية.

حاول أن تقف على أطراف أصابعك، تحيَن فرصة للجلوس بجواره والتعرف عليه، فقد تحتاجه في جناية يومًا ما.

لديه بيت ملك وسيارة كبيرة وخواتم ذهبية ذكورية ضخمة تلمع في أصابعه، وكل أصدقائه من المحامين.

بنى جامعًا يصلي فيه والده معظم الوقت وينام فيه شهود الزور من الدرجة الثانية والثالثة.

لست في حاجة بالطبع لأن أدلك على علاقته بناجح، ومن يحتاج من؟

ناجح يحمي ويطلب، يحميه ممّن شهد ضدهم زورًا، والرجل الأصفر ينفذ ويقبض.

محفظته منتفخة، والشائعة الأخيرة أنه اشترى مقهى شهود الزور، ويقوم الآن بتجهيز اللافتة ليعلقها بنفسه بعد مرور سنوات الحداد.

اسمع، مثلما طلبْتُ منك أن تحرص على الجلوس بجوار «الأصفراوى»، أطلب منك الآن ألا تجلس بجوار الرجل صاحب الوجه الكئيب، الذي لم يبتسم مرة واحدة في حياته، أمين شرطة على المعاش، عمل في الدورية ثم في المباحث، ليست له سوى مهمة واحدة وجملة يتيمة، يراقب عين الضابط، ينتظر أن تقع على واحد، صدقني أي واحد، فيندفع إليه ويقول بصوت كئيب: اركب.

صار اسمه: خالد اركب، في ماضٍ بعيد كانوا ينادونه الأمين خالد.

لا تجلس بجواره، لا تجلس بمواجهته، سيأكل دماغك ببطولاته القديمة، ودعمه الشديد للمعلم ناجح أثناء خدمته وخارجها، وأنه كان يخدمه لأنه يعرف بحاسته التاسعة أنه غير قابل للهزيمة، إنه الباقي، والداخلية إلى زوال، وأنه رأى مستقبل ناجح من البداية ورسم مستقبله على هذا التوقع.

كان عينه اليمنى في الماضي، والآن هو عينه اليسرى.

سيقول لك إنه كان يريد أن يكون مسجلًا خطرًا لكنه ضل الطريق ودخل الشرطة، حالته ميسورة، لديه سيارة ميكروباص مكتوب على زجاجها من الخلف: يا بنيَ اركب معنا ولا تكن من الكافرين.

لا تقف حين يقف ولا تنتبه لجلوسه حتى لو زحف على بطنه، كن حذرًا فحين يضرب الحشيش خياشيمه سوف يقف ويفرد يديه في الهواء، يمشي مسطولًا، سوف يصيح فجأة في قلب السرادق: اركب، اركب.

اسمع نصيحتي الأخيرة:

لا تركب معه.

٣

واحد ابن حرام، قاعد جوَّه نافوخي.

واحد كله إجرام، آه منه آه يا خوفي.

نطَّتْ لك الأغنية لحظةَ أنْ شغَّلْتَ جهاز التسجيل، كأنها تُتَرْجِم قلقك، وترَدُّدَك في الذهاب لذلك الرجل، المسجل خطر، رغم أنك فقط تريد أن تُعَزِّيه.

هل هي إشارة؟

العقلاء يستقبلون الإشارات بحكمة، يصدقِّونها، وأنت فنان وضابط مباحث، جزء منك يأخذ العلامات ويمشي خلفها، وجزء آخر يركن إلى حدْسِه وخبرته.

كَمْ من قضايا استغلَقَتْ، كان حلها مستحيلًا، ولولا أنك مشيت وراء حدْس غريب لما وصلْت لأيّ شيء.

ما بالك بالعوام والمهووسين، يستقبلون العلامات كأنها إشارة من السماء، أو أوليائهم الصالحين والطالحين معًا.

يفكر أن يعود من حيث أتى، تعاود الأسئلة الظهور، لم يسمع طنين الأذنين مذ غادر وظيفته، ارتاح تمامًا من التوقُّعات والتخمينات والجري وراء خيط واه قد يوصله- يا للعجب- إلى حل لغز الجريمة.

«واحد كله إجرام، آه منه، آه يا خوفي».

تذهب بقدميك الآن لواحد مجرم بعد أن خرَجْتَ على المعاش.

وسؤال مربك: ألم تفكر لحظة أن هذا المجرم قد يعتقد أنك جئت للانتقام منه، تتشفَّى فيه بعد مقتل ابنه الذي كان يُعِدُّه لوراثة العرش، والجلوس على كرسيه، وقد يومئ لأحدهم ليقتلك في قلب السرادق، ستدفن بلا رحمة ولا عزاء.

التشفي أكبر وسائل الانتقام، يلسع الروح لا البدن.

آه منه، آه يا خوفي.

لا، دعْكَ من هذه الهواجس، يجب أن تذهب إليه، لا تتردَّد، هو الآن في مصابه الأكبر، ودولته ستنهار بعد غياب الوريث الأوحد، وقد يستأسد عليه بقية المسجلين الطامحين، ذهابك سوف يُقوِّي قلبه، ويجعله يثق أنه مازال ابن الحكومة وواحد من كبار مرشديها.

نعم، يجب أن تذهب إليه، رغم أنه لم يفكر أن يهاتفك ولو لمرة واحدة بعد خروجك على المعاش.

اِسمع، المرشد ليس ابن خالتك، كلهم نسخة واحدة رديئة، ينفضُ يده من يد الضابط الذي رحل، ليضع مؤخرته في يد الضابط الجديد، مات الملك عاش الملك.

كان غليظًا حين سلَّمَكَ لباس الضابط الذي سبقك، والذي نزعه عنه مسجل خطر حقير، قتَلَتْه الحكومة فيما بعد، بعد أن علَّقَ كيلوت الضابط على باب داره، لكنه سلَّمَكَ الكيلوت، وترك لك أن تفهم الباقي وحدك.

لا، لن يعتقد أبدًا أنك أتيتَ للتشفِّي فيه، أو الانتقام منه، بينكما

فدان محبة وفدانان من اللعب، تحفظ له الجميل أكثر من مرة، ويحفظ لك الجميل مائة مرة.

في بداية عملك أَشْعلَ المسجلون خطرًا النار في شقة واحد اختلفوا معه، راحوا يُشعلون سجائر ملفوفة من النار الصاحية، بعضهم يلقطها ليضعها فوق المعسل، فجأة تجمَّعوا بالقرب منك، فريق كامل من المسجلين، كأنهم ذاهبون لتشجيع المنتخب، جاءت سيارات الإطفاء، راحوا يقطعون خراطيم المياه بالسنج والمطاوي كأنهم يقطعون فاكهة، والتفوا حولك، صرْتَ في قلب الدائرة.

كِدْتَ تبول على نفسك، سكاكين من جميع الاتجاهات، لا تعرف ماذا تفعل، ولا كيف؟ ستنسحب، الانسحاب قرار حكيم، كيف ستفعله دون أن يستصغرك هؤلاء المسطولون على الأرجح، أنت لا تستطيع أن تستعمل مسدسك، وحكاية فضيحة تعرفها عن كيلوت ما تتلألأ الآن في عقلك، ولا تريدها أن تحدث معك، كنت تُحاذر فقط أن يخطفوا منك المسدس، هم لن يقتلوك على أيَّة حال، سيعلقونك فقط في الهواء، وهذا قتل من نوع آخر.

صمتك ووجهك الجامد وعينك التي لا ترمش كان نذيرًا لهم، لذا كنت تحسب حساب كل رعشة في ملامحك.

في غمرة التوهان، فوجئتَ بصوت من خلفك أرعبك للحظة لكنك تماسكتَ، واضح الخشونة، نظرة واحدة منه كانت كفيلة أن يختفوا، كأنهم كابوس وانزاح، قال كلمة واحدة: البيوت بأبوابها يا سعادة الباشا.

وبدأتْ علاقتكما.

تتذكر أنك في الليل، وأنت جالس إلى مكتبك في القسم، رُحْتَ ترسمه من ذاكرتك، رسمته في ورقة كأنها صورة فوتوغرافية له، وحين طلب منك ضابط المباحث أن يراها أَدخلْتَ عليها تعديلًا سريعًا، كَشْطَةَ واحدة في عينيه كانت كفيلة أن تُغيِّر الصورة في أعينهم، ومع ذلك كنت تخشى أن يعرفوه، تتخيَّل أنك لم ترسم ملامحه، بل رسمْتَ روحه داخل عينيه، لذا صنَعْتَ دوائر حول بؤبؤ العين، فانتقلَتْ روحه إلى روح مسجل خطر آخر.

لكنه عرف، رغم أنك لم تخبر أحدًا، أمناء الشرطة لعنة الله عليهم، لا بد أن أحدهم لمحكَ وأنت تلعب في صورته وأخبره، ربما كان هذا في صالحك، أقصد في صالح الفنان بداخلك.

عرفَ أنك ردَدْتَ له الجميل، ما اعتبره هو جميلًا واجبَ الرد.

تفكر الآن في لوحة الجرنيكا لبيكاسو، لوحة الحرب الأهلية في إسبانيا، تتخيل أنك تستطيع أن ترسم أفضل منها، تضع فيها أمناء شرطة يتواطؤون على إبلاغ المجرمين بموعد الهجوم عليهم، وضباطًا يطاردونهم بمسدساتهم... مجرمون يقهقهون في جنبات اللوحة، غبار يتطاير من الأقدام، دخان يُظلِّل فضاء اللوحة من كل الجهات، ويصعد لأعلى، يكاد يخرج من الإطار، يكاد كل مَنْ يشاهدها أن يشم رائحة المخدرات، ورائحة الخيانة، ويسمع قهقهات المجرمين.

رسمْتَ ساعتها هاتفًا قديمًا يخرج من سماعته كل شيء، الصوت والحشيش والأمناء، والدخان يحوم حول الجميع.

أنت فعلت ذلك أيضًا، وإن اختلفت أسبابك أو تفسيراتك التي

تسولها لنفسك، بدلت في ملامح صورته سريعًا، جعلته واحدًا آخر دون أن تنتظر شيئًا كأنك ترد جميله.

في هذه اللحظة لم يكن مجرد مسجل، بل ظهر في ثوب كبير أو رئيس المسجلين.

اِسّمع، قولًا واحدًا، ضابط المباحث الناجح يقاس نجاحه بتعدد مصادره، بالمسجلين خطرًا الذين يتمشون داخل عباءته، ويربطهم من شواربهم في سلسلة مفاتيحه.

هذه عقيدة، ليست فكرة أو أسلوبًا فقط للعمل.

نعم، يجب أن تذهب إليه.

أنت لست عدوًا له، وهو ليس عدوك، حتى لو كان كذلك في فترات سابقة، إلا أنه قدَّمَ مئات الخدمات لك، ودلَّكَ- ولو من بعيد- على مخبأ الطرائد، الصيد الثمين، حتى لو كان الأمر في صالحه أحيانًا، كأن يدلُّكَ على غرماء له، أو لاعبين جدد دخلوا إلى الساحة لإزاحته، عيال مسرتنة، أعطاك نعم، وإنْ ظَلَّ يحمي ويخفي عشرات الأوباش الذين قد يهدمون مهنة المسجل خطر من أساسها، ويشوِّهون مسيرتها الخالدة.

كما أنه ليس عدوًا للدولة، بل لعب اللعبة الكبيرة التي ساعدْتَه أنت فيها، وهي أن يكون مخبرًا ومرشدًا للحكومة، بمكافأة رسمية من وزارة الداخلية رأسًا.

أصبح مخبرًا معتمدًا، كان عليك فقط ضبط العلاقة، وألا تسمح له أن يتغوَّل.

تعترف الآن بينك وبين نفسك أنك كنتَ دومًا معجبًا به بعيدًا عن

طبيعة العمل بينكما، تذكر أن من مآثره الكبيرة أنه كان ضد الاتجار في البودرة، الكوكايين والهيروين، مقاتل شرس ضد مَنْ يبيعها أو يستخدمها:

«البضاعة النظيفة هي الحشيش يا سعادة الباشا».

يعلو صوته ويلعلع، وحين تأخذه الجلالة وينفح عليه عرق الوطنية يصرخ:

إسرائيل هي من ترسل البودرة لأبنائنا، تريد القضاء على شباب البلد، الشباب الحلو والمزاج الحلو.

ورغم هذا الحِسّ الوطني العارم، إلا أن ذلك لم يؤثر على مجال عمله في المخدرات.

وله تسعيرة معروفة في الأعمال الأخرى:

خمسون ألف جنيه لهدم فرح، خمسون ألفًا لحماية فرح آخر، لا يفعل شيئًا بيده، ولا ينغرز في أرض موحلة، تحت يده جيشه الذي صنَعَه بكَدِّه وعَرَقِهِ على مدى سنوات.

هو لا يأخذ إتاوة، إنما مقاول يُنفق على عمل يُنجزه بقلب، وينام بضمير مرتاح بعد أن ساهم في تدعيم بيوت جنده.

كما أنه ليس وحده مَنْ يقوم بهذه الأعمال، الميدان واسع، سعداوي ضابط المباحث في قسم الفجالة قال إن أمه سوف تُجرى لها جراحة، وبعدها ستطوف البيت الحرام شكرًا، فطافت في حجر سعداوي الآلاف في ليلة واحدة.

نعم، يجب أن تذهب إليه.

لا تتراجع، تتذكر الآن جيدًا ذاك المجرم الذي دخل لملعبه،

ليبيع البودرة في حارة السقايين، دلَّكَ عليه ناجح، وحين أمسكته متلبسًا وقدَّمْتَه للنيابة، خلع الولد قميصه أمام المُحَقِّق، وبان جسده كأنه خارج من قلب معركة، قال إنه وقع تحت التعذيب، واتهمكَ بتعذيبه.

كان الملعون يعرف أن السجن الطويل في انتظاره، وربما الإعدام، يريد أن ينتقم منك، والأهم أن يُفسد القضية، أخرج بريزة من خاتم مؤخرته، عشرة قروش فضية، كانت هذه العملة قد اختفتْ من السوق منذ مدة طويلة، وأصدرَتْ الحكومة عملة ورقية بدلًا منها.

البريزة الفضية، تعويذة النجاة في جيب كل متهم، وخزائن المعلمين الكبار، آلاف البرائز؟

أخرجها تاجر البودرة، وبحافتها المشرشرة راحَ يكحتُ جسمه من جبهته حتى قدمه، ومن الظهر حتى الكعب، كأنما تمَّ جلده وسط صحراء.

لعبة لا يُتقنها غير المسجلين، ولا يعرفها غيرهم، سر الأسرار في مواجهة ضابط المباحث الذي لا باب له.

وجدْتَ نفسك متهمًا بالاستعمال المُفرِط للقسوة، بجريمة تعذيب لا تسقط بالتقادم.

كنتَ في أقصى حالات الحزن، رغم أن الضباط كانوا يقولون من وراء ظهرك، باستغراب وحسد: الضابط المجنون جاب القضية.

هنا تقدَّمَ السيد رئيس جمهورية المسجلين والمجرمين، وشهدَ أمام النيابة مع أشباله أنهم شاهدوا المجرم وهو يكحَت نفسه، حتى بانت طبقة ثالثة من جلده.

معلِّم كبير، هَندَسَ اللعبة كأنه كان يعرف تفاصيل ما سيحدث، قدَّمَ لك اثنين من لاعبيه لتحبسهما مع المتهم، يلازمانه في الحبس كي يشْهَدا عند اللزوم.

حين خرجْتَ معه من غرفة المُحقِّق، كان قد بدأ رحلة اختصار المسافات بينكما، كان يمشي خلفك، مد يده اليمنى على طولها بعد أن تقدَّمَ إلى جانبك، وعانقَ بها يدكَ اليسرى.

شبكَهما، ومضيتما معًا.

٤

من داخل السيارة أَنقِلُ عينيَ بين المقاهي على جانبي الشارع، أبحث عن فنجان من القهوة، أو فنجانين، عادة أدمنتها منذ بداية العمل بالمباحث، لا أستطيع أن أفتح عينيَ قبل أن أشرب اثنين، لا تفهم معنى الأشياء المزدوجة، معظم ضباط المباحث الذين يدخنون تجد الواحد منهم يحمل علبتي مارلبورو معاً، في يد واحدة، مشهد يتكرر كثيرًا، كأنه تقليعة، كأنه إشارة أو عدوى، هو كذلك بالفعل لدرجة أنك تعرف ضابط المباحث من مارلبوره دون أن تخطئ.

تراودني رغبة خفيفة أن أمر على «جروبي»، كانت حبيبتي السابقة تجلس فيه دائمًا، رغم أنه صار مكانًا لالتقاط بائعات الحب، لعقد الصفقات، ربما لم تكن تعرف ذلك أو لا تكترث، المكان قريب من قاعات عرض لوحات الفنانين التي ترتادها كثيرًا.

الشوارع خانقة، والسيارة لا تكاد تتحرك تحت وطأة الزحام، لا يوجد شبر واحد أو زاوية يمكن أن أركن فيه سيارتي ولو في مكان مخالف.

واحد يسحب بقرة في قلب الميدان، تقفز إلى ذهني أشياء غريبة، التفاصيل العابرة تعيدني إلى حياتي السابقة، كأن الحياة شاشة عرض تتناوب الصور عليها دون سابق إنذار.

جاء وقت كانت فيه حوادث الإرهاب على أشدها، الكل مشدود، الكبير والصغير، الضباط يبيتون في الأقسام وفي الشوارع، لا أحد يعود لبيته إلا لماما، إلا ليستحم على الواقف، كمين في كل شارع تقريباً، وكمين رئيسي في شارع كورنيش النيل.

تخيل معي هذا المشهد إن لم تكن قد سمعت به من قبل، ولا أظنه وصلك، اقتربت سيارة بيجو، وحين وقعت في الكمين أطلقت النار فجأة ثم فرت مسرعة.

هكذا ببساطة.

وانقلبت الدنيا. أُقْفِلَت الشوارع، لكن هيهات، من أطلق النار اختفى مثل قرص بنادول في بحر، تبخر كسحابة في صيف حار.

لم يستطع واحد من أفراد الكمين رغم كثافة عددهم أن يلتقط رقم السيارة، تعقدت الحكاية من بدايتها، ولا مفر من البحث عن كل سيارات البيجو البيضاء في المحروسة كلها.

كان على كل ضابط أن يعود لدفاتره القديمة، كل واحد يعود لمرشديه، أسرع من الضوء.

لديَّ مرشدون أكثر من الهم على القلب، أكثر من عدد شعر الراس، لكن تحت القبة شيخ، تحت إبطي كبيرهم.

طرت إلى الفيلسوف في الحال، لا أحتاج لأن أذكرك أن المسافة بيني وبين رئيس جمهورية المسجلين واضحة تماماً، ولا يستطيع واحد أن يقول إنها غير مبنية على الثقة.

بين كل ضابط ومرشديه مساحة من الثقة تعادلها مساحة من الشك.

بعد نصف ساعة كنت على رأسه، أمام سرير نومه، يسكن في شقة كبيرة أعلى مقهاه، حاولت زوجته أن تستأذن لتوقظه، عبست في وجهها وأشرت أن تبتعد.

من الدهشة بعد المفاجأة راح ينظر لأعلى، يبحث عن ثقب في سقف الغرفة.

«أريد السيارة الحقيقية والفاعل الحقيقي».

أوقن أن ناجح يستطيع في نصف يوم أن يؤمن لك نفس ماركة السيارة بنفس اللون، ويدق لك الأرقام التي تريدها.

على عَجَل لبس جلبابه، استأذن ليغسل وجهه، مشط شاربه بيده اليمنى واعتمر طاقيته، عند خروجنا داعبتُ طفلته التي بدا كأن لسانها انعقد، وجهها بلا نقطة دم واحدة، انتقلت إليها العدوى من أمها رغم أنها معتادة بالطبع على عمل زوجها العظيم، كنا من قبل ندخل المقهى ونرسل له من يخبره بوجودنا، لأول مرة تجدنا فوق رأسها وأمام سريرها.

وضعت يدي في جيبي، أخرجت ما وجدته، مددت يدي للطفلة التي ترددت في البداية، وحين سمعت صوت أبيها بالموافقة انقشع جوال بؤس كان يغطي وجهها وأشرق.

أصعب شيء في وظيفتنا هذه هو بؤس الأبرياء، ربما لا يلتفت إليه ضابط لكثرة الجرائم، من شراسة المجرمين، ضغط العمل، نزيف الأعصاب، نعمل على أعصابنا نكاد نمشي عليها، جريمة قتل تجعلك تنسى أن تأكل لولا أن يوقظك أحدهم، لكنني أعرفني جيدًا، قبل أن آوي لسريري أو أجلس أمام حامل اللوحات لأضرب

فرشاة في أي اتجاه، قد يقفز لي وجه القاتل والقتيل، لكن ما أحمله إلى سريري قبل أن أغمض عيني هو بؤس الأبرياء.

«أريد السيارة الحقيقية والفاعل الحقيقي، فورًا».

يمسح شاربه بأناقة كما يليق بزعيم حقيقي فاجأته الكاميرا، يحرك يديه كما لو كان يقود سيارة، لحظتها عرفت أنه يستطيع أن يأتي بالسيارة، أية سيارة، هو فقط يفكر أن يأتي بواحد يعترف، المهم أن يعرف أن يسوق كي تنجح القضية.

«القضية يمين مش شمال يا ناجح».

المشهد مقبض والقسم يغلي، الكل على سطح ساخن، تنطق الوجوه قبل الأقدام، أصوات مكبوتة ووجوه مكتومة بينها وبين الهزيمة سيارة بيجو، والوزارة بكامل عدتها في قلب القسم، كل الرتب التي تتخيلها، الأمن المركزي، قوات مكافحة الإرهاب.

حرب.. حرب حقيقية.

بعد ساعتين فقط، كان ناجح قد نجح أن يأتي بالسيارة الحقيقة والسائق الحقيقي، دخل علينا منتصرًا مع اثنين من المرشدين اللذين يعملان معه، قبضوا على السائق، وضعوه بالقوة أمام عجلة القيادة، أرغموه بجبروتهم، فقاد السيارة بهم حتى القسم.

لم يصدق مدير المباحث نفسه، قضية إرهاب في ساعتين، يسترد الضباط أعوامهم السابقة وتتورد خدودهم لحظة النصر.

وانكشفت الحكاية: السائق ومن معه يسرقون المواشي من محافظة بعيدة، مجموعة جرابيع، يضعون العجل داخل شنطة السيارة، لا يستعملون سوى سيارات البيجو التي تتسع شنطتها

لعجل بحجم كبير، وحين اقتربوا من المكان لم يتوقعوا كمينًا في السابعة صباحاَ، ضربوا لخمة، تصرفوا بقلق وتوتر اللحظة، أطلقوا النيران في الهواء في اتجاه الكمين لكن لأعلى، لم يصب أحد وفروا بعِجْلهم.

انقلب الإرهاب إلى عِجْل.

وانفض المولد.

يا ابن الإيه يا ناجح.

كان يمكن أن يأتي بسيارة باللون الذي تريده، ويستطيع أن يخلق لك شخصًا يعرف القيادة، لكنه كان يبحث عمن يقبل أن يعترف بهذه الجريمة، الذي يعترف ولن يتراجع إلا أمام حبل المشنقة، يختار الذين لا توسوس لهم أنفسهم ولا يضحك شيطان من الإنس عليهم أو يشتريهم، الشيطان العادي لا يقربهم، يعرفهم، من نفس طينتهم.

في شغلتنا هذه ترى العجائب، ترى عشرات المسجلين الذين تابوا توبة نصوحا أو نصف توبة، يستطيعون سد خانة أية قضية، يأتون بمسروقات وهمية وناس حقيقيين لم يرتكبوا الجريمة ليعترفوا بها.. بعض الضباط يفعل ذلك.

في شغلتنا هذه ضباط تسأل واحدًا منهم عن أهمية عمل الضابط، يقول لك: الضابط موقف ويقول آخر: الضابط تصرف، لكن لا أحد يتصرف مثل ناجح.

أنظُر في عينيه، كيف استطاع أن يبني هذه المملكة التي لا تكاد تُرى، لكنها تفعل كل شيء، يستطيع أن يأتي لك بالفاعل وأنت

جالس في مكتبك، بالصدق أو بالخديعة، أو يدلك عليه من بعيد لتنزل وقواتك لتقبض عليه.

حين تحدث جريمة يكون ناجح وقبل أن يصل إلى مقهاه قد عرف الفاعل ومكان البضاعة وأين وكيف تم تصريفها.

تجده في انتظارك.

ما من مسجل يستطيع أن يتصرف في قشة دون مشورته، إنه يلعب الدورين معًا: مسجل خطر ومرشد طيب يساعد الحكومة، لكنه لا ينسى أبدًا أنه زعيم على قبيلة كبيرة- حتى لو كان زعيمًا في الظل- ولن يسلمك أحدًا إلا تحت الضغط، إلا حين لا يكون هناك مفر من خرم الإبرة، حين تضيق عليه ولا يجد حتى خرم الإبرة، يفاوض ببراعة، بصياعة، بمعلمة، بمكر المعلمين الذين لا يركنون ظهرهم لحائط واطئ.

لعبة عض أصابع متبادلة، يحافظ على ملكه بألا تحرجه أو تجرحه أمام مريديه، ويقدم لك بكرم واضح ما يمر من تحت ضرسه أو ما يراه مخلًا باللعبة، وكما أخبرتك يستطيع أن يبيع أي واحد ليس من صلبه الكريم، يقبل ما تصل إليه يداك، يعرف كل شاردة وواردة، تصب في حجره كل المعلومات، أحيانًا قبل حدوثها.

قلت لك إنه لا يريد دور الزعيم وإن بدا كذلك في مملكته، إنما يلعب دور المرشد الكبير دون أن يشم أحد الخبر، وإن بدا صغيرًا عليه وليس من مقامه.

كأنه لم يستطع أن يفلت من الصفة: مرشد للمباحث، لكنه من نوع آخر، ببساطة هو الخلطة السحرية: زعيم حين يطلب منه

الأعوان المشورة، وتاجر عند تصريف الغنيمة، وفي النهاية إن ضاق الخناق مرشدًا للحكومة.

يقبض من الحكومة ليس احتياجًا لملاليمها، وإنما للبقاء على اللائحة القريبة من الحجر، حجر الحكومة:

«وكله من خيركم يا سعادة الباشا».

يفعل ما يريد، لكن حين تنضج الأزمة وتستحكم يقف في صفي ويبيع من يبيع عدا ابنه.

المسافة بين ضابط المباحث والمرشد الذي كان مسجلًا خطرًا ليست كالمسافة بين ضابط ومرشد عادي متطوع أو بأجر يرمي فقط بالمعلومات.

أنت أمام ثعلب يغير ملامح وجهه ببراعة دون حاجة لعمليات، بوجه شيخ صالح، طامح للقيادة في ملعبه، ذئب صارم حين ينسى دور الشيخ أو حين يفلت منه، لكنه يستطيع بسرعة أن يغير التوصيلة ويعدل البوصلة، ذئب يقص أظافره حين يدخل مكتب ضابط المباحث، على استعداد أن يخلع طاقيته ويكشف ويعري رأسه حتى يظل قريبًا من عين الرضا.

ثم إنه على حسي واسمي يفعل ما يوطد به مكانته في منطقته.

ناجح كان هدية السماء، لو لم تأتني أو تقع في حجري لاخترعته.

ما زلت أبحث عن مكان أشرب فيه قهوتي، دماغي ضربت، أتذكر الآن جيدًا: كانت الوزارة تقوم بحملة من حين لآخر لضبط المخالفين والسلاح غير المرخص بالذات، بالعربي هوجة للردع العام وكل من تسول له نفسه المخالفة، وهذا الكلام المحنط،

هوجة يسمع بها كل الناس في منطقة ما، اخترعت المستشفيات جراحة اليوم الواحد واخترعنا على منوالها حملة اليوم الواحد بقوات كثيفة، كنا نقبض على هاربين من أحكام بالسجن، تجار مخدرات وغيره، لكن الحملة التي تستطيع أن تضبط بندقية آلية كانت هي الفائزة وصاحبة الصيت.

يكاد يضحك الآن بعد أن انتشر السلاح الآلي في كل مكان، وصار في أيدي الأطفال، حتى الجرينوف أصبح بين يدي أصغر الخطرين.

أتذكر أننا احتجنا لبندقية آلية حتى نزين نتائج الحملة، بندقية كبيرة، ذهب ناجح بنفسه، دفع ثمنها من جيبه، قال للتاجر إنه لا يستطيع الخروج بها وحده من المنطقة:

هناك نقطة شرطة قريبة من بيتك، والمكان مرصود.

التاجر الذي راح يضحك بسخرية واستهزاء قال:

«هم يعرفون أكثر منك أنني أتاجر في السلاح، وأضاف بعد قهقه عالية: الضابط أحيانًا يطلب قطعة مني».

أتذكر الآن جيدًا كأنني أراها أمامي على شاشة أنني وضعت الخطة، ذهبت رفقة ناجح، بعد أن لبست جلبابًا مثل جلبابه، على رأسي طاقية استعرتها منه، كبستها جيدًا، وملفحة قريبة من ملفحته، أصررت أن يخرج التاجر معنا، يوصلنا حيث السيارة بعد نقطة الشرطة حتى نكون في الأمان.

خطة محبوكة، شعر التاجر أننا خائفون، وإنه يحمينا.

أفهمت معاون المباحث أن يجلس أمام مقود السيارة وأن يكون

جاهزًا للانطلاق فور وصولنا، فتحت الباب الأمامي لناجح ليجلس بجوار السائق، وفتحت الخلفي من اليمين ليضع التاجر البندقية ثم أجلس أنا، في لمح البصر قمت أنا وناجح بحمل التاجر من قوائمه ورميناه كعِجْل داخل السيارة، قفزت ونمت فوقه، كتمت أنفاسه وانطلقنا، لم أتزحزح من فوقه قبل منتصف الطريق ليأخذ نفسه، وحين وصلنا القسم كان التاجر ينظر بكل غيظ وانتقام العالم ويقول جملة واحدة يرددها بلا توقف:

«والله لأقتلك يا ناجح، والله لأقتلك يا ناجح».

٥

صرتما صديقين، أنت وناجح.

لا أحد يعرف سبب العلاقة الوطيدة التي جمعت بينكما، سبب ظهور العلامات التي وحدت بينكما وجعلت لكما شيخًا واحدًا.

قضية قتل راح ضحيتها شاب عند حافة أرض زراعية، كنت أول من وصلت، الأرض عبارة عن بركة طين كبيرة، من سقى الأرض ترك المياه مفتوحة حتى أغرقتها، ما إن تضع قدمك حتى تغرز إلى صابونة ركبتك.

لا شيء واضح في المكان، الوقت بعد المغرب في عتمة الشتاء، والفوانيس وأضواء التليفونات لا تكفي لرؤية عنزة كبيرة.

حاولت أن تبحث عن أية علامة، مسرح الجريمة هو بطلك الأول، الذي يمكن أن يبوح بالأسرار، بل هو سر الأسرار، والقطفة الأولى الحاسمة تأتي دائمًا من قلبه.

لا شيء سوى جثة لشاب تم تخريط وجهها حرفيًا طولًا وعرضًا، لم يترك الجناة أي أثر في الوجه حتى لا يتعرف عليه أحد.

عينان مقلوعتان من محجريهما، معلقتان لأعلى كأنهما ترشدان ملائكة الشمال إلى المجرمين، لا تعرف مكان الفم من الأنف، لا حواجب، لا جبهة، خدَّان متورمان، أذن مشقوقة بالطول بقي

نصفها، وأخرى مملوءة بالطين، كل ما في القتيل ما زال يتألم ويصرخ في وجه قاتله.

عمل غير صالح، ولا شيء غير أطنان من زجاجات فارغة تكفي لتعبئة مصنع كوكاكولا، أحذية مُقدَّدَة ربما رماها أصحابها لتصبح طرية بالماء والطين، كانت ميتة فعادت إليها بعض حياة بجانب جثة مقتول، وفخار مكسور في كل متر كأنه دومًا يدل على النهايات أو يعود إلى منبته الأول.

لا دليل يوحد الله، لا تريد أن تخرج من المكان، تود لو ينطق الطين، يدلك على أي شيء، ربما يبوح لك بشيء يساعدك في حل القضية.

أن يترك ضابط مباحث مسرح الجريمة دون أن يلقف أي دليل أو شاهدًا ولو ضعيفًا سوف يعقد اللعبة كلها، بل ينسفها من الأساس.

لا شيء سوى همهمات غاضبة من ناس لا يعرفونه، همهمات ليست من أجل القتيل بل ضد الضابط الذي يجب أن يحل اللغز في الحال.

رحت تبحث في جيوب المقتول، لا أثر حتى لبطاقة أو خطاب من حبيبة أو أب أو صديق يدلك فقط على شخصيته ثم تبحث بعد ذلك عنهم.

لم ينظف المجرمون وجهه من معالمه، بل نظفوا تاريخه كله، محوه حتى يذهب إلى القبر مجهولًا، لا ملائكة تعرفه ولا شياطين، دون عديد أو صراخ.

تسأل نفسك: ماذا يفعل الميت في جنازة صامتة لا يسمع فيها صوت واحد من أحبته.

لا شيء، ستخرج الآن بنصف خيبة إلى أن تسوق لك الأقدار أي دليل، بل ربما بكل الخيبة، ستعود إلى رئيسك مفتش المباحث، سوف يرمقك بنصف عين، ليته ينظر إليك ويقول: ما هذه الخيبة.

الجرم الكبير أن أولاد الكلب قاموا بتخريط بصمات أصابعه، يديه ورجليه، كأنهم عتاة المافيا في جريمة لا تحدث إلا في السينما.

صحيح أن هناك قضايا كبيرة انتهت إلى مجهول وأقفلت على أسرارها، سيقولون إنك فنان لن

تقبل بهذه النهاية، ولن تقفل القضية على هذا النحو وأنك هائم في السماء تسأل الملائكة حلًا، وأن القضاء والقدر ليسا في قاموسك، لكن عليك أن تجد بابًا لهذا القدر حتى تذهب للقضاء بقضية فككت أسرارها.

«آدي آخرة الفن، فرجنا يا فنان على الحل».

استهوتك الحكاية رغم غموضها الشنيع، رحت تنظر إلى الناس المتجمعين المشغولين بالجثة لا بالمسرح، ساعتها كنت تبحث عن علامة، أية علامة، تقودك ولو بالحدس لا بالتحليل إلى مبتغاك.

يحوم المجرم حول مكان جريمته، وربما يكون بينهم.

لكن لا خبر يتيمًا ينقذك، ليس سوى صوت غربان تعود إلى أعشاش الأخرين، مثل الغربان الذين هدموا عش القتيل وعمره.

كنت تبطئ في الخروج من قلب المسرح، والأعين كلها حولك مستاءة تستحثك بخيبة على الخروج، كأن على ضابط المباحث أن يفتح المندل ويعرف القاتل في الحال.

تباطأت، لكنك في النهاية بوجه نصف مهزوم خرجت، جاءت

عربة الإسعاف، حملت الجثة، وبدأ الناس الذين تحاوطوك في البداية ينصرفون كلٌ في اتجاه.

ساعتها، وكما فعل سابقًا جاءك من خلف، اهتزت يدك من شيء لامسها، استدرت لتراه، كان قد حاذاك كعادته أيضًا، قدم لك كيسًا من البلاستيك به شيء لم تتبينه، غارق في الطين كأنه كفن له، رحت تنظر إليه مستغربًا، رفع يده قليلًا وقال:

«خذ فردة الشبشب هذه، ربما تنفعك».

مددت يدك، أخذتها:

«من أنت»؟

«أنا الدكتور، الدكتور ناجح».

أكمل وهو يشير بيده بعيدًا:

«أنا صاحب مقهى السعادة، اسأل عني تجدني».

طلب هاتفك، ورغم أنك تعجبت إلا أنك أعطيته له طائعًا، كأن العلامات بدأت في الظهور، كتب رقمه ثم دق على هاتفك منه:

«رقمي لو احتجتني».

قبل أن يمضي أشار مودعًا:

«ستحتاجني يا سعادة الباشا، تسعدني معرفتك».

هذا ناجح الذي أنقذك فيما مضى.

تلفتُ،

كان قد مضى.

يخرج لك هذا الرجل كل فترة كأنه قرينك.

كن أنت قرينه هذه المرة وفاجئه بالعزاء في ابنه.

لم تبح لأحد من زملائك بموضوع فردة الشبشب، وضعته في درج، وحين غفوت قليلًا في مكتبك، قمت مذعورًا والفردة تنادي عليك.

أخذتها، غسلتها جيدًا من طينها، فردة شبشب صغيرة لشخص ربما كان فقيرًا، بالقطع هو فقير.

قضية مضروبة، لن يهتم بها أحد.

رحت تدق بالفردة على يدك علها تنطق، حين قلبتها وجدتها محروقة من أسفلها في مواضع كثيرة على وشك أن تتفحم لولا بقع قليلة.

رحت بأصابعك تلمس كل موضع احترق، تلمس كل مكان وحده، تكاد تضمها لصدرك لتنطق، رحت تكلمها وتكلمك، كأن لها لسانًا وعيونًا تنظر إليك.

تمسح رأسك، أصابتك لوثة الفن.

مائة سؤال وسؤال، مقاسها ٤٢، والحمالات زرقاء.

هذا الشبشب ربما ليس للقتيل، كان مدفونًا بفردة واحدة، رماها أحدهم بعد أن أكلها الدهر وأكلته، وربما كان لامرأة تطبخ بالخشب أو تعمل في غرزة، هو على الأرجح لصبي يعمل في غرزة للحشيش، المنطقة كلها تعمل بالحشيش، تدخنه كأنها تؤدي الزكاة، تخرجها يومًا بيوم حتى تمسح ذنوبها أولًا بأول، وربما، مائة احتمال.

لكن لا، فردة واحدة لن تحل قضية ولا قيمة لها، سيقولون هذا

المجنون يمر على أقدام الناس يقيسها على شبشب، ومنذ متى كان الناس في هذه المنطقة يلبسون مقاساتهم.

عبث، الحكاية كلها عبث، لا خيط حقيقيًا أمامك، خيطًا واحدًا يجعلك تلعب وتحل اللغز، لا بد أن تشتري كمية كبيرة من ألغاز ميكي علك تجد ثقبًا أو كوة تفتش فيها عن أثر لمقتول، أو يخترع لك عبقرينو آلة قراءة الشخصيات من شباشب أصحابها.

كتب الشرطة لا تحتوي على قضية مماثلة.

يجب أن تحصر أولًا بلاغات المفقودين ربما تعثر على بلاغ لواحد لم يجده أهله، واحدًا أو أكثر، وساعتها يمكن أن تجد بابًا أو نافذة، تعرض عليهم الشبشب بحروقه.

تفكر أن تعيده إلى الخزانة، مازال يكلمك، يشير عليك، لكنك تفكر أنك يجب أن تذهب الآن إلى المشرحة لتقيس الشبشب على قدم القتيل.

نعم، هذا ما يجب أن تفعله فورًا حتى تغلق أحد الأبواب، ليلبس القتيل شبشبه أمامك وترتاح.

لكن من يلبس شبشبًا كهذا ربما أعطاه له أحد، ربما كان لأبيه أو لأي كان.

ما زلت تفكر أن تعيده إلى الخزانة.

ودق الباب.

لا بد أن مجنونًا آخر يدق عليك في الرابعة صباحًا، لعلها قضية أخرى، يا ستار.

ودخل عبقرينو.

صديقك الذي يحب المباحث والقضايا أكثر من روحه، يشاركك حل الألغاز، يذهب معك في كل مكان، كان تليفونه مغلقًا هذا المساء وحتى حين طلبك كنت في قلب الطين والدماء.

أين كنت يا كولومبو؟

لم يرد، كان يحمل كيسًا آخر راح يمرره أمام عينيك، كان يحمل فردة الشبشب الأخرى.

تأكدت من تطابقهما، وبالحروق نفسها.

فردة أخرى، بدأت الحكاية تكتمل يا فجنون.

فردة أخرى في يد عبقرينو.

وصل مسرح الجريمة بعد خروجك بقليل، كأنه هبط من مركبته الفضائية، أوقف سيارته في أقرب نقطة منه، وجهها، سلط عليه كشافات السيارة، ارتدى قفازه وحذاءه المطاطي وراح يفتش وحده.

«قلبت الدنيا، لم أجد غيره، وأظنه سيتكلم».

عبقرينو، لم تعد تتذكر اسمه الأصلي الذي ولد به، الموجود في بطاقة الرقم القومي، بل ربما نسيه هو، لا أحد يعرف له اسمًا أو كنية غيرها.

هو ذراعك اليمنى واليسرى، هبط على المباحث من كوكب آخر، ليس ضابطًا رغم هيبته، تحتاج مئة لوحة كي تستطيع أن تجيب على غرامه بالبوليس، المباحث تحديدًا، لا تستطيع أن تقول إنها غواية، أو أنها تستهويه فقط، يعشقها بدمه.

غرامه أن يجلس معك بالساعات، يترك عمله، لا تنام ولا

ينام، يفك لغز القضية، وحين يظهر القاتل أو السارق بعدما فكك القضية وأعاد تركيبها، يشتري زجاجة نبيذ أحمر، يرشفها وحده على مرأى منك، وعند أول رشفة وآخر رشفة أيضًا يقول بسعادة مغمض العينين:

الحمد لله على نعم الله.

ليس طامحًا لسلطة، أية سلطة وإن لم يخل الأمر أحيانًا من حسرة على لسانه، ورغم أنك تعرف أن الناس تكره البوليس أكثر من المجرمين، إلا أنهم يتمسحون بالسلطة بل يقفزون في قلبها إن واتتهم فرصة بل نصف فرصة.

غاوٍ، والغاوي يرمي نقوطه على الأعتاب، تحت المخدات، فوق رموش الراقصات، مغرم بالبوليس منذ صغره، ربما لم يلبس بدلة ضابط في أحد الأعياد، ربما لم يحل ألغاز ميكي مثلك، ربما فعل وأكثر، واقع في هوى أخذ بقلبه وعقله معًا.

مثله مثل معظم الطلاب في بلادنا، يفكرون أول ما يفكرون في دخول كلية الشرطة، إرث قاس تستطيع أن تعرفه بسهولة من أعداد الطلاب الملطوعين أمام بوابات التقديم، أهاليهم تتملكهم نفس اللهفة، ورغم أن العالم اتسع إلا أن لعاب الناس مازال يسيل مدرارًا أمامها.

حاول أن يدخل الكلية لكنهم رفضوه، عمل مهندسًا للاتصالات إلا أن الدودة ظلت تلعب في عقله وتأكل مؤخرته.

وجد الباب مفتوحًا أمامه حين تعرف عليك، وجد طاقة القدر، توطدت علاقتكما، يخرج معك في كل مأمورية ولو تافهة، يرى،

يراقب ويتعلم، مع الوقت صار الخبير الأول، أنت تلعب بروح الهواية وهو يلعب بعقلية الاحتراف.

أنت لا تريد أن تثبت أي شيء سوى إصرارك أن تنجح في لعبة وظيفة أدمنتها ولو لم تحبها، وهو كلاعب كرة جاءت له الفرصة في ناد كبير فاصطادها بكل ما أوتي من حلم وغرام.

القصة ليست في الدراسة، المباحث عمل جديد أمام كل ضابط، الكتب وسنوات الكلية لن تنفعك في شيء سوى أن تقلب يدين فارغتين وتلقط وحدك، وهو كان ملقاطًا كبيرًا.

مهندس اتصالات، أول من عرفك كيف تستخدم الهواتف الجديدة، الموبايل، المواقع «اللوكيشن»، ساعدك أن تكون أول من يستخدمه، تعرف مكان المشتبه به في ثانية، يكفي أن يفتح أحدهم هاتفه أو يقوم بوضع شريحة جديدة، صار المتهمون يرونك أمامهم ولو في آخر الدنيا كأنك هبطت من السماء.

فردة أخرى وعبقرينو معك، بدأت اللعبة واتسعت.

«لا بد أن القتيل كان يعمل في مقهى».

لكن عبقرينو أضاف: أو في محل كباب.

حرثتما المقاهي ومحلات الكباب، لم تتركا منقد فحم، هذا شبشب لشاب كان يقف أمام منقد الفحم، يهش عليه، يطير الفحم المشتعل، يمسكه بيده أحيانًا ويعيده لموقعه حتى ولو لسعه كأنه يمسك طوبة، أو يسقط على الأرض فتدوسه الأحذية والنعال.

فردة أخرى تلوح لك، ومناقد فحم ومقاه ومحلات شي اللحوم.

أسبوع مضن، لم تترك غرزة حشيش إلا ودخلتها، راجعت

أسماء من حضر ومن غاب، ربما القاتل في من حضر، حتى تنكشف الحكاية.

صبي يعمل في محل كباب لم يبلغ صاحبه عن اختفائه، وتعقدت الخيوط، ربما قتله صاحب المحل الذي غاب بالصدفة ولا أحد يعلم مكانه.

«اشتدي يا أزمة، انفرجي».

يقول لك عبقرينو.

تتأمل هذا الغاوي الذي يعمل بقلب ورب، أصبح اللغز لغزه والقضية قضيته، وكأنك أنت الذي تعمل معه لا العكس.

تصادف كل يوم واحدًا من هؤلاء، جمعية أصدقاء الشرطة، الذين يكبسون على فروع البوليس، يحتكون بالضباط، يعرضون خدماتهم بوجه مكشوف، أحيانًا يعرضون أشياء أخرى، يظهرون في الصورة، يبنون صيتًا وسمعة في المناطق التي يعيشون فيها أن القسم في جيبهم، وشيئًا فشيئًا يهرع إليهم الناس عند أية مسألة لها علاقة بالأقسام، المرور، البلدية، وأخيرًا المباحث.

شيئًا فشيئًا يصلون إلى مشارف السلطة التي يرومونها ليل نهار، بعضهم طامح فقط لأن يقال عنه في منطقته إنه حبيب ضابط المباحث، يستمد سلطة كاملة من جملة وحيدة، بعضهم يعشق ضابطًا مع السلطة، يصعد معه إلى الكمين الذي يستمر لأربع ساعات أحيانًا، يرتاحان معًا في سيارته المرسيدس، وربما ينام الضابط فيها، والأمر لا يخلو في معظم الأحيان من عشاء من الكباب.

لكن عبقرينو ليس واحدًا من أصدقاء الشرطة الذين يركبون مع ضابط الدورية، ويطلبون منه أن يتكلموا في جهاز اللاسلكي وينادوا على القسم كأنهم ضباط.

منهم متربحون، يستغلون أسماء الضباط ليفرضوا سطوة وسلطة في مكان، ويتخذون ذلك معبرًا حريريًا إلى النساء.

عبقرينو ليس واحدًا منهم، هو تركيبة أخرى تمامًا.

نعم، شاب قتيل يعمل في محل كباب، ينام في غرفة أعلى المحل، ليس هناك أحد موضع اتهام، وصاحب محل كباب اختفى ليلة القتل، وفردة شبشب هدية من مسجل خطر وفردة أخرى من عبقرينو.

خيوط الحكاية بدأت تتشابك، سيحلها عبقرينو، سيحلها.

أنت وضعت أمامه كل شيء.

في كل مرة تضعه في المواجهة، يمتلك الغريزة والغواية، وما عليك إلا أن تحركهما، تحطه أمام الشاشة، تحكي له كل تفصيله وتتركه.

هناك ضباط يخفون المعلومات عن المرشدين الذين يعملون معهم.

أنت لا، أنت تضعه في قلب الإثارة، أمام بوابة النجاح، الناجح هو من سيحل القضايا، والكل يبحث الآن عن فرصة للتحقق في وقت شحت فيه الفرص، واحتكرها أبناء العاملين في أي مجال.

نعم، أعطيته الفرصة، ما إن قبض عليها حتى لضمها بحلمه،

أخذها بقلب عاشق ممتن، يتقدم بجموح، ورغم أنه ناجح كمهندس اتصالات إلا أنه لا يشعر بذاته إلا وسط رائحة المجرمين.

يسوق وأنت نائم، يأتي في أنصاف الليالي، كان يقول لك في لحظة صفاء- يقولها بصوتك- يحكي لك بصوت ضابط مباحث: اللذة أن تفك اللغز، أن تصبح مسجلًا خطرًا على المسجل، أن تتقمص روحه كأنك هو.

كنت تعامله على هذا النحو، علمته ألا يترك ولو نعلًا قديمًا في محل الجريمة إلا أخذه ولعب عليه.

قال صاحب المحل أن ولدًا جاء ليعمل عنده وسكن مع القتيل في الغرفة ذاتها.

رفعت الشبشب أمام مفتش المباحث وقلت بصوت عالٍ: ألف مبروك، القضية انحلت.

هنا تقدم عبقرينو، عرف إن هذا الولد استلف نقودًا من القتيل، وحين طالبه بها بعد شهور استدرجه مع أصدقائه:

.. خرطنا وجهه كله حتى لا يعرفه أحد.

قتيل، طالب في الجامعة يعمل في محل كباب بعد الظهر ليعيش، يصرف على دراسته ويرسل لأهله الغلابة.

هناك دائمًا ضابط مباحث فلتة، له مرشدون وأصدقاء، وفي الداخلية هناك مباحث للمواصلات والنقل والكهرباء وغيرها عدا المطافئ ليس لها مباحث.

تضحكان معًا:

«من سيتوقع الحرائق قبل وقوعها»؟

كان من نصيب عبقرينو أن أصبح اسمه: معاون مباحث المطافئ، يقولها الضباط والأمناء تندرًا عليه، لكنه من حل اللغز في النهاية.

تهرش رأسك كأنك سقطت من علٍ: هل كان ناجح يعرف الجاني حين قدم لك فردة الشبشب.

موهبة المسجل تسبق أحيانًا موهبة الضابط، أو تسبقه في الفعل بخطوة.

بعد القضية، رغم حزنك على الشاب، علقت فردة شبشب على حائطك وأنت تسمع من خلفك: الضابط المجنون ومعاون مباحث المطافئ حلا القضية.

٦

ربما تكون الآن أيها القارئ أمام باب السرادق، وإذا كان ناجح قادرًا على أن يبيع رفاقه وحلفاءه بهذه البساطة، مثلما فعلَ مع تاجر السلاح، دون أن يخشى القتل أو التهديد، فماذا تتوقع أن يكون؟ ولا تَقُل لي أن بيع الرفاق والتخلص منهم طبيعي ومتوقع في عالم الإجرام، هذه فكرة غير صحيحة عنهم، على الأقل ليس بهذه السهولة.

إذا نظرت من أي ثقب في خيمة السرادق ستعرفه دون أن يشير إليه أحد، ستعرفه من كرسيه، من صورته المعلقة في قلب السرادق بجانب صورة المرحوم ابنه.

هؤلاء قوم لا تعنيهم الأسماء، صورهم معلقة في القلوب وعلى الحوائط، حتى حوائط سرادقات العزاء، وفي نفوس تابعيه.

ولولا الخشية واستراتيجية ناجح: أن تظهر كأنك تختفي وأن تختفي كأنك ظاهر، لعلقوا صورهم على أعمدة الإنارة في المنطقة، لكنهم يفكرون في الأمر وقد يفعلون.

تفكر أن هذا الرجل يتخفى خلف الزعامة، يختفي منها، لكن المسجلين خطرًا لا يقبلون بأقل من زعيم كبير، حتى وإن كانوا قتلة.

تفكر أن كل الناس في بلدنا تبحث عن زعيم، وإن لم يكن

موجودًا لاخترعوه، يحملونه إلى الكرسي، يمجدونه يسبحون بحمده ولا يأكلونه، حتى لو أطاح النمل برجل كرسيه.

لا تلتفت لكلامي، أنت لن تفهمه وأنا لم أفهمه كذلك إلا مؤخرًا بعد سنين طويلة من الشقى المالح، من الجري خلف الناس والمجرمين.

لا أعرف، هل أنا أفهم في علم النفس أم أستطيع أن أقرأ الوجوه، أم أفهم في الرسم والألوان؟

كل ما أريدك أن تنتبه له أنك ستصادف إن قررت الدخول للسرادق المعلم شحته، ستعرفه وحدك من هيئته، وجه بأخاديد مثل أرض عطشى ونظرة مستسلمة، قصير نحيل كأنه عصا ترتعد وتتلقلق داخل جلباب، بشرة تميل إلى الصفرة، يقولون رجل قراري، صعب أن تصل لقراره وعمقه، بشارب نصف منكس، لن تعرف ماذا يخبئ، وكل ذلك تحت طاقية طويلة تكاد تعادل ربع طوله وإن ظهرت كنصفه.

هو من سيصحبك إلى الكبير، ربما تجد دخانًا أبيض فوق رأسه وحده، حيث الدخان الأزرق يطير فوق الرؤوس الأخرى ويغطي المكان.

له صنف لوحده كما هو صنف وحده.

حين احتجنا بندقية آلية في حملة أخرى ولم نجد، كان ناجح في الموعد، أحضرها ووضعها أمامنا، بالطبع لم نسأله من أين؟ ولا هو انتظر، لكن المشكلة التي واجهتنا من الذي سيعترف بأن السلاح يخصه.

قال ناجح: «شحته موجود».

شحته النازح من أسيوط البعيدة الطاردة، المدينة القاسية على أهلها، يفتش عن لقمة عيش، حين اختبر الدكتور ناجح قدراته لم يجد له قدرة سوى أن يكون مرشدًا، سوى الطاعة، أن يكون لاعبًا احتياطيًا يستدعيه متى احتاجه، يعمل في القهوة تحت عينه وينام في واحدة من شقق الدكتور، مستعدًا للمساعدة لكن قلبه لا يطاوعه في الأذى، لا يفهم إلا في تعاطي الحشيش وتنفيذ الأوامر.

يشتري الحشيش بفلوسه أو بفلوس الآخرين، يبيعه دون أن يؤذي أحدًا، وحين شعر بالأمان قال لناجح جملة واحدة: اطلب مني أي حاجة إلا أن أحبس أحدًا.

وكما أن الممالك الكبيرة كهذه تحتاج مجرمين عتاولة مغاوير، تحتاج أيضاَ لهؤلاء الذين يؤدون الأعمال النظيفة، مثل الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها وقضاء فترة قصيرة بالسجن.

بندقية آلية، لم يبق غير من يعترف بها.

هناك دومًا اتفاق غير مكتوب، اتفاق جنتلمان، أن يكون المحضر خفيفًا طالما أننا لم نضبط البندقية فعلًا، محضر به ثغرة خفيفة تساعد في تخفيف الحكم وإغلاق الجناية بعد أن سددنا الخانات.

يتقدم شحته ليتصدر المشهد، كل فترة قد تجد واحدًا يزجونه غصبًا أو بمقابل، لكن لم يوجد بعد هذا الذي يفعلها بمزاج إلا المعلم شحته، أحيانًا يأتي ليسأل، يحبس بشغف وافر، الحبس عنده ليس وظيفة، بل يجري في دمه، في كل خلية من خلاياه.

«الدنيا معمولة من أجل سيدنا محمد، والحبس معمول من أجل شحته».

وعليه يدفع الدكتور ناجح لشحته يوميته كأنه يعمل، يحتفظ له بالنقود لحين خروجه، يوكل له محاميًا، يستعين بشهداء الزور، ويرسل له في السجن كل ما يحتاجه حتى تنقضي المدة ويخرج بألف سلامة.

حبس عشرات المرات، يقول ببساطة: الحبس ليس شيئًا كبيرا. تعود عليه لكنه تعب.

أحيانًا تحس أنه مشتاق للحبس كأنه بيته، أحيانًا يحضر كأنه ذاهب لامرأة يعرفها جيدًا، لا يريدها ولا يرفضها.

في لحظة ضاقت به الدنيا، ولا امرأة تدلك له ظهره وتعبه، لا يقرب امرأة بالشهور لكنه ينتظر ولا أمل، الحبس يضيع عليه الفرص، ولا يريد أن يرتبط بنشالة أو هجامة من بني جلدته، على أمل أن يكنز مالًا يعود به ويتزوج.

جسمه خفيف وروحه أخف، لا يقدر على الأعمال الثقيلة، فكر أن يعود من حيث أتى، يصعد لجبل أو مغارة.

يبدو كأنه ابن ليل متخف، ملامحه النحيلة تبعث على الاستهزاء، لكن عينيه الميتتين تدلان على سر آخر أو وهم آخر.

عينه ليست ميتة من شدة الإجرام، بل من شدة الغلب.

هنا لا أحد يصدق بسهولة أنك غلبان وبدون خرابيش، إن لم تكن مجرمًا فأنت مرشد أو مخبر.

في جيبه مطواة قرن غزال، يسحبها بخفة ويفتحها ببراعة، حين لا تجده في السجن أو المقهى يكون هائمًا في إحدى الغرز، بعد أن عمروا الرؤوس همس له أحدهم:

تبيع كليتك؟

حين أخرج له المطواة راح الحديث في سكة أخرى:

إذًا فلتبع خصيتك.. فرصة عمرك، الجماعة ينقبون الأرض عمن يبيع، أنت تعرف أنهم لا ينجبون.

«كله إلا خصيتي، أنا أعيش في الدنيا بسلاحي، لا يمكن أن أتنازل عنه لأحد».

«مليون جنيه يا برنس».

سال لعابه، حار ودار، سأل من خلف الجميع، حين اطمأن إلى أنه يستطيع أن يعاشر وينجب بخصية واحدة، راح يفكر في بيع شقيقتها، أن يحصل على مليون جنيه مرة واحدة ويصبح معلمًا كبيرًا دون حبس، يودع الشقاء ويرتاح.

يخشى أن يفقد رجولته ولا تستطيع مئة مليون أن ترفع رايته بعدها.

حين يمشي يضع يده في سيالته، لا تعرف إن كان ممسكًا بخصيته أم بمطواته، في الغالب يتحسس مقاسه:

الأجانب يدفعون مائة وعشرين ألف دولار.

لكن لا شيء في الدنيا يساوي أن تتكرع امرأة تحت ساقيك، بعدها ستجلس تحت رجليك، بعد أن تكون قد حممتك وتولع لك نفسين من الحشيش.

أخرج يده من جيب جلبابه، لتكن حبسة أخيرة ويبيع، أقسم ألا يعود بعدها وأن يحمل البلاد على كتفه كما تحمله أرضها.

يجب أن يغير نشاطه، أن يخلق عالمًا على مقاسه.

حين مرض رفض الذهاب للمستشفى خشية أن يستأصلوها خلسة.

حبسة أخيرة.

أخذنا البندقية، جاء شحته خلفنا إلى القسم، قلنا له عد في الغد حتى نتم المحضر، وعندما جاء الغد تكرر الأمر، ثلاثة أيام يأتي ولا يحبس، يأتي ويعود، يدخل ويخرج كأنه واحد منا.

وعلى غير توقع جاءني تليفون من ناجح:

«شحته يأتي لسعادتك كل يوم وأنتم تعيدونه، إنه يسألني كل ساعة، جزمته ذاب قعرها، أصبحت من غير نعل وصار يمشي على الجورب».

ضحكت بصوت عالٍ.

«إنه يسألني: متى ستحبسونه يا سعادة الباشا»؟

٧

ادفع نص عمري والباقي أقسطه

وترجع لي عقلي اللي انت ملخبطه.

تمد يدك لترفع الصوت قليلًا، لن يصدق أحد أن هذا الشريط هو الهدية الوحيدة التي تلقيتها وقبلتها، وممن؟ من الفيلسوف ناجح، فيلسوف الجريمة الذي لا تعرف بالضبط كم مرة انتحل صفتك ليأتي لك بقضية، كنت تعرف وهو يقول بابتسامة صفراء: مضطر يا سعادة الباشا، فعلتها لأجلك.

المهم أنه وصل، لست في حاجة بالطبع لأن أذكرك أنه بدل ملابسه، وضع نظارة أنيقة على عينيه مثلك، ولم ينس أن يحمل علبتي مارلبورو في كفه الأيسر كما يفعل كل ضباط المباحث.

الجميع ينتحل، ولم لا، السلطة مغوية تعمي القلب، تلغيه، تسمح بالكذب بالتجريب وخرق كل شيء.

حتى قمر الراقصة فعلتها.

حتى باسل فعلها.

جالسًا في مكتبي، ألتقط أنفاسي بعد يوم مرهق، ربما تنتهي الليلة سريعًا، وأمر على أي مكان أتناول فيه عشاءً مثل بقية البشر، عند الرجل الذي يعلق لافتة مكتوب عليها: الكفتة بالمتر، أشك في

أن هذه الكفتة كفتة حمير بالأساس، لكن الكثرة تغلب كالعادة، لا مكان فارغًا عنده ولا حتى في الشارع الذي احتله، حين رن التليفون خطفته خطفًا: يا ستار.

كان الصوت على الطرف الآخر لرجل، قال: حضرتك لما تحب تدخل البيوت ادخلها من بابها.

بسرعة البرق دون ثانية تفكير: أنا أخش من الحتة التي تعجبني.

ورغم أنك لا ترد أبدًا بهذه الطريقة، إلا أنك دون أن تدري رحت تكتسب ألفاظًا وعبارات تفلت منك وحدها.

كما أنك أيضًا وسط ذئاب ألسنتها فالتة لا يعترفون بالضابط المؤدب على طول الخط، يستغلون أدبه، يتندرون عليه وربما يتعشون به.

كما أنك لا تعرف من يتحدث على الجانب الآخر:

«الحكاية أن..»

قاطعتُه: «تعال لمكتبي».

حين رأتني ابنته قالت: «لا، ليس هو، بل شخص آخر، باسل شخص آخر».

تتكرر الحكايات كل مرة بنكهة مختلفة، وأنت مستمتع وغير قلق رغم القلق الذي يصاحبها، أنت لا تنسى أنك فنان، قلقك في مكان آخر، تلعب على اللوحات وتلعب هنا أيضاَ، الفرق أن الأولى تخصك وحدك أما الثانية فتخص آخرين.

عاش باسل معنا في المباحث، واحد منا، طويل وسيم، في أول

شبابه، مثله مثل الحيارى والعاشقين شهداء الشرطة الموهومين بها، أفلتت منه الفرصة، ورغم أنه دخل كلية الحقوق إلا أن دمل البوليس ظل ينقح عليه، شغفه بالمباحث لم يتركه على حام ولا بارد، فشل في الدخول فأعطيناه فرصته، لم ينجح أن يكون ضابطًا فصار ضابط مباحث ولو بالقلم الرصاص.

اقترب منا، لا أتذكر كيف جاء، فجأة وجدناه بيننا، لا، لا، تذكرت، تعارك مع ضابط مباحث، قال له: «أنا كان ممكن أكون ضابط زيك».

يحضر قبل أن نحضر، يراجع القضايا المفتوحة، يضع الخطط بحماس، يغادر معنا بقوام ممشوق كأنه ضابط في فيلم أمريكي، مستحيل أن تتخيل هويته خارج البوليس، أصبح اسمه باسل باشا، ملامح اكتسبت حدة جعل من الصعب عليك أن تجتاز مسافة الهيبة بينك وبينه بسهولة.

لم يترك قضية إلا وسهر معنا عليها، سيارته تحت قدمه وتحت أمرنا، يحفظ كل عناوين المرشدين وأرقام هواتفهم وهواتف البقالين في أحيائهم، يحفظ كل صور المجرمين في دولاب المباحث، وحين يروق يحكي لك عن الجرائم العجيبة التي يشاهدها في الأفلام، أو التي يطالعها في الانترنت الذي كان يعرفه أكثر منا في بداية ظهوره.

يعمل في مكتب محاماة ملك والده، لذا يقضي كل وقته معنا، ويقضي وقتًا مستقطعًا في مكتب والده الذي تعب منه وإن جاراه غصبًا، حين يراه يقول في وجهه: أهلًا بالخبير الأجنبي، يعرف أنه معذور، كما أنه يفتح للمكتب سككًا هنا وهناك.

مفاتيحه مُعلَّقة في عروة بنطلونه، علبتا المارلبورو في يده اليسرى.

الصورة الكاملة ولا تذهب بعيدًا، ينظر للأمام عند مرورنا أمام النوبتجية، يحفظ أرقام المحاضر، أيام وقوعها وتفاصيل التفاصيل.

تعرَّفَ على البنت الساحرة الجالسة أمامي الآن مع والدها، انتحل اسمي وقدم نفسه كرئيس مباحث وسيم ـ أعترف أنني كنت وسيمًا ـ وعدها أن يتقدم لخطبتها، حين طلبها على الهاتف لبسه الدور وأفلتت منه الحكاية، قال بلهجة آمرة لأخيها:

«هات أختك، أنا رئيس المباحث».

ولأن الطريقة لم تعجب أخاها أقام الدنيا وأقعدها مما دفع الأب أن يطلبني:

«البيوت لها أبواب يا سعادة الباشا».

لا تعرف، تضحك أم تختفي، سمعتك في الدائرة كما الطبل، ضابط يأتي للناس بحقوقها، هادئ الأعصاب، لا يخطئ ولا يسب أحدًا، يتحاكون باسمك.

وأن ينتحل واحد اسمك فهذا متوقع، لكن أن يغازل باسمك فلا وألف لا، ولا تعرف كم من مؤخرة اعتلاها، والخوف كل الخوف أن يكون صنع سمعة سيئة في هذا المجال.

.. «يجب أن تحرر له محضر انتحال صفة»، قال زميلك.

«ومحضر غزل غير عفيف أيضًا»، قلتَ أنت.

في النهاية قلتُ لا، أكل معنا خبزًا وملحًا، أكل معنا كيفما اتفق، المصيبة أنه كان يجب أن يكون ضابطًا وأفلتت منه لسبب أو لآخر، لم تكن معه واسطة تحمله إلى حلمه.

كما أنه تعرض للخطر أكثر من مرة، بل كان يتقدمنا جميعًا ككبش فداء محتمل، وأن يكون مغرمًا بالبوليس وحل ألغاز الجريمة أفضل بكثير من أن يكون مغرمًا بصناعة الجريمة.

تحت الضغط والمنطق اضطررت لعمل محضر.

تتذكر الآن أنك سعيت لتخفيف الدوافع حتى يحصل على حكم مخفف، كنت تفعل ذلك من وراء قلبك، بجزء من العقل الذي تدخره لحماية اسمك وسط محيطك المتنمر الذي راح يلوك الحكاية كخطأ موجه لك، وكبطولة أيضا: سمعتك هي من أغرت الناس لينتحلوك، هذا طبيعي ويحسب لك.

أنت من يجب أن يمشي كالطاووس في الشوارع، لكنك لا تفعل، بينما آخرون يسرقون ريشك ليتزينوا به.

كان محرجًا حين قابلته، غطى وجهه ودموعه تسقط من بين أصابعه، أحس بإحراجي، بالموقف الذي وضع نفسه فيه ووضعني.

أخذ حكمًا مخففًا مع إيقاف التنفيذ.

المسألة ليست في الرحمة فقط، بل في المواءمة، في العيش والملح، في أن تقدر الدوافع طالما أنك لا تؤذي أحدا.

ثم إنك كنت دائمًا مع أشواق الناس، أنت تحديدًا المضروب بعنف وعمق بالمسجلين خطر حتى وإن أصابهم خبل في أحلامهم.

المصيبة أو الغريب أنك بعد عمر كنت ترى أنهم يفعلون ذلك بمتعة غريبة، صحيح أن أكثرهم مغروز في بئر الخطيئة، لكن بعضهم ينشل محفظتك بأصابع عاشق سعيد، لا يعنيه من أنت، تعنيه الغنيمة والطريقة.

حتى في العشق، بعض الصيادين مهما أعجبتهم الطريدة، ما يبقى في قلوبهم ويكاد ينط من صدورهم هي الطريقة التي صنعوا بها الفخ واصطادوا طيرهم.

تكاد تضحك، أنت أيضًا فعلتها مع قمر.

تلمح طيفها بعينيك، تعبر الطريق مارة من منتصف الميدان وسط السيارات من أمام مكتبة مدبولي، لم تعرفها من وجهها ولا من شعرها الذي لا بد قد بدلتهما الأيام والموضة وألعاب الزمن والنساء، عرفتها من مشيتها، تخطر كغانية في فيلم إيطالي قديم، عرفتها من حركة الكعب العالي رغم الزحام، والانحناءة الناعمة للخصر على المؤخرة، بين كل مئة امرأة ستجد واحدة فقط يرتاح خصرها على خلفيتها راحة غريبة، كأنهما نُحِتا معاُ، انحناءة ناعمة مرعبة قدمتها لها الطبيعة فاستثمرت فيها.

أدعك عيني بسرعة، ادعك عينيك بالله معي، ربما تكون واحدة أخرى، وأنت الذي تعيش بلا امرأة لا بد أن تحلم بسوق النساء.

دعك من خيالاتك وخلك في الزحام، حين تعطيك جانبها تتأكد تمامًا أنها هي، مؤخرة بجناحين، نادرة في العصر الحديث، خصر بقوسين من الجانبين، كمانان من الأبنوس، حين كنت تمسكها منهما وكأنك تدير الدفة تبتسم بشراسة وتقول لك:

جدتي كانت تجسنا عند البلوغ وتقول:

«مؤخرة السمكة.. ميراث العائلة».

نعم سمكة بزعانف من الجانبين، المرأة السمكة.

هل هذه الزعانف هي من أغوتك؟ لم تعرف امرأة في حياتك

لم تكن فيها لمحة فنية، أنف أخنس مثل أنف نادية لطفي بطاقتين مفتوحتين تقدحان شررًا، وتعرف أنك حين تطير معها في الفضاء ستلفحك النار، أو واحدة رقيقة تكاد من فرط هشاشتها أن تنفرط وتتفتت من بين أصابعك، أو أخرى لها شفاه الزنوج، شفاه بخيرها بشوكها، تلك الشفاه البطل في الملامح، شفاه نساء لوحات جوجان، لا تعرف إن كانت النار تخرج منها أم هي التي تخرج من النار في كل لحظة، وغلالة ساخنة تكسو الوجه والمكان، شفاه أقرب لشفاه الممثلة كاميليا بجملة رشدي أباظة: كانت كتلة من اللهب تنهار بين ذراعي وتذوب.

تبخرت منك في الزحام، تبخرت لكنها لم تتلاشَ من روحك.

لعوب بأناقة، كمفعول حقنة في الوريد، تتذكر حين هاتفتك، أنت ترد فقط حين تكون يدك فارغة من عمل، وحين تكون مشغولًا يرد شاويش السنترال ثم يحول لك.

تتذكر الآن أنها قالت إن هناك لصًا يكسر هَوَّايات السيارات ويسرق أجهزة الكاسيت منها، قلت لها: أنتظرك.

ولم تأت.

يومان، ثم مرة أخرى أعادت نفس الجملة، كدت تقول لها إنك لن تبحث بلاغها قبل حضورها لكنك تراجعت، أخذك صوتها، صوت مرقوع تأتي بحته في آخره، تظهر في الختام كأنها سلاح خفي، صوت لعوب مغو، صوتها الحقيقي دون ألعاب الأنوثة، دون أدنى تصنُّع أو ادِّعاء أنوثة، أضافت جملة قبل أن تنسحب بسرعة:

«الأجهزة المسروقة على سطح عمارة أسفلها محل بيع أنابيب الغاز».

صعدت بنفسك، أحضرت المسروقات، وقبضت على اللص.

انتظرتها، وجاءت.

بعد المكالمة الثالثة جاءت.

لا تعرف لماذا تحتاج هذه المسائل اللعوب لثلاث تكات؟

حين وضعت ساقًا على ساق عرفت أنها تريد أن تكسر الكلفة بينكما، لا أحد يضع ساقًا فوق أخرى في حضرة رئيس المباحث، رحت تسأل نفسك سؤالًا واحدًا: كيف لهذه القدم الصغيرة أن تحمل كل هذه الغنيمة.

ابتسمتْ ابتسامة العارف، كانت تعزف جيدًا.

الآن تتذكر لوحتها التي رسمتها لها، خف في الهواء يحمل غيمة كبيرة، تمطر عسلًا يشعل حرائق في نباتات القلب.

.. اسمع، أنا راقصة أعيش في دار السلام مع أمي، لا أستطيع أن أخبر أحدًا عن عملي وإلا قطّعوا لحمي نتفًا، واحتفظ كل واحد منهم بقطعة، هم أولى بلحم بنت حتتهم.

لا يهمني أحدٌ لكنني أحسب العواقب، أدخل بالعباءة وأخرج بها.

عندما ظهرتُ في أحد الإعلانات تركتُ المنطقة لكنني أعود لأمي التي تحب بيتها وناسها،

وتقول: بنتي ترقص في حالها بعيدًا عن هنا.

كسر هذا اللص زجاج سيارتي، كان يريد أن يكسر قلبي، أقسم أن يسرق ألف جهاز كاسيت مهرًا لي، لم يخبرني أحد، حذرتني أمي من انتقام بقية اللصوص، كلهم يدارون على بعضهم بعضا، لم أستطع أن أجيء إليك، لذا كلمتك في التليفون وأنا مترددة.

والآن؟

.. طار في الهوا شاشي وأنت ما تدراشي.

السنارة غمزت.

مررتُ معها على النوبتجية لإثبات المحضر، لأقطع الطريق على من يفكر أن يأخذ عنوانها ليلعب، في هذه اللحظة ظهر الشاويش عبد العزيز عامل سنترال القسم، تجاوز الستين بخمس، يجددون له كل عام بعد أن تخطى سن المعاش، مخزن أسرار القسم كله، يتنصت على المكالمات، ورغم أن سبعة مآمير حذروه من قبل إلا أنه لم يستطع أن يكبح غواية التصنت، وإن اكتفى في السنوات الأخيرة بالتصنت فقط عندما يكون المتصل امرأة.

ورغم أنه رجل كبير إلا أنك أمسكته ذات مرة بعنف من أذنه وقلت له: لو فعلتها ثانية سأقطع خرطومك، ومن يومها يغالب طبعه حين تكون المكالمة لك، وإن لم يخل الأمر من حركات مفقوسة حين يدخل عليك في المكالمة ليقول لك: الباشا المأمور سأل على سعادتك أمس.. ولا يقفل الخط سريعًا.

حين رآك مع قمر تراجع للخلف ودخل غرفته، لكن ذلك لم يمنعه أن يتلو مزاميره، يقول بصوت خفيض:

«بكرا تفرج، وفرجها يبان»

ليست مترددة ولا أنت.

طرت وراءها، لم تفعلها بهذا الاندفاع من قبل، كانت قد أجرت شقة في شارع الهرم، ورحت تزور الهرم، تعرف أسرار خوفو وحدك، تدخل إلى خبيئته دون أن تخشى أن تحني ظهرك، تدخل

إلى عمق الهرم حيث لا يدخل أحد، تفتش عن الأسرار، تفتش في ملابسات القضية،

عرق الراقصات له رائحة أخرى وطعم آخر، وسيرتهن غير سيرة، وأصواتهن أصوات بخلاخيل، بصاجات، زفة كاملة.

أحيانًا تتساءل عن السر في غرام الضباط وأصحاب السلطة، أية سلطة، بالراقصات وبائعات الحب، ولا تجد جوابًا، تبحث عن السر في الأمر والخيط الذي يسحب الرقاب إليهن.

قال واحد: تتفرج عليها الدنيا كلها، يحلمون بها، وهي تحلم بك وحدك.

قال آخر: أنت تأخذ كل العيون التي نهشتها، تغمضها، وتفتح عينيك وحدك.

قال الأخير: تغني للجميع بالصمت وتصيح عندك وحدك.

تتعرى أمام الناس وتتغطى بحضنك.

ثم أنك لم تنس أبدًا أن من غيرت مسار حياتك كانت راقصة.

صاحب العمارة التي تسكنها عينه منها، ملهوف عليها، حاول معها مرة قبل أن تظهر أنت، وحين ردته بقسوة تراجع، لكن حين ظهرت استغل اللعبة، لاعبها وناغشها على المكشوف، ضيَّق عليها الخناق، تعاركت معه:

قلت له اسمك، قلت إنك خطيبي.. وإنك هتطلع دين أمه.

هددته دون أن تخبرني.

وجدت في انتظاري شكوى: يتردد على امرأة سيئة السمعة لا تليق بالوظيفة، في بيتها، يقيم معها علاقة ويعيش معها.

الضابط المحترم هو الذي لا يفتح يده ولا سوستة بنطلونه.

وأمها تقول: «بنتي رقاصة في حالها».

وشريط ناجح ينساب:

يا مضيع لي حقي

يا ملخبط لي عقلي

عمري ما سبت قلبي

لعبة أنا بين ايديك.

أنت متهم بإقامة علاقة مع راقصة..

هنا كان لا بد لباسل أن يظهر مرة أخرى.

أخرجتُ المحضر الذي شكوت فيه الأستاذ باسل، المحضر الذي كنت أرفض أن أشكوه فيه من أجل العيش والملح والطلقات التي أطلقت علينا.

.. هناك دائمًا من ينتحلون اسمي وصفتي، ويفعلون بها الأفاعيل.

قدمتُ واقعة باسل دليلًا على براءتي.

ونجوت.

خد عليّ شيك، خد علي وصل

أنا ممكن أشتكيك لو قليل الأصل.

نجوت في اللحظة التي رن فيها هاتف من الخارج وسط الزحام:

أنا باسل يا سعادة الباشا، أعيش في الإمارات، دخت على تليفونك، إذا كنت تحتاج أي شيء أنا تحت أمرك، سأنزل من باب الطائرة، وأكون عندك في ساعتها.

«غدًا تفرج، وفرجها يبان».

لا، لا، قمر كانت مغنية، كذبت عليك، أنا أهذي معظم الوقت، ذاكرتي خربت، السلوك دخلت في بعضها، حين واجهتها قالت إنها كانت تحتاج حبيبًا، يحبها بصدق حتى لو كانت راقصة، كأنها لا تعرف أن الناس لا يهربون من الراقصات إلا ساعة الزواج فقط.

الهروب من راقصة ترف غير محتمل.

وأيًا ما كان الأمر فهي كانت راقصة تغني الآهات في حضنك، عندما تكون في إجازتها تشعر أنها لك وحدك، تتأوه بدل السهارى، لليل كله، كأن الله حين خلق الظلام خلق معه تأوهات النساء.

ربما كانت تحسب أنها علاقة عابرة.

«خفت منك في البداية».

خافت مني فادعت أنها راقصة، ماذا لو لم تخف؟ هل كانت ستدعي أنها الأم تريزا.

حمارة.

دموعها تسح لكن دون بكاء:

كنت راقصة درجة ثانية، ولما سمعوا صوتي وأعجبهم غيرت النشاط رغم أن السوق كانت عطشانة للخلاخيل، المشكلة إن الذين قاوموا اعتزالي لم يؤمنوا يومًا بموهبتي في الرقص، فقط آمنوا بلحمي.

هات لي بدلة ضابط وأرقص لك وحدك.

لا ينسى الناس عملك الأول أو وظيفتك الأولى خاصة إذا كانت وظيفة حراقة.

أنت أيضًا مهما أقمت من معارض، وأعجب من أعجب بلوحاتك سوف تسمع دائمًا جملة يتيمة:

نعم، شغله جميل، هذا الذي كان ضابطًا.

٨

«الدهب لو يجرى إيه، برضه باينه اللمعة فيه»

لم أزل بعد في الطريق، أفكر أن أرتاح قليلًا وليجر ما يجري، مازال هناك وقت، الذهاب للعزاء من وسط البلد يكاد يكون جحيمًا حقيقيًا، عملت حساب الوقت والطريق لكنني لم أتوقع هذا، كانت فكرة صائبة أن تحركت في ميعاد مبكر جدًا، سائق الميكروباص بجلباب بلدي يضيق عليك الطريق، يرمي بسيارته حتى تظن أنه سوف يصعد سقف سيارتك بسيارته، لو جاء في بال الياباني الذي اخترع هذه السيارات أنها سوف تُستخدم بهذه الطريقة ما صنعها من الأساس وربما انتحر.

أكاد أصيح في وجه السائق: حاسب يا بني آدم، ألمح نظرة شماتة وربما استهزاء في عين أقرب راكب، أتراجع بحسرة، هذه النظرة أعرفها جيدًا، من يركب الميكروباص كما لو كان حاقدًا على من لديه سيارة خاصة.

في إحدى المرات التي ركبته فيها كنت أشعر أن هناك لمعة انتصار وتشفٍ في عيون الركاب حين يتخطى الميكروباص كل السيارات الخاصة بجانبهم، كأن هناك معركة دائمة لا تنتهي، ولا تعرف بالضبط من الذي أشعل هذا الفتيل، ربما أشعلها الذين يأكلون ولا يتركون الفتات حتى لغيرهم.

مرة قال ضابط يفتي في كل شيء: إنهم ينقلون نصف ركاب القاهرة ومن حق السائقين أن يشعروا بالزهو، عرفت فيما بعد أن هذا الضابط لديه سيارتان تعملان على أحد الخطوط، تناوب على قيادتها أحيانًا أمناء شرطة يعملون لزيادة دخلهم، لا تدفع مخالفات ولا يوقفها أحد مهما ارتكبت من أخطاء، قال آخر: إنها لعبة القوة، من يملكها ينتصر ويدوس القانون، من الأصغر حتى الراس الكبيرة، قانون واحد.

الآن تمر برأسي صورة الضابط أمين، لا أتذكر بقية اسمه، أكاد ألمحه، أتخيل أني ألمحه، كان ضابطًا في الأمن المركزي، لم يكن راضيًا بدوره، لا يمر يوم دون أن يدخل علينا ببشر تعاركوا مع بعضهم البعض، أو اختلف أحدهم مع سمكري سيارات أو ميكانيكي على الأجرة، وفي اليوم الذي تعز فيه الخناقات، يقبض على مشتبه بهم على مزاجه، يأتي بهم للتحري عنهم.

كنا نشكره ونفحص، وأحيانًا لا نفحص، لا ينقصنا وجع دماغ، كان تقديرنا أنه باحث عن دور، دوره الذي يقوم به لا يكفيه، يضحك ضابط ويقول: إنه يتمرن على المباحث من الآن، لا بد أن أقاربه يضغطون عليه، لا يرضيهم دوره، لا يقبض على أحد ولا تظهر سلطته، الناس لا يحترمون إلا القوي، وربما تأثر بذلك فأيقظوا خصيتيه.

المصيبة أنه كان يأتي في يوم تالٍ ليسأل عن مصير من أحضرهم.

قلنا إنه مجنون، وضحكت أنا، قلنا إن عسكريته منفوخة بعض الشيء، قلنا وقلنا حتى جاء يوم استفرد به بعض المسجلين الذين يعرفون جيدًا أنه لا له في الثور ولا الطحين، أعطوه علقة متينة لم

يستطع فيها أن يستخدم سلاحه وهربوا، خطفوه منه ثم رموه له حين أحسوا أنهم نجوا.

أحضرناهم له، شبع فيهم ضربًا لكنه لم يعد بعد ذلك.

آه يا زمن الانصاص، فيه إيه حصل للناس،

تعمل حاوي تحضّر وتخاوي، عشان تتعلم م الناس،

والدهب لو يجري ايه، تبقى برضه اللمعة فيه.

حين يأتي ذكر الذهب أفكر في البنت التي أحببتها، اشتريت خاتمًا لكنني لم أقدمه لها، تمنيت لو أهديته لها رغم رحيلها.

حين تأتي سيرة الذهب أتذكر عبقرينو، ولد من ذهب، عاش تحت إبطي، لم أبخل عليه بمعلومة ولم يبخل عليَ بعقله ولا روحه، كل يوم كان يزداد لمعانًا وبريقًا عن اليوم الذي قبله.

صحيح أنني لم أكن ضالته، كان يبحث عن نفسه أولًا وأخيرًا، عن حلمه أن يكون ضابطًا، حققته له وقبلته عندي دون كشف هيئة دون وساطات، يضع صورة لي في محفظته وأخرى في قلبه، رد لي الجميل مائة مرة، عندما كنت أعيره ليعمل مع ضباط آخرين لم يك يتحرك خطوة دون أن يستشيرني.

رجلان وامرأتان احتالا على اثنين من وافدي سياحة الجنس، ذهبوا معًا لشقة لإتمام المهمة والنتيجة معروفة، تم تخديرهما وسلب ما معهما، لم يتركوا لهما شيئًا إلا السراويل الداخلية.

كأنني أرى الآن لمعة عينيه.

لم تكن القضية عندي، كانت مع ضباط آخرين تأخروا في بحثها، كل يوم قضية من هذا النوع، والجدول مزدحم بما هو أهم،

الضباط يقضون نصف يومهم في الشوارع، وتراجع الأمن العادي لحساب السياسي.

اتخذ قراره، أن ينزل وحده، بساقين غير مترددتين، قبض على المرأتين، وتبقي الرجلان. متهمان معهما الأشياء المسروقة لكنهما عبر المديرية إلى مديرية أخرى، استطاع بحركة بسيطة بتتبع هواتفهما أن يحدد موقعهما، قضية جاهزة وسهلة تحتاج فقط للسرعة والمروءة.

لحقه ضابط برتبة صغيرة، حين أخبرني كنت أعرف أن الضابط لن يعبر معه، الضابط يتّبع القواعد، تلك مديرية أخرى لها ضباط آخرون، وسيأخذون القضية لأنفسهم خاصة إن مكان الفاعل معروفًا.

سلاح ذو حدين للضابط، يلعب في ملعب غير ملعبه ولهذا تراجع، ضابط مؤخرته خفيفة، لا يستطيع أن يتجاوز التعليمات، النظام يكبله، ومن فوقه يركب عليه، كله راكب فوق بعضه، ولا يستطيع أن يأخذ قرارًا دون كبيره، الشغلانة التي تُعلم الإقدام تُعلم الجبن أحيانا.

هذا كلام لا يقنع عبقرينو ولا يرضي شهوته، لا تعنيه القواعد ولا تُلزمه، هو ملتزم فقط بضالته أينما حلت وربما يضرب نفسه بالنار لو وافق على قرار الضابط وعاد.

الضابط الدكر عزيز، موجود، لكنه يحتاج أن يكون مغامرًا ليخلق فرصته، مقامرًا يستعين بالحظ، وإذا كان المجرم يقول وهو يسرق: استرها يا رب فلم لا يقول الضابط: استرها يا ستار.

الوقت سلاح ضابط المباحث وإلا طار الصيد من العش وهرب الخنزير من الوكر.

.. «أنا لو مكانك سأعبر الحدود وأقبض عليهما مهما كانت النتائج، وإلا طارت القضية برمتها».

أخذ قراره، مضى وحده بسيارته وسلاحه، نعم سلاحه، لا تسألني عزيزي القارئ كيف!

فقط تخيل معي لمعة بياض عينيه، لمعة غزيرة تضيء حين كنا نعثر على أول خيط، تعرف ساعتها أنه دخل دائرة الإثارة وأنه ليس ذاهبًا للقبض على متهم أو حل لغز قضية، بل ذاهب بشراهة لمعانقة امرأة يشتهيها بقوة، ذاهب إلى حبيبة يعشقها وتعشقه بعد أن تاهت منه لسنوات وعرف مكانها في الليلة ذاتها.

أتخيل الآن، الجزء اللاسع في دماغي هو ذاته الملسوع في دماغ عبقرينو، كنت أربطه بالواقعة كأنها ملكه، أضيء له الكشافات فيصبح هو من يرى، أشحن له بطارياته، أعطيه دورًا، دور الفتى الأول في الفيلم، نعم، كنا نتعامل مع أية قضية كأنها فيلم سينمائي، أنا أعرف الموضوع الأساسي للفيلم، لكن هو صاحب التفاصيل الصغيرة، لا يترك تفصيلة، هو المونتير الذي يختصر اللقطات الزائدة ويركب الباقي معًا، يلضم المشاهد ينقل واحدة مكان أخرى ليشد الإيقاع، ينفضها واصلًا إلى هدفه بإيقاع سريع وتناغم غريبين، وحين نخرج معًا كنت أرى واحدًا آخر، أرى إحساسه بذاته يفيض على الأرض.

أنا من أعرف الكبيرة، لكنه يعرف الحواري، مرة بعد مرة يلقط ويستفيد، لم يكن يرى عيبًا أن أوجّهَه حتى بعد أن صار خبيرا، لم أبخل عليه بسر، لست من أولئك الضباط الذين يعتقدون أن كل معلومة سر حربي من أسرار الدولة، وفي اللحظة الموعودة أمرر التمريرة الأخيرة لتبدأ الإثارة.

كنت أضع الجميع معي، الكل يفكر تحت قدميه، عبقرينو وحده كان يفكر خارج الصندوق.

عبر إلى مديرية أخرى، تأكد من المكان سلفًا عبر هاتفه واتصالاته، قبض على الولدين، لم يكن يقول الرجلين، وضعهما في قيد حديدي واحد، وقام بتقييد الأيدي الأخرى في شماعة الملابس داخل السيارة حتى كادت أذرعتهم أن تنخلع، وعاد بهما وحده.

ما لا أستطيع أن أنساه أنه في اللحظة التي يفك فيها اللغز ينظر إلى بنطلونه، فكما بدأت الحكاية بالإثارة فلا بد أن تنتهي بالأورجازم.

يعود لبيته، يغير ملابسه وإلى أقرب بار يشرب فيه كأس التحقق، يهاتفني بعد الكأس الرابعة، يقول جملة واحدة:

«يا باشا، أنت مجلس الأمن كله».

هل أشعر بالفخر الآن لأني صنعته، لا أعرف. نسجته ونسجت ناجح على كفي، لدي جناحان أطير بهما، لم يخدمني الحظ في وظيفة أحبها أو ممارسة الفن طول حياتي، لكنه وقف بجانبي فيما لم أختره.

احنا الحظ وناسه، والعلم وكراسه،

والأدب الموجود بالدنيا احنا في الأصل أساسه.

أمر في هذا الشارع الفاتن بوسط البلد، حجر ينطق بالفن في كل بناية، ربما لا مثيل له في أية مدينة، لكنه يبدو قديمًا وقبيحًا جدًا.

كل حاجة في هذه البلد قديمة، موتور عتيق، الماكينة والتروس أيضًا قديمة، كل ما يفعلونه تغيير الزيوت فقط، لكن عبقرينو كان

الترس الجديد، حين ظهر صنع انقلابًا في اللعبة كلها، لعب دور الفتى الأول، وأنا اخترت لنفسي دور المخرج في هذا الفيلم الجديد.

يشرح المخرج للممثل دوره، أحيانًا يقوم بتمثيل المشهد أمامه، لكن الممثل المبدع يقوم بإعادتها بروحه هو، يقبض على الشخصية من قلبه أو من عقله كما كان يفعل أحمد زكي، ولا يقلد المخرج.

الضباط قد يقلدون رئيسهم بالحرف، يخافون الوقوع في الأخطاء، ينفذون التعليمات بحذافيرها، عبقرينو يتجاوز ذلك، لا تعنيه التعليمات ولن يقلد أحدًا ولا يستطيع أحد تقليده، نبت وحده ليس له كتالوج، يعرف أن اللعبة أساسًا بلا قوانين ولا موديل، وأهلًا بالفن كله.

نعم هو فيلم جديد، نحن مثل الممثلين بالضبط، يلعب الممثل دوره على مدى شهرين أو ثلاثة وربما عامًا، وفي النهاية فإن الفيلم يكون ساعتين تقريبًا، نحن مثله نلعب شهراً أو عامًا لنحل لغز قضية، وفي الآخر نحكيها في ساعتين، لكن الذي يمسح التعب هو لذة الوصول إلى نهاية الفيلم، إلى نهاية القضية، اللحظة التي نسمع فيها تصفيق المتفرجين والضحايا.

أعرف أنني لم أكن ضابطًا عاديًا وأنني كنت أنتظر نظرة الارتياح في عين ضحية، لم أكن أبحث عن مقابل سواها، هذا يليق بي تمامًا وعلى مقاسي، وإن لم يكن على مقاس ضابط سواي، حتى ولو لم يأخذني الضباط على محمل الجد: حظه في رجليه، معه مساعدون من الخارج، يضحك ويغني ويرسم!

هنالك لحظة أعرفها جيدًا، ربما أكثر من كل الضباط المحترفين،

حين أرسم لوحة كبيرة في ليلة ثم تستغرق تفصيلة وحيدة مني– نعم تفصيلة واحدة– شهورًا، ربما قلت لك أيها القارئ إن صلاح جاهين كان يستغرق ليلة بكاملها في رسم أنف سعاد حسني، أعرف هذه اللحظة التي أجد فيها حلًا لتلك اللمسة البسيطة والتي تعني أنني أنهيت لوحتي، حينها أتنفس بصوت عالٍ كأنني في آخر خطوة من الماراثون، أحيانًا أدور في الغرفة وأرقص، ودون أن أشعر وكمن مسه ذيل جني أرمي بالفرشاة عاليًا إلى سقف الغرفة- أفعلها دون ترتيب في كل مرة كأنها المرة الأولى، يمكنك أن تتأكد من ذلك بنفسك لو زرت غرفتي، ستجد أن السقف قد تم نقشه وحده، حتى أنني حين أعدت دهان الشقة لم أسمح لعامل أن يقترب من السقف رغم إلحاح عامل سمعته بأذني يقول لزميله: يظهر عليه رجل مجنون فعلًا.

أعرف ذلك حين أرى عبقرينو يغادر القسم ببنطلون مبقع، حين نصل إلى نهاية قضية نقيم فرحًا، نخطر إلى مكاننا المفضل، إلى محروس صاحب عربة الفول في شارع جانبي من شوارع ملتوية، قدرة فول طاب فولها وذاب في بعضه، لكأنه كمرها في النار منذ غياب الملك فاروق الأول الذي لم يأت له ثانٍ، لكن الشعرة الأساسية هي في الباذنجان المخلل الذي لن تجد له مثيلًا في العالم، يحكي محروس أنه يضعه داخل فخارة وهو مازال نيئًا دون أن يسلقه، يرميه داخل المش ويغلقه لعام، لتأكله بقايا المش القديم، يطيب داخل مشيمة المش، يشرب منها وتغذيه، حتى إذا استوى خرج للعالم، لو ذقت قضمة واحدة منه لأكلتك لثتك بعنف، تأكل

بعضها فلا تجد منه فكاكا قبل أن تنهي طبقين من الفول وربما ثلاثة، تشعر بالإثارة من طعمه وتصل للأورجازم بعد الطبق الثاني.

نعم، نعم، عبقرينو هو هذا الباذنجان المخلل بطريقة خاصة وفريدة.

نعم، لا بد أن يأتي معي للعزاء، أنا لا أتوقع بالضبط رد فعل لناجح رغم فقده لابنه الذي مات في مشاجرة، طعنه من طعنه وسط جمهرة، وربما ينتظرني الآن أنا وعبقرينو لنفك لغز القضية، مع أنه يعرف أن الذي يموت في المشاجرة يموت فطيسًا، ربما هذا سبب مضاعف لحزنه وهو الذي فك معي مئات الألغاز لا يجد من يفك له لغز ابنه.

لا بد أن يذهب عبقرينو معي، لكن هاتفه لا يرد، لعله نائم أو غارق في حل ألغاز مجلة ميكي.

أكاد أضحك، أتذكر أنه أقسم أن يترك غوايته في اليوم الذي أترك فيه المباحث ولعله فعل.

الأمر بالنسبة له ليس وظيفة، إنها غواية ولا أحد يعرف متى تتوقف الغواية، ربما امرأة ما في مكان ما تعرف، كتلك الفتاة التي أحببتها وتوقفت غوايتها فجأة لسبب لا أعرفه أو لا أريد أن أعرفه.

انتظرني قليلًا، إذا كنت تريد أن تعرف ما يفعله عبقرينو بالتحديد، وكيف يفكر أن يطبخ الموضوع خارج الحلة التقليدية، ويعرف متى يستخدم حلة البريستو، حلة الضغط فانظر ما فعله مع سيد كبابه.

كبابه هذا نشال عالمي، هو الذي ابتدعوا من أجله المثل: الذي يسرق الكحل من العين، يده أخف من خمشة قطة عاشقة، كما

أنه طيب القلب، يرسل لضحاياه الأوراق الشخصية والمحافظ والبطاقات والرخص عبر البريد، يستخدم في ذلك بطاقة مزورة ويحتفظ فقط بالمحافظ الأنيقة، مشهور لكنه لا يسقط متلبسًا، وقع حين قاده حظه التعس لنشل محفظة ابنة مدير الأمن.

وعليه، وقعنا عليه، يُعلّق المحافظ التي ورثها غيلة على حائط، يضع مجده أمام عينيه كأنها نياشينه التي حصل عليها جراء خدماته الجليلة.

حين نزلنا عليه كالقضاء المستعجل لم يستطع الهرب رغم أن نافذة مفتوحة كانت بجواره، بهدوء شديد خلع كل سراويله وبانت عورته كي ندير وجوهنا- أنا أدرت وجهي- ليستطيع القفز دون أن يلحقه أحد.

قبل أن نطبق عليه أخرج من تحت شفته موس حلاقة، نصف شفرة وراح يقطّع خصيتيه بالطول كأنه يلعب في قطعة من الزبد، بملامح مستكينة لم تتغير كأنه يقلي بيضتين:

«والله لتروحوا في داهية يا ظَلَمَه، سأتهمكم بالتعذيب».

أمسكه المخبرون، كان الدم يسيل وهو جامد بابتسامه ساخرة، هنا تقدم عبقرينو بنفسه للمطبخ، صنع كوبًا من الشاي وأتى به في الوقت الذي كنا نستجوبه لنعرف أين محفظة ابنة المدير.

تقدم عبقرينو، رمى الشاي الساخن على خصيتيه، ثم حشاها بثفل الشاي، أدخله بنفسه:

سيطيب حالًا يا سعادة الباشا المعاون.

لم يكن يصرخ، كان يعوي بصوت مشروخ يكاد يعلو على الأذان.

ظن أن عبقرينو هو رئيس المباحث، دلنا على مكان المحفظة، ثم التفت ناحيته وقال:

والله كنت سأرسلها لك يا سعادة الباشا.

......

لا، لا، ليست هذه هي الواقعة، يبدو أنني خرفت واختلطت على الوقائع والأسماء، دخلت خيوط دماغي في بعضها وربما ساحت.

سيد كبابه هذا لم يكن مجرمًا خفيفًا، ولا مسجل خطر عاديًا، لم تكن قوته أنه يبيع المخدرات، بل كانت في أنه يبيعها من نافذة بيته والأمر معروف للجميع، وإن كان يداري ويتحسب، حين طب عليه معاون المباحث أمسك بأنبوبة الغاز، وضعها أمامه وبهدوء أخرج الولاعة، عاد الضابط مخذولًا مطأطأ الرأس أمام مخبريه، قدّر أنه أمام واحد مختل، واحد فاجر، قدّر أن انفجار الأنبوبة سيطيح به مع معاونيه فآثر السلامة، عاد على عقبيه وألم الفضيحة على وجهه.

بعدها لم يعد كبابه يبيع خفية، راح يبيع في الشارع، على عينك يا تاجر، وعلى عينك يا حكومة.

من لا تكسره عين الحكومة يكسر عينها، ومن لا تتبول عليه الحكومة يتغوط عليها.

فردَ طاولة في الحارة، راح يقطع الحشيش ويبيع كأنه يبيع حلاوة طحينية أو يعطي أقراصًا لإزالة المغص، غطته لمعة التحدي والفخر، راح وجهه يلمع، مدهونًا بزيت الانتصار، وبرم شاربه لأعلى.

فردَ طاولة واضطجع خلفها، كان لا بد أن نواجهه لا أن نقبض عليه، لم يرتفع شارب كبابه فقط بل التوى لأعلى والتوت معه كل

شوارب الحارة، حتى أن الحارة نفسها صارت ملتوية، النجاح بالفساد معدٍ أكثر من النجاح بالاستقامة.

المواجهة ضرورية حتى تعود أرض الحارة مستوية على حالها الطبيعي.

بخطفة واحدة وجدنا أمامه، عزلنا الحارة عنه وتركنا لهم ثقوبًا يتفرجون عليه منها، بسرعة البرق خلع بنطلونه ولوح بالحزام في الهواء، وفي مشهد لم يخطر ببالي نزع لباسه الصغير الذي يغطي عورته، ورغم ذلك فاجأناه حتى لا يركبنا:

اخلع كل حاجة، أنت كلك عورة.

.. تعال اركبني يا سعادة الباشا.

سحب نصف شفرة حلاقة من خلف أسنانه، اعتقدنا للحظة أنه سوف يقطع شرايينه، لكن ابن الهرمة أمسك بخصيتيه وفي لمح البصر شق كيسه حتى فتحة الشرج، بسهولة متناهية، سكين في زبد.

أعترف أنني وجلت للحظة، وتخيلت عندما أفقت كيف ستقطع اليد الخصية في اللوحة، وأين سيذهب الدم المتدفق الذي يسيل من كل جوانبها.

كنا نتقدم نحوه جماعة، دائرة، ممسكين بأيدي بعضنا البعض، ومسدساتنا يقظة، ألقى الموسي، ربطناه في كرسيه لنحمله وسط الحارة كما هو، وإلى سيارة الشرطة.

ساعتها غمزني عبقرينو من الخلف، نادى بصوت قاطع على بائعة الشاي، العجوز، أحضرتْ كوبًا من الشاي الساخن، رماه على خصيتيه ووضع الثفل داخل كيسه.

كان يصرخ، صراخًا أشبه بالعواء، ولم أعرف ساعتها هل كان الشاي حلوًا أم مرًا.

لا تعرف من أين تعلم عبقرينو هذا، كل ما أعرفه أنه أفضل عندي خبرة وذكاءً من أي ضابط.

شربنا الشاي في القسم، وضع عبقرينو الثقل لكبابه مرة أخرى ليساعده على الاعتراف.

أعلن بعدها اعتزاله اللعب في فريق المخدرات وربما ذهب لنشاط آخر لا أعرفه.

سمعت أنهم أحضروه بعد اعتزاله ليحكي أمام الضباط تاريخه، ليستفيدوا من خبرته، تجربة عملية تعلمهم ما يجب أن يتفادوه أو يفعلوه.

قال بثقة خبير دولي: إن السجن هو مفرخة الجرائم، يحشرون النشال مع بائع المخدرات جنب بائعي البودرة والقتلة، ينقلون خبرات بعضهم لبعض، ليعودوا من جديد بجرائم جديدة وربما بأسماء جديدة.

كان يحكي على المنصة كيف تاب عن المخدرات، المزاج، أبو صليبه وأبو مفتاح وحضّر كفنك، كيف تاب عن مذاق الثقل في قلب الخصيتين.

في نهاية المشهد صرّح:

أنا تبت توبة نصوحًا، والتائب من الذنب حبيب الرحمن.

قالها كشيخ معمم على منبر ثم أضاف:

حبيب الرحمن وحبيب المباحث.

٩

لا بد أن تتناول معنا العشاء يا سعادة السفير، وفي اليوم الذي تختاره.

.. يسعدني، أين ومتى؟

في القسم طبعًا، بعد منتصف الليل.

إجابة صادمة، توقع أن تدعوه للعشاء في مطعم، أو على الأقل في نادي الشرطة المشهور بأناقة مطعمه وحلاوة أكله، بدت ملامحه غير مصدقة كأنها دعوة غير حقيقية.

تتذكر أنه تأخر في الإجابة، بدا حائرًا خجلًا، الموضوع كأنه مزحة، تهريج من النوع الرخيص، لكنه رد بلباقة تشبه ملامحه وأناقته، ووافق.

لا تتذكر الآن سبب معرفتك بهذا السفير الأنيق، بل تتذكر، حين سرقت شقته وهو في المصيف مع عائلته، اكتشف البواب الواقعة وأبلغك بها، شاهد السارق لكنه لم يشك فيه، أخبرك أن هناك واحدًا كان يتردد على العمارة، وادعى أنه يزور شخصًا فيها، لكنه لم يأخذ خوانة، وأن الصدفة وحدها كشفت أنه لم يكن يزور ذلك الشخص، اختار اسمًا حقيقيًا من لوحة السكان في مدخلها، وسرق شقة السفير الغائب على مهل.

رحت مرة بعد أخرى تستجلب ملامح السارق من أقواله، وكعادتك رسمته، جاءت الصورة مطابقة تقريبًا وتم القبض عليه.

حين عاد السفير من مصيفه وجد المسروقات في انتظاره واللص في المباحث، مر عليك ليشكرك وطلب أن يشرب معك شايًا حينها داعبته وأنت تشير إلى ربطة العنق التي يلبسها:

ربطة العنق هذه من تصميم فنان تشكيلي.

.. وكيف عرفت؟

يبدو للناظر لأول وهلة أنها ليست من تصميم شركة أو مصنع.

.. لماذا؟

في بعض البلاد تطلب شركات من فنانين تشكيليين أن يصمموا لها ربطات العنق ثم تقوم بتنفيذها، اللمسة الحائرة داخل ربطة العنق يا سعادة السفير وراءها انسان حساس لا ماكينة، لذا هناك رسامون يعملون مع شركات تصميم الأزياء.

.. وهل سنتناول العشاء في القسم فعلًا؟

نعم.. وأنت تشير بإصبعك: وعلى هذه الطاولة.

تتذكر جيدًا أن السفير تأهب عند انصرافه ليرمي شيئًا داخل درج مكتبك، وأنك أمسكت يده بعنف ونظرت إليه بعتاب واضح، تلومه بصمت وتقول بصوت خفيض قاطع:

نحن نصرف على الحكومة يا سعادة السفير.

وأنه لملم خجله وحين لبى الدعوة قدم لك كيسًا به ربطة العنق التي أعجبتك.

.. هل العشاء في القسم فعلًا؟

تتذكر أنه بعد أن يهدأ ليل القسم من صخب المحاضر المتبقية من نوبتجية المساء، كنت تجمع الضباط للعشاء معًا، ثم يعود كل واحد إلى عمله.

العشاء في معظم الأيام من عند رحمي البقال المعروف بأسعاره الرحيمة على أفراد القسم، يتقاضى نصف قيمة المطلوب وأحيانًا أقل، كان يصر على أن يرسل العشاء مجانًا للقسم كله مرة في الأسبوع لكنني أرفض، يفعل ذلك لأنك أنقذته مرة من يد رئيس دورية غشيم التقطه وهو عائد لبيته ليحرر له محضر تحرٍ، لم يكن هذا الضابط يشاركنا الطعام، مغرم بالأكل الثقيل، مدافع منتصف الليل، مفجوع بالممبار والأكل السمين من الناصرية وكبدة الدرب الأحمر المقلية في الزيت:

«الأكل الخفيف هذا لأولاد الذوات، المعدة الخفيفة لا تعمر الطاسة» وهو يشير لرأسه، ولا تقبض على اللصوص.

بدا الطقس غريبًا على السفير.

سفير يتناول عشاءه على مائدة حوله ضباط في قلب قسم الشرطة، وأنت تحب أن يشاركك العشاء ذلك الضابط العفيف القادم من المنيا، والذي تعرف أن راتبه بالكاد يكفيه، لكنه فاجأك باعتذاره، وحين استغربت الأمر قال:

لقد أكلت اليوم ثلاثة ساندويتشات شاورما.

قالها بعفة الراضي، تكاد تقبل رأسه.

تصر أن يشاركك دومًا ذلك الضابط الذي يربي إخوته بعد وفاة أمه وأبيه في حادث سيارة، والذي يطبل على بطنه حين ينتهي ويقول لك بامتنان ونزق:

والله لو الأم تريزا نفسها لن تفعل أكثر مما تفعل.

انصرف الرجل بعد الرابعة صباحًا، استمتع بالحكاية، بغرابتها،

ورأى من الحوادث ما قرت به عينه، وراح يحكي عن الإنسانية خلف أسوار القسم مع أن العشاء كان عاديًا، والمأمور الذي كان مارًا بالصدفة ابتسم ثم نادى عليك بعيدًا عنهم:

قلت لك ألف مرة: ضابط مثلك يجب أن يعمل في أمريكا، يا بني أنت لا تنفع عندنا.

جذبني من ياقة القميص وقال من بين أسنانه: «فيه ناس ولاد وسخة دواهم ضباط مرقعين»

تتمشى في القسم، تنادي عبر جهاز الارسال على الأمناء في أماكن خدماتهم خارج القسم، كي تتأكد أنهم مازالوا يقظين لم يغلبهم النوم من طول الليل وتعبه.

تتذكر أنك في الصباح بعد أن خلعت حذاءك ولبست شبشبًا في قدميك لتشرف على تنظيف القسم، لا تعرف إن كانت جملة المأمور سبًا أم مدحًا، هبطتَ للمحبس كي تقوم بتسليم المحابيس لحلمي الحرامي مندوب الترحيلات، والذي يقوم بعرضهم على النيابة بعد أن ينظف جيوبهم وجيوب ذويهم من نقودهم إن كان معهم نقود، وأنك حين صعدت السلالم عائدًا إلى مكتبك وجدت شابًا أمامك مباشرة في الصالة لكن عينك استقرت على امرأة بالسواد في ركن الصالة، بملامح مرعوبة تنتفض، يكاد ارتعاشها يفر من هيئتها على الأرض، وأن الشاب تقدم منك يسألك عن أحد المحبوسين.

لقد سلمتهم منذ قليل لسيارة الترحيلات، الحق بهم.

.. والنبي يا ابني أريد أن أراه.

جاءك من زاوية بعيدة صوت المرأة بملامح مجعدة من أثر السنين، وربما من فزعة القبض على ابنها، كنت تقترب، ترى الأم

تريزا نفسها حين تحاوط أطفالًا يتامى من أثر الحروب أو جوعى من أية مصيبة.

كنت تنادي بل تصرخ على أمين الشرطة لينظر من أقرب نافذة ليتأكد إن كانت سيارة الترحيلات رحلت أم مازالت في مكانها؟

.. والنبي يا ابني.

تنادي بلهفة وبصوت عالٍ حاد على الأمين تستعجله، بل تستنفره أن يسرع.

العربية مشت يا باشا.

.. والنبي يا ابني أشوفه، أشوفه بس.

برجاء يفتت الحجر تقول لك.

والله يا أمي لو......

لا تعرف ماذا تفعل.

أنقذك ابنها من وجعك عليها حين تقدم منها وهو يغمرها بحضنه ويشير إليك:

صدقيه، صدقيه، الباشا يقول لك: يا أمي.

لكن، أيًا من هذا كله لن يعجب أباك.

سيأتيك صوت الأمين على جهاز الاستقبال:

والدك، سعادة الباشا الكبير في انتظارك في القسم.

لا تعرف ماذا يريد هذا الرجل بالضبط، يطاردك في البيت بتعليماته، إلى متى سيطاردك هذا الرجل! يريد أن يعرف كل كبيرة وصغيرة، كم مرة تركت مكتبك وذهبت للحمام!

ماذا فعلت طوال اليوم في القسم؟

لا تجد عذرًا لأسئلته، لكنك أحيانًا تقول لنفسك إنه يريد أن يحقق من خلالك ما لم يستطع تحقيقه، ويريد أن يطمئن على أن عرق الشرطة النظيف يسري في دمك، أحيانًا تقول أن عسكريته المنفوخة تجعله ينسى أنه خرج على المعاش، يتعامل مع وظيفته كمطهر لجروح الأمة وأحيانًا لكيّها إن احتاجت، يتدخل في شئون الجيران، يعنفهم على أخطائهم حتى في موضع ركن السيارات في الجراج، يتساءل عن الرائحة الشهية لسمك مقلي ثلاث مرات في الأسبوع تتسرب من بيت أحد الجيران، لكنه يمد لهم يدًا، يتقدم لحل مشاكلهم والناس ضعاف أمام سطوة البوليس، يخشون أن يذهبوا للأقسام خشية أكثر من يوم الحساب، و يا ويله يا سواد ليله الضابط الذي يعمل ليلًا في القسم الذي نسكن في دائرته، حين تقع مشكلة لأحد في العمارة يطلبه طوال الليل، يقعد فوق دماغه ولا يترك له دقيقة لإنجاز أعمال أخرى.

يتدخل في كل شيء، يكاد يدخل تحت فانلتك الداخلية، حذاء غطاه التراب بعد يوم عمل طويل، أو قميص اتسخت ياقته رغم أنه يعرف أنك تجوب شوارع القاهرة الملوثة.

.. والدك في القسم عند السيد المأمور.

يأتيك صوت الأمين على جهاز الإستقبال.

إلى متى سيطاردك هذا الرجل؟ لا يعبأ بما تقوله له: إن الضباط يتندرون من خلفك ويتقولون عليك بأن والدك مازال يعتقد أنك لم تفطم بعد، تحتاج إلى مصاصة وحفاضة، مع أنك تملك من

الخبرة في ثلاث سنوات أكثر مما رآه هو طيلة خدمته باستثناء واقعة تل أبيب.

امتلك أحدهم الشجاعة حين واجهك: عليك أن تمنع والدك من الزيارات الكثيفة، أنت لست موظفًا في الصرف الصحي، يجب أن يعرف أنك فطمت على مائة حادثة يشيب لها الشعر، امنعه حتى لا يقولون عنك: الضابط أبو بزازة.

ورغم قسوة الكلام إلا أنك تعرف أنه صحيح، لذا سارعت بتغيير الحوار:

أفكر أن أبحث له عن عروسة.

.. أنت تمزح، ابحث له عن وظيفة، مدير أمن في شركة، أو مدير إداري كي يحل عن سمائك.

كان يقيس حجم مؤخرتك بعينيه، ولولا بقية من حياء لأمسكها بيديه:

تعرف عمل الضابط من حجم مؤخرته، إذا زادت فمعناها أنه يجلس طول اليوم على كرسي، وإذا نقصت فذلك يعني انه يقضي ليله ونهاره في مطاردة المجرمين.

كان متأثرًا بمقولة وزير باطش نقل كل ضباط المكاتب دفعة واحدة وقال قولته الشهيرة: إنهم يربون مؤخراتهم.

ولأن مؤخرتك نقصت كثيراُ مع نقص وزنك من كثرة الاجهاد والعمل كان يبدو منشرحًا، يتصور أنك تطارد تجار المخدرات في كولومبيا الشقيقة، وحين عرف أنك تقضي معظم أيامك واقفًا على قدميك مثل شجرة عجفاء في الشارع، تشريفاتي لمرور ضيف أو

وزير، وأنك تقضي اليوم بطوله حين يمر السيد الرئيس، تقف قبلها بخمس ساعات وبعدها ساعتين حتى انصراف العساكر هاج وماج وقال للمأمور:

أريد أن يكون ابني ضابطًا حقيقيًا، يقبض على المجرمين، يتعلم البوليس على أصوله لا أن يقف في الشارع كحارس على مبنى.

.. ابنك من أفضل العناصر، ونحن نسند له المهام التي تشرف القسم والداخلية بأكملها.

والنداء يتكرر: سعادة الباشا والدك عند السيد المأمور.

لا تكترث، أنت واقف هنا منذ ثلاث ساعات أمام جامع عمر مكرم في انتظار وصول جثمان الفنان الكبير عماد حمدي، تلتقط من أفواه مَن حولك مصمصة شفاههم، كيف عاش فقيرًا مهملًا من الجميع في سنواته الأخيرة.

جنازة فقيرة لو حضرها عُشْر الذين أسعدهم لامتلأ ميدان التحرير عن آخره، جنازة تافهة مقارنة بجنازة مدير أمن القاهرة لو توفي الآن! ولولا الكابات السوداء والنجوم والنسور التي تلمع فوق أكتاف الضباط، لولا المهووسين الذين يحضرون جنازات الفنانين ليشبعوا عيونهم من مؤخرات الفنانات أو الفرجة عليهن بدون ماكياج لكانت فضيحة.

وأنت لن تنصرف من مكانك إلا بعد أن تنتهي مراسم الصلاة والتوديع، لن تتحرك حتى تغادر العربة التي تحمل الجثمان، ثم تعدُّ القوات المساعدة لك من أمناء وعساكر، تتأكد أنهم ركبوا شاحناتهم العتيقة وانصرفوا.

حينها، بساقين متعبتين تشتكيان إلى الخالق بؤس الوظيفة التي

تكرهها وبؤس ما أنت فيه، تعرج على أقرب مقهى لتشرب لك رأسين من المعسل، تفاجئك على الحائط صورة عماد حمدي وهو يحمل الجوزة، يدخن بشراهة والدخان يندفع من أنفه في فيلم ثرثرة فوق النيل، الصورة التي تشبه نهايته رغم آلاف الصور، تبتسم له كأنه أمامك وتدعو له بالرحمة.

وحين تعود للمنزل تبحث عن أقرب سرير تستلقي عليه بملابسك، بحذائك، يفاجئك والدك:

إما أن تكون ضابطًا حقيقيًا، أو تستقيل وتعمل محاميًا أو أي شي آخر تافه.

ودون أن تسأله لماذا؟ يجيب وحده:

وضعت رأسي في الطين، انتظرتك عند المأمور بما يكفي جنازتين، حاول الرجل أن يهدئ أعصابي بعد أن عادت كل القوات دونك، لكنه عاجلني بالضربة القاضية وهو يظن أنه يفرحني حين قال:

أنت تعرف أن ابنك فنان، نسى نفسه وربما نسي مهمته، وذهب خلف جثمان عماد حمدي ليدفنه بنفسه.

١٠

إذا كنت تتخيل أنك حين ستدخل السرادق ستجد جهاز كاسيت به شرائط قرآن أو سي دي أو حتى فلاشه يو اس بي، يبدلونها خلف بعضها البعض فأنت واهم، أنت أمام سرادق حقيقي كما أنزل، من النوع الفاخر، به خمسة مقرئين لا يأكل الواحد منهم أقل من كيلو لحم لوحده بين الربع والآخر.

كانوا يشيعون عن الشيخ عنتر والشيخ مصطفى وأبو العينين شعيشع أن كلًا منهم يأكل ثلاثة كيلو لوحده وفي غرفة مغلقة.

ثلاثة كيلووات وسط كل هذا الهبو الأزرق، وتخيل وحدك كيف ستكون التلاوة.

كانوا يهمسون أن الشيخ لا يدخل قبل أن يأخذ التعميرة ويضبط دماغه، وكل شيء مُعَد هنا سلفًا بما يكفي سرادقين.

فكروا أن يأتوا بالشيخ مصطفى يشيل الليلة لوحده وهو قادر، لكنهم بعد محاولات اكتشفوا انه مات من زمان.

سترى نفرًا من أتباع ناجح يطوفون على المعزين بزجاجات البيرة من النوع القديم، بعلب الكانز منها للمستجدين ومُدَّعي الأناقة، ستسمع فرقعة فتح الزجاجات كأنها قنابل صغيرة أو صوت فشنك لسلاح، كمسدس صوت، ستعرف حمية المعركة حين تشاهد الزجاجات الفارغة الرابضة بجوار المقاعد، لا أحد يعيد فوارغه، بل يكدسها بجانبه.

من يعب أكثر يشارك أفضل بفمه وقلبه في دفع الحزن عن صاحب الحزن.

سيحاوطك اثنان حتى مقعدك، لا تتخيل أنهما مخبران للحكومة ولا تنزعج، كن على يقين من الآن أنهما كذلك بالفعل، وربما لأنك وجه جديد سيحوطك مرشد من ناحية ومسجل خطر من الناحية الأخرى.

امض معهما، لا تنبس ولا ترمش، انظر إلى الفراغ كما علمتك، لا يلحظ أحد اتجاه عينيك، وإلى المقعد الذي سيسوقونك إليه اذهب.

إن كنت محظوظاُ سيمرون بك على ناجح أولًا، خل مسافة بينك وبينه، حاول، حاول، قبل كتفه على أقل تقدير، من بعيد أفضل، كما يفعلون مع الملوك في الشرق والغرب، قبل كتفه قبلة عمياء كما يليق بعينيه الحزينتين.

إن كان هائمًا في ملكوته أو يلقي بتعليماته بالعين أو الإشارة لمن حوله سيصحبونك إليه فيما بعد.

لا تشعر بالأسى على نفسك إن كانت مقابلته باردة فأنت لست من القبيلة، لكن حضورك سوف يتم الرد عليه بعشرة أمثاله بل وقبل أن تغادر.

من المهم جدًا ألا يضبطك أحد متلبسًا بالدموع، سيظنها أحدهم على الميت أو على الموقف الذي وجدت نفسك فيه وهذه خطيئة كبرى، العيون الدامعة تعني أنك حزين، والحزن مقام صغير على ما أنت فيه، العيون الباكية تعني أنك قد تضحك فيما بعد، ابك بعيون متحجرة، هذا يعني أنك خصيم للموت الذي أخذ الوريث غيلة.

إن دعوك للأكل لا تتردد، لا تقل إنك لست جائعًا أو تتعزز، مكرمة الزعيم لا ترد.

الضباط الذين كانوا يمرون لتفقد الحراسة على بيت أنور السادات كانوا يأكلون، ولا يستطيع واحد منهم أن يرفض طعام الرئيس المؤمن: سيقولون مر ببيته واحد من شعبه ولم يأكل!، هذه علامة سوداء.

الرايات السوداء المعلقة على حيطان السرادق ليست رايات داعش، لا ترتعب، هي رايات الوجع الشديد، ستتأكد من ذلك بعد برهة.

صور الشيوخ المعلقة حول صور ناجح لتحيطه بالبركة هي صور الشيخ التيجاني وأبو صالح الجعفري وبقية مشايخ الفرق الصوفية وغيرهم، إن وجدت صورة لا تعرف صاحبها تتوسط الصور برأس مكشوف فاعلم وحدك أنها صورة المرحوم، دخلت بين صور الشيوخ واستقرت، وضعوها على عجل.

إذا كنت تتوهم أن المسجلين خطرًا بلا شيوخ فأنت واهم، جديد في الكار، ناجح نفسه طبع كروتًا كتب عليها: الشريف ناجح وعندما أخطأ البعض ونادوه باسم شريف أو المعلم شريف قام بتغييرها بنصيحة من مستشاره الثقافي لشئون حشيش الأناقة وكتب: ناجح، من الأشراف.

لا تعرف هذا الهوس الذي ضرب مخ الناس- أي مهبول أو واحد مسه شيطانه أو من معه قرشان- ليدعي أنه من الأشراف، حين يصادفك يخرج لك ورقة مثقوبة في مواضع كثيرة، مهترئة توحي بالقدم، تؤكد على نسله حتى النبي أو أبو طالب، ولا يمتد أحد لأبو جهل أبدًا رغم كل هذا السواد.

اجلس حيث أجلسوك، هنا يمكن أن تشرب فنجانًا من القهوة السادة إن قدموها لك، بين خمس زجاجات وأخرى، حتى لا تطيح على الأرض، أو تقف لتتطوح في أرجاء السرادق وتعملها على نفسك، سيحدث لك ذلك بعد فترة فلا تتعجل، وربما يقف الروسي ليعزف فتغني أنت معه.

ساعتها ربما تذهب وحدك دون خشية لتقبل كتف ناجح، ولن يستطيع أحد منعك وأنت في هذه الحالة، ستصل وحدك ولن يعتبر أحد دموع عينيك دموع حزن، بل دموع سُكْر وصهللة.

في الماضي كان غير مسموح بشرب القهوة في العزاء، كانوا يعتبرونه دليل عدم حزن بل تشفٍ، مع أنهم يعزمون بها. هذا إن لم أقل لك دليل فرح، حتى أن الجد الأكبر لناجح ومؤسس الجمهورية الأولى للمسجلين قال لمن شرب قهوة في عزاء ابنه بعلو صوته: إن شاء الله أشرب قهوة ابنك قريبًا. كان هذا هو العرف، لم يغيره أحد بحكم الأصول، لكن مع دخول الجمهورية الخامسة وجلوس ناجح على العرش تغيرت مفاهيم كثيرة.

وها هو ناجح يطبق ما غيره على نفسه أولًا رغم مصابه الفادح.

عمومًا بعد فنجانين من القهوة، يمكن أن تطلب واحدًا ثالثًا طالما سمحوا لك.

ارفع عينيك الآن، أمامك أم حواء، تبدو كواحدة من الغوازي، لدنة وظلت لدنة، تصور، رغم ماضيها المشرف، تزوجت من قريب لها في بداية مشوارها، سافر للسعودية بعد شهر واحد، رجته ألا يسافر، كانت ممحونة وتعرف، طار على أمل بالثروة السريعة حتى يرتاحا، هو أيضًا سافر بعين خائفة وقلب مرتعش، امرأة تنز منها

الفتنة كلما نقلت ساقًا أو حركت شفتيها، فتنتها تتحدث وتكوي أكثر حين تصمت، أخذ قرضًا، أرسل لها النقود فاشترت شقة تواجه شقتها، كانت قريبة من الجامعة فأجرتها للطلبة القادمين من القرى أو الضواحي البعيدة، تطبخ لهم وتأخذ الإيجار وثمن الطبيخ بأقل قيمة، مع الوقت توطدت العلاقة بينها وبينهم، لكنها لا تدخل عندهم، تدق الباب، تضع حلل الطبيخ وتتراجع، يأتي واحد منهم يأخذ الطعام ويعيد الأواني، إلا فوزي، أسمر ممشوق بجبهة عريضة، تلمع عيناه حين يراها، وتلتهب مزانقها حين تراه لكنه يتصرف كأنه لا يراها.

أي واحد يأخذ الأواني ويعيدها إلا هو، التمنع يصنع مسافة من اللهفة، على الأقل من باب الفضول، تبتعد وتقترب، يأكلها رحمها تقاومه، ذاقت طعم المنفلوطي مع زوجها ومع غيره قبله، مشتاقة ومحتاجة، تريده بشغف، لكنها لن ترمي نفسها رغم درجة حرارتها المرتفعة.

امرأة وحيدة، لكنها صلبة صارمة، صنعت مسافة كي لا يخدش ظلها أحد، لكن الخيط الذي يظل مشدودًا بعنف لا بد من لحظة يتهتك فتلة تلو فتلة.

شيئًا فشيئًا انكسرت الجفوة أو اللا مبالاة بين المالك والسكان، تسربت الراحة والعطف والحنية.

في كل حكاية لا بد للبطل المتمنع أن يواجه لحظة تختبر قدره.

لم تقاوم كثيرًا:

.. الحنفية خربت يا أستاذ فوزي، يلزم لها جوان.

نغيره.

هتقدر؟ الحنفية نتايه ومحتاجه جوان دكر.

أشيل القديم واركب واحد جديد ومتين.

دخل عندها بسماره القادح، ركب لها الجوان وجاء بالأجوان، صبت الحنفية وأطفأت النار، جوان يحرق وماسورة تبرد.. وعلى هذا المنوال.

فوزي بجلده اللامع، بهيئة خشنة، بعينين سوداوين أكثر من سماره، يغطي شعره كل جسده، كادت لتعده شعرة شعرة، كان يذهب إليها خلسة، وعندما تيقنت أن الجميع عرفوا، هاجوا وارتاحوا، هاجوا وسكنوا، حملت الطعام لهم، ولفوزي في سريره.

لم يؤلم أقرانه ما يرونه، أصبح عاديًا مع الوقت، كان يوجعهم صوت حركة السرير في الغرفة، يصل لهم أثناء طعامهم أو مذاكرتهم، فرسبوا جميعًا إلا فوزي الذي نجح في كل شيء.

لم يتحدثوا معه، واحد فقط قال له جملة يتيمة: أنت المسجل الخطر بيننا.

الأيام تجري والدنيا قصيرة، عندما عاد زوجها من الخارج وجد الطفلة سمراء، قال نزعة عرق حتى رأى فوزي، من فوره ودون أية مناقشة حمل الطفلة بين ذراعيه، في مشهد سينمائي ربما خطر لصلاح أبوسيف ولم ينفذه، دق الباب، ومن الباب إلى سرير فوزي، قال بهدوء أمام الجميع:

خذ بنتك، سمراء واسمها حواء.

هجرها دون طلاق ودون أوراق، لم يقبل الطفلة، لم يسجلها باسمه.

غادر الطلبة وطار فوزي.

ضاقت بها الدنيا وخافت الفضيحة، في لحظة عمياء قررت أن تتخلص من كل شيء، باعت البنت لمن لا ينجبون بدون أوراق وأغمضت عينيها.

باعت البنت واحتفظت بالشقة.

ينادونها: يا أم حواء فترد: أنا أم آدم.

تريد أن تمسح الأيام، تمسح ذاكرتها أولًا ومن ثم ذاكرة الناس، الناس الذين لا يعرفون الحقيقة كلها لكنهم يشمونها، يرددون الحكاية علنًا، كل واحد يضيف طوبة من عنده حتى اكتمل الجدار، راحوا يناوشونها على طريقتهم، مرة أم حواء، مرة أم آدم.

في السنة الثانية قررت أن تطلق السمار الذي كاد يفضحها من أول بنت، لديها عقيدة منذ كانت تحب الغوازي عكس عقيدة أقرانها: هي لرجل واحد حتى ولو لشهر فقط، لا تنام مع رجلين في وقت واحد.

للأمانة.. هي تختار من تنام معه، لكنها لا تعرف بالضبط مع كم واحد نامت.

دون تردد باعت البنت، باعت ولم تعرف لمن! أصرت ألا تعرف أي شيء، تحجر قلبها، وراحت تدبر أمورها بعقلها فقط.

إذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة فليست عندي، كل ما وصلني أنها جاءت من بلدها ندية، زغلولة كما يقولون، تضع يدها على رغيف العيش الناشف يصير طريًا، ضحكتها تسيل، عينها تحلق ومؤخرتها تقلق، لم تسمح له إلا بمسك يدها: كلي لك بالحلال،

أخذها لأمه ليخطبها بدل أن يأخذها لأمها، والزواج قريب، يقف على عتبة الباب، لم يجد وسيلة أخرى ليأكلها، حيلة يفعلها الأوغاد والشعراء، تجدها في كل طبقة، أرخى ستارة النافذة فخلعت جلبابها، وبدأ عام الفتح، أخذ العسل ولغّ في الشمع حتى هان وذاب، وحين شبع قرر أن يهجر الخلية، بدأ يجهز للهجرة، باعها، سلمها تسليم مفتاح، لم يكن ليفعلها وحده، الدنيء مرعوب من داخله مهما كانت بجاحته، سلمها لأصدقائه بحيلة ذكية دنيئة، فمضغوا ما تبقي من شمع العسل.

تلقفتها سيقان جائعة لا تمشي على قدمين، تمشي على ثلاثة، وهي للأمانة أبلت بلاءَ حسنًا، تدعرت معهم متخيلة أنها بهذا تنتقم منه.

لم يعد يحتاج لعذر، تركها وحدها تتقلب في أعذارها.

حَوَّلها لعاهرة، لا ليس صحيحًا، حولها لممحونة دائمة، حاولت من قبل أن تثني زوجها عن السفر، الحلة على النار والفئران جاهزة لتلعب في الغطاء.

بعد محنة وخطأ قاتل وفضيحة قررت تغيير الخطة نتيجة الهجوم الدائم على دفاعاتها البهية، وكأن السماء كانت مفتوحة، استجابت لتطلعاتها، لذا قررت أن تودع الملاعب المحلية، جاءها مايكل، انجليزي أشقر، منحته بخمريتها وروحها المنهكة المتهتكة ما عَزّ في بلده، منحته بسخونتها ما عوض برودة الطقس في لندن.

كان شرطها الوحيد للزواج العرفي أن يحمل طفله معه حين يغادر، لم تعد تريد أطفالًا بعد أن عيرتها عيون الناس بحواء، ومع

ان الأمر لم يكن يهمها كثيرًا ساعتها، إلا أن جرعة التحرش كانت أكبر من أن تتحملها.

حاول أن يعيد إليها بعض إنسانيتها، لكن الحلة التي احترقت قد تظل صالحة للطبيخ لكنها لا تعود بيضاء مرة أخرى.

حمل طفله وغادر، لم تنس أن تبيعه له، كل شيء صالح للبيع، حمل خمسة بعده أطفالهم بعد أن سددوا ثمن البضاعة، ولم تعد أم حواء أم حواء، أصبحت سعادة السفيرة أم آدم، أحيانًا السفيرة فقط، لها علاقات ناجحة مع الشعوب الأجنبية مؤثرة ومثمرة أكثر من وزارة الخارجية التي تبغبغ فقط أما أم آدم فهي تبغبغ وتنتج وتبيع.

الحكاية لها جذور، أبوها تزوج عدة مرات، وأمها أيضًا، لم تعرف إخوتها من بعضهم البعض ولا ساندها أحد، وقامت معركة مريرة على ميراث تافه فقررت أن تتخلص من هذا الإرث وكل إرث.

نصيحتي: لا تحاول الاقتراب منها أبدًا رغم ملامحك التي تشبهنا كلنا، قلت لك من قبل إنها تحبل من عينيها، دعها وحدها تفعل ما تشاء، هي وحدها صاحبة القرار، وقد تقرر تغيير النشاط في أية لحظة والعودة لقواعدها سالمة، وإن رمت عليك ايشاربها فاعلم أنك يمكن أن تحصل على طفل دون وجع دماغ من أمه، ستتسلمه بعد الفطام جاهزًا لتربيه وحدك وعلى مقاسك، ويكفي أنه بعد ذلك سيستطيع السفر إلى كل أوروبا دون تأشيرة لرؤية إخوته والاستمتاع بالطقس هناك.

معمل فاخر لا يطالب زبائنه بالضرائب ولا بالقيمة المضافة ولا ضرائب المبيعات.

السفيرة أم آدم بوجه مليح لم تنهكه المعارك، لا تكبر، لا تستطيع أن تقدّر عمرها الحقيقي، تسعة بطون حسب علمي في أقل من عشرين عامًا، وصلت الأربعين بصعوبة، لم تستطع السنين أن تغلبها بسبب المدد الأجنبي المتواصل، وأنها في الأساس وضعت دستورها واشترت دماغها، لا تعرف أسماء أطفالها ولا ملامحهم ولا تشتاق، وإن تذكرت اسمًا لا تعرف في أي بلد، مرت بممحاة على ما يزعجها كأنها ولدت بلا قلب.

وناجح يتمنى الآن لو يقدر على ما قدرت عليه، بين وقت وآخر يضع يده على صدرها ويقول: هنا يرقد قلب المسجل خطر الحقيقي يا سعادة السفيرة، هنا جثث كثيرة.

انتظر الآن، لقد وقف ناجح في السرادق فوقف الجميع، يحدق في الفراغ كحطام سفينة على ساحل ميت، ينظر إلى الصور المعلقة تتوسطها صورة قلبه وفقيده، ينظر كأن حياته كلها معلقة على الحوائط، يبدو أنه سيلقي خطبة، الزجاجات كلها نزلت على الأرض في مشهد مهيب، صوت الأراجيل والجوزة انقطع، لا أحد يتحرك من مكانه، حتى العامل الذي يحمل صينية قهوة أو زجاجات بيرة تسمر في مكانه.

يبدو من بعيد كشبح لأول مرة في حياته مع أن المصابيح فوق رأسه مباشرة، كأنما المكان الأشد عتمة هو المكان الذي يقع تحت الإضاءة القوية دائمًا.

قاري القرآن صدّقَ السورة بسرعة.

مساعده خنوفه المسجل الطريف، شقيق أم خنوفه، ورث الاسم والعلامة عن أهله، لن تلقط من فمه كلمة واحدة مفهومة بسهولة،

ربما هذا هو السبب في أنه الذراع اليسرى لناجح، اليمنى بالطبع محجوزة لأخته، وحتى لو سكر أو صار مسطولًا فلن تفهم جملة واحدة أيضا، وستعتقد أن الجريمة التي يحكي عنها ربما وقعت في كولومبيا ويقوم هو بالترجمة للغة العربية أو يقصها عليك بالبرتغالية.

وقف ناجحُ بحزن يكاد يتساقط من ملامحه، رفع حاجبيه إلى السماء السابعة وقال جملة واحدة:

هذا العام سوف نعمل عمرة على نفقتي صدقة على روح المرحوم.

مش باقي مني غير شوية ضي في عنيا.

وأنا هديهملك وأمشي بصبري في الملكوت.

وعاد لمكمنه، خنقته العبرة.

دموع تنهمر، وصياح علا ثم خفت رويداَ رويدا، وخنوفه يتجه إلى جهاز التسجيل يضع شريطًا من جيبه لتنساب العدودة.

وانطلق الموال:

يا عيني ع الحلو لما يميل بخته..

كل ما يزرع ورد يطرح شوك من بخته..

حتى لو فصلته بطويل يقصر على بخته.

فضل يبكي سنين وايام على حاله

لا حد زاره من أهله ولا حد خد باله

وصحابه نسيوه لما خلص ماله.

ولما أراد الكريم وخطبوا له

جم يحنوه ملقوش الحنة من بخته.

كأنك في عزاء.

الدمع مدرار، لا تعرف على فرصة العمرة أم على المرحوم أم على الصوت الذي ينز حزنًا للمطرب علي موسى الذي احتكر الحزن والشجن وحده كأنه مطرب العزاء والأحزان والذي باع شريطه هذا أربعة ملايين نسخة في عامين متفوقًا على أم كلثوم وعبد الحفيظ حالم.

عندها انطلق صوت خنوفه مفهومًا لأول مرة:

الفاتحة لروح المرحوم،

الفاتحة لروح المرحوم علي موسى.

١١

العزاء ما زال في نصفه الأول، ليس هناك مكان شاغر، والليل طويل.

سرادق مهول، عزاء كبير المنطقة، لكن ناجح ليس كأي كبير، هو كبير الحاضرين والغائبين والذين يحلمون، العاشقين والطامحين وأولي العزم من النشالين، صبيان المخدرات وحريفة البانجو، والذين يحملون مشارط في جيوبهم الخلفية، والذين يدفنون الأمواس بين اللثة والشفاه.

وربما جاء بعضهم ليتفرج عليه في أصعب موقف قلب حياته بأكملها، وربما دمرها كلها بضربة واحدة ستقضي عليه.

لا مكان فارغًا حوله، يحاول أن يبدو متماسكًا، ليس أمام المصيبة، هو يعرف تمامًا أنه غير قادر ولن يستطيع، لكن لا بد أن يتماسك أمام هذه العصبة التي يعرفها واحدًا واحدًا، شعرةً شعرة، حتى لا يتحدث به أحد، حتى لا يلطخ سجله بالدموع.

الكبير لا يجب أن يكون موضع أسى، أو شفقة من أحد حتى لو فقد ضناه، وإلا سيفقد هيبته في لحظة، ولمعت سكاكين الطامحين إلى حز رقبته، ونزلت الستارة على أيامه الباقية إن كانت هناك أيام باقية.

دموع الكبار تكتب جملة النهاية.

سينسى الناس فقيده بعد أيام، وتبقي حكاية دموعه لسنوات.

كان ينتظر أن يكون هذا السرادق لعزائه هو في حضرة ابنه، ليُشيع عزيزًا كما عاش عزيزًا.

ربما لو مات هو الآن لن يحضر ربع هؤلاء، وربما اكتفوا بتشييع جنازته وعادوا لبيوتهم دون عزاء، ليبحثوا عن معلم آخر، وربما اختاروه وعقدوا البيعة فوق مقبرته قبل أن يغلقوها.

لعبة الحياة التي حاول أن يعلمها لهوجان، صب في أذنيه وعينية الخبرة التي حصدها، عصارة الليالي السود والأيام البيض، فرد يديه أمامه وحكى له الشريط كله، يتذكر أنه أمسكه من كتفيه في نهاية المشهد، أعطاه خلاصة كبد النمل وقال:

«اتنين ملهمش أمان، الفرامل والنسوان».

بعينين زجاجيتين يسحب الشريط كله ثم يزيحه بسرعة: الآن ليس وقت الأسى والذكريات، يجب أن يعرف من قتل ولده حتى يعيش مستريحًا أو يموت مستريحًا.

هناك عدة خيوط يجب أن يجري وراءها حتى لو كانت كلها غامضة، عليه أولًا أن يبدأ من خيط النسوان، من حكاية البنت نانيس التي عرفها فقيده بالصدفة، البنت الحلوة صاحبة الملامح الدقيقة الفاتنة والجسد الممتلئ، الممتلئات اللواتي كان يعشقهن هوجان، يثرن شهيته، جسم بخيره على حد قوله وشهوته.

لا بد من البحث خلف كل واحدة.

أغوته كثيرًا نحيلات، لكنه لم يكن ليطيل معهن، يتوب ويعود إلى صفائح السمن البلدي أو صفائح القشدة.

نانيس، البنت التي غيرت اسمها، لم يعجبها اسم عزة، لم يأت على مقاس طموحها: اسم بلدي، بيئة، غيرته حتى لا تمشي باسم عتيق لا يسيل له لعاب أحد، باب سيء للدخول إلى عالم تحلم به وتخطط له.

الأسماء بوابات كما أن الأقدام حظوظ.

مَنْ تُبدِّل اسمها بحثًا عن طبقة أعلى تُبدِّل كل شيء، تُغيِّر مبادئها، وبالقطع مَنْ تُغيِّر اسمها تُغيِّر عشيقها، ومَنْ تُخفي طينتها تُخفي كل شيء.

عرفْتَ ذلك من بطاقتها الشخصية، حين كانت تريد خدمة من صديقك الضابط.

تمر أمامه التفاصيل حين طلب منه هوجان حبة القلب أن يكلم صديقه الضابط، يستغل نفوذه ويتيح له أن يسهر في ملهى الجاكس الموجود في فندق الهيلتون، والذي لا يدخله إلا الكبار.

وهوجان كبير، وعلاقتهما محسوبة.

يشير عليه من بعيد حتى لا يخدش المسافة بينهما، ثم من قريب حين يشعر بالخطر عليه،

يعرف أنه وإن كان معلمًا كبيرًا، إلا أنه أهوج في موضوع النسوان، ذكر بلا فرامل، وحتى إن داسها يدوس على موضع البنزين، الدنيا أخذته، وسعت له فطار معها، لم تعد قدماه تحطان على الأرض، السلطة والفلوس والنسوان بين رجليه، تحت قدميه، فنسى أن له قدمين:

لا تترك الأرض مهما كان، حين ترتفع يسهل صيدك بنبلة صغيرة، اغرز حيث أنت.

والبنت تلاعبه وناجح يُذكِّره:

حاسب، حاذر أن يلعب الفأر في غطاء الحلة.

حين ذهب إلى الملهى كان يلبس القميص اللميع الذي يليق بالمكان، رآه على المطرب شعبان عبد الرحيم، بالألوان نفسها، ولأنه ليس مسموحًا بالدخول لفرد ذكر بمفرده ولو كان هوجان، اختار من بين الممتلئات نانيسَ، التي لم تفتح له بابًا سهلًا رغم ظروفها الصعبة، هو الذي تعوَّدَ أن ينال فورًا كل ما يسيل له لعابه.

تعامل دائمًا مع النساء كما يتعامل النشال، يخطف ويجري، كان عليه أن يتعامل معهن كتاجر مخدرات، يخبئ، يراقب، ينتظر، يجرب بحيطة وحذر شديدين، ولا يخرج قلبه ولا أي شيء آخر إلا لحظة الاطمئنان التام إلى نوع البضاعة، لا يفتحها ولا يقطعها إلا بعد أن تطيب تمامًا.

الأنثى وما أدراك.

كانت تلعب ببراعة، تناغشه قبل أن تذهب للجامعة، بعد أن تعود، وبين الذهاب والعودة تتركه على جمرها.

تأكل بشراهة، تحب اللحم المشوي والقلب المشوي، حلوة ملفوفة، وخفة دم تسيل الدموع الضاحكة، هكذا أخبرتني العيون التي أرسلتها.

طامحة تريد أن تعيش لها يومين، تعرف أن هوجان من الصعب أن يطلق امرأته ليتزوج أية واحدة، رغم أنها تسمع صوت لعابه وهو يسيل لمجرد سماع صوتها، تسمع دقات قلبه تجري كحصان هارب، هائج خلف فرس لعوب.

هي ليست طامحة للزواج منه، وإنما للعب معه حتى إشعار آخر، على أن يلعب الفأر خارج المصيدة كما شاء، وإن أراد أن يدخل المصيدة فعليه أن يأكل قطعة الجبن تحت جبة المأذون.

انتظرت حتى تسويه كقط جائع.

وأنا حذرته من قبل: لا تقد سيارة بدون فرامل فتفقد عمرك، لا تقُد امرأة بلا فرامل فتفقد سمعتك، ركب لها أنت الفرامل.

لكنه وقع على جذور رقبته، قالت له: أريد ان أنجب منك.

المرأة تقول نعم للرجل الذي تريد الإنجاب منه.

وقع في هوى العيون الساحرة الشريرة كما وقع في هوى المسجلين الساحرين الأشرار، تقع عائلتنا في هوى العيون الخطرة كما في هوى الوقوف عند الحافة.

للمغامرة ألف سيف وجناح.

غازلها أحد الموجودين بالملهى، قابلت غزله بدلال، حاولت أن تخفف الموضوع بأن المغازل سكران، لكن هوجان طاح في المكان كسكير عفي، ضرب من ضرب وكسّرَ ما كسر لأجل عيونها وشرفه.

أخذت ما أخذت دون أن تعطى سوى الوعود، قبلة تنقلها بإصبعها من شفتيها لشفتيه، سوى مماحكات طرية تؤججه، وهو على لهب يصرف عليها ثمن طربة حشيش في الأسبوع.

تقترب منه فيرتفع منسوب لهاثه، يكاد ينتح جنًا عاشقًا، لا يستطيع أن يطلق امرأته بنت أحد المعلمين الكبار، لكنها تدفعه إلى الحافة كي يأخذ قرار الهبوط إلى الجنة.

غابت طويلًا، خصص لها فرقة نشالين كاملة تتابعها، حين وجدوها ادَّعت أن أهلها صادروا هاتفها، والأهم أن ابن الرئيس يطاردها، ينتظرها عند سور الجامعة، وأنها خافت عليه، واضطرت أن تركب معه خوفًا لا طمعًا.

وتعقدت الحكاية، رآها تركب سيارة مرسيدس فاخرة بلا أرقام، قدر أنها سيارة ابن الرئيس فعلًا.

لكل جنة ثعبانها.

والسرادق عن بكرة أبيه، يمسح ناجح عينيه بيد يخفضها بسرعة خشية أن يعتقد أحد أنه يبكي.

ربما أرادت هذه البنت التي غيرت اسمها وتسعى لتغيير جلدها أن تتخلص من هوجان فدست له عند ابن الرئيس فتخلص منه، ولن تستطيع مباحث العالم كله أن تقول من القاتل، وربما اختلقت هذه الحكاية بعد أن وقعت على أفندي بمرسيدس، ولم تعد في حاجة لأموال هوجان ولا لقوته، وربما هذا المجهول هو من اشترى أحدًا ممن حول هوجان أو اكترى أحدًا ليقتله في الزحام.

لكن من يقتل أو يكتري أحدًا ليقتل من أجل امرأة!

هذا سؤال يجب ألا تسأله أنت، يسأله أي واحد سواك.

ستعثر على نانيس، ولو في قلب الحوت، سواء كانت باسمها أم باسم عزة.

ستفتش في مصر القديمة كلها والحديثة، في الأحوال المدنية عن اسم عزة وطالبة جامعية مهما كلف الأمر.

لعبت معه لعبة الدم، وخزت إصبعها وإصبعه وامتزج دمهما، لعبت معه لعبة الدم فراح دمه هدرًا.

يتمتم ولا أحد يسمعه:

مش باقي مني غير شوية هم،

متلوثين بالدم،

مرين وليهم سم،
مقدرش أسقي في مواجعهم.

يمسح وجهه بحركة عنيفة، يتمتم كأنه دخل في هذيان القطط.

لا بد أن أعثر على هذه البنت وأمسك خيطها حتى يمتد أو ينقطع، وأعرف لماذا انقطع.

هوجان كان له مائة خيط وفرامل واحدة معطلة، وما تبقى من العمر ربما لا يكفي لتتبعها، لكنني لن أسلم روحي لعزرائيل قبل أن أعرف ما حدث.

كيف يمكنني أن أقابل ابني دون رأس قاتله، سأعثر عليه واحتفظ برأسه وأوصي أن يدفن معي، أن يوضع بين يدي جثتي حتى أصعد به.

أقل ما يمكن أن أقدمه للفقيد الحبيب، ولا يعنيني إن رمى الرأس في النار أو أكلها.

وإن لم أصل سأحمل رأس البنت نفسها، رأسها أمام اعترافها، ولا أعرف هل سيكون سعيدًا إن رآها بين يدي، أم سيكون تعيسًا لأنه لا يعرف اسم قاتله.

ساهم سارح، غارق في ملكوته لا يرى شيئًا في السرادق سوى صورة البنت، يرى وجهها في جموع الحاضرين.

يزم شفتيه، بعينين حادتين لا ترمشان، لا تعرف إن كان ينظر في آخر السرادق أم أن العمى قد أصابه؟

يسمع أصواتًا عالية في الخارج، تتحرك عيناه في اتجاه باب السرادق.

١٢

إذا كنت لا تعرف الدكتور ناجح فأنت معذور، فهو ليس مرشدًا معلنًا في منطقته، ظهوره بهذه الصفة قد يقوض مملكته.

نعم، هو المقرب من الحكومة، عينها ويدها ورجلها في المنطقة، هو من الآخر أبو المرشدين، يبدو كبيرًا وسط محيطه وإن لم يلعب دور الزعيم إلا وسط مسجليه.

أقرب لدور المنقذ في الأزمات، يريد أن يعيش دور المتخفي، يلعب في الظلام، تستطيع أن تقول إنه زعيم الظل، أو رئيس حكومة الظل كما يقولون، رأيه مطلوب، محسوب ومقدر، ولأنه أدمن الظل فقد طبع عليه، حتى هيئته وهو يمشي، كأنك تراه كأنه يختفي، رجل بالحبر السري، لا تستطيع أن تمسكه رغم أنك تحس به، يمكن لك تمييزه عن بعد لكن لا يمكن لك أن تصفه.

المسيح ليس له إخوة وكذلك ناجح.

اسمع، هذا الكلام ليس كافيًا لأن تتعرف عليه أو ترسم صورة واضحة له، مسجل خطر من الفئة الممتازة، أعلن توبته في غرفة ضابط المباحث كأنما أشهر إسلامه، لكن القحبة كما تعرف إن تابت لا تترك المبغى، الأيام دوارة والثعلب لا ينام بعينين مغمضتين تمامًا مهما تحسن الطقس.

لا يقترب من البضاعة- إن جاءه واحد معه لوط مخدرات -

يمسها ولا يفكها، يعرف قيمة الصنف بحركة صغيرة بين إصبعين، يعرف المخلوط بالحنة من المخلوط بالكحول، بشمة واحدة طويلة، أفضل من كلب بوليسي مدرب، الكلب يشم المخدرات وناجح يشمها ويحدد قيمتها، يتصرف بشهامة ومعلمة تليق بمقامه، يقوم بتصريف البضاعة من المنبع إلى الأنهار أو المجارير، من بعيد، يزوج العروس للعريس كمأذون غير معروف عنوانه، بعقد عرفي، يحمي الولد الذي جلب المصلحة، يضع حوله حراسة غير مرئية، يفرض عليه ألا يقترب من أي تليفون، تعلم اللعبة من البواكير، يعرف أن عبقرينو يحرس المجال الجوي، وفي نهاية الصفقة يستلم الثمن عبر أحد أولاده المسجلين، يحسب عمولته وحده، ولا نقاش، إياك أن تناقشه وإلا ستدفع ثمن ذلك غاليًا، ستجد في انتظارك قضية مع ربع طن حشيش أصلي تم ضبطه بلا صاحب، ستكون أنت هذا الصاحب.

نعم، يحمي الولد، يحمي مصدر معلومته كابنه، يقوم بتخليصه من الحكومة إن سقط في يدها، يجرسه أمام الضابط، يمسح به الأرض، يتوعده بالسجن الطويل وأحيانًا يلطعه على قفاه، ثم يعقد الصفقة: الولد مقابل التاجر الأصلي.

يُسلِّم التاجر الأصلي.

يقول بارتياح واضح: بطني وحمامتي والحمد لله على سلامتي.

الضابط الناجح يسمح بهذه النوافذ، يتركه ليفتح له أبوابًا فيما بعد، والمرشد الذي يجد باب الضابط مواربًا، الذي يشعر أنه قريب وعلى ساقه، و»يده في الشغل« يفعل المستحيل من أجل معلومة تضع القضية تحت رجل هذا الضابط.

وحتى لا تتوه مني وسط التفاصيل، فحين أعلن ناجح توبته كانت توبة بالعقل لا بالقلب، توبة محسوبة، عرف أن الطريق أصبحت خطرة، وأن اندفاعة الشباب وإن كان لها ما يبررها وقت الشيطنة، لكن لحظة الفرملة حانت بعد أن وصل لسن الأربعين، وحل محلها بعض العقل والرشد الذي يناسب مرشدًا كبيرًا.

كان عليه مثل الديكتاتوريين العظام أن يقوم بعملية تحول في مسار الإجرام وسيرة المجرمين، وأن يقوم بالحركة التصحيحية بنفسه ولنفسه، ولديه من الأسباب ما يملأ جوالًا أو كونتينر من المخدرات، أدرك بحاسته التاسعة أن الحكومة لن تنتهي، وأن زندها قوي مهما طالها من عطب أو تواطؤ أو تساهل أحيانًا، أو حتى بانشغالها بأمور أخرى.

لم يصدر بيانًا لمعاونيه ولا لأحد، اكتفى بجملة واحدة: عائلة الحكومة كبيرة، ويجب أن نصاهرها.

لعله أحس في لحظة فارقة أنه تأخر في عملية التحول، إلا أنه مع ظهوري وتوطد العلاقة بيننا أدرك أنها جاءت في ميعادها بالمقادير بعد أن سمع في التليفزيون أناسًا كبارًا يقولون: الإصلاح من الداخل أفضل من الإصلاح من الخارج.

سمع خطيب الجامع يقول: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، سمعه يحكي حكاية أبي سفيان الذي رشق قدميه في مكانه ليحصل على مكانة تليق بمكانته السابقة.

..أنا يعجبني الجدع أبو سفيان ده، حفظ مقامه في القديم والجديد.

كان مأخوذًا بنفسه، بإصراره على أن يكون في صدر الصورة لا على الهامش.

تقدم بشجاعة ليصحح المسار ويبدأ عمليه الإصلاح بنفسه، وسوف تتبعه بقية الفصائل، هو القائد والملهم والمسجل الخطر الضرورة، ومن الآن فصاعدًا سيتحول إلى مرشد خطر ضرورة.

نعم لا يليق به أن يصير مرشدًا فقط، هذا للصغار، للجرابيع، هذا لواحد مثل منير، عاطل لم تنسه السماء، ساقط إعدادية، يسكن في بيت قديم لجدة غادرت، مات من مات بعدها وتركوه وحده على الحميد المجيد بلا إرث ولا فلس، لا يأسى على شيء، ولأنه شعر أنه وحيد في هذه الدنيا التي قد تغدر به في أية لحظة فقد درب نفسه على القليل، قليل الأكل، لا يبدل ملابسه إلا حين تأتيه نفحة من أحدهم.

إذا كنت قد رأيته منذ عامين ستجده الآن بنفس الملامح والملابس، كأن الزمن لم يمر من أمامه، درب نفسه من البداية على هذا ثم أصبح دستوره في الحياة، ولأنه عصامي أو ظن نفسه هكذا، قرر أن يستكمل بناء نفسه على المنوال ذاته، يخرج في المساء ويعود في الصباح التالي دون أدنى مشكلة، ينام إن نام مثل كل العزاب، ملكًا على مملكة من مزاج.

نعم، مشكلته الوحيدة هي المزاج، ليست مشكلة بل غاية وغواية، يموت في الحشيش، دينه ودنياه، يعشقه مثل عشقه لسيرة أمه التي لا يتذكرها جيدًا إلا وهو مسطول، يراه أفضل ما أنتجت البشرية، يراه أفضل من القطار: القطار يذهب بك واعيًا لمحطة معلومة، أما الحشيش فيذهب بك لمحطة غير معلومة، محطة غير محطة الأمس، مجهولة دائمًا، القطار يأخذك للعمل للفسحة للسهر، أما الحشيش فيطير بك للأعالي.

المزاج يحتاج لوظيفة وهو عاطل، محتاج ومتعجل، لكنه مؤمن أن المزاج يحب العاطلين بل ينتقيهم، ولأن العطالة لا تعني الغباء خلق لنفسه وظيفة على مقاس أحلامه، المزاج يحب العاطلين لكنه يعشق النقود والنفوذ.

العاطل الغبي يرمرم في أي مكان، العاطل الذكي يخترع وظيفة لم تخطر ببال والسماء لا تبخل على العاطلين الأذكياء، قرر أن يصاحب الأغنياء، يرمي جثته على أي واحد منهم، كل غني يحتاج عاطلًا يضحكه، يشتمه، يقضي له مهماته السرية.

قرر أن يعمل في تجهيز السهرات لهم، يجهز مصافي الحجارة، يقوم بتعميرها بنفسه وتوزيعها أثناء السهرة بالعدل على الساهرين كخادم أمين محترف، يومًا بعد يوم اكتسب سمعة وطنية، وضع قدمه على أول السلم ثم صعد بعرقه وأنفاسه، ما إن تقام حفلة- وهي تقام كل يوم تقريبًا ـ إلا وكان أول المدعوين ثم تكر اللائحة، أصبح المنسق العام لحفلات المزاج، القفزات البطيئة لا تناسبه، ودع الماضي الخامل وانطلق وسط الجو الخامل، طبع كروتًا كتب عليها: مؤسسة منير وأعوانه، ثم في لحظة سحرية غيرها إلى منير لا شريك له.

لا تعتقد أن هذا هو عمله، فمنير ولا فخر هو من يشتري الصنف، بل احتكر اللعبة من بابها، قبل أن يذهب للحفلة يكون قد شرب نصف قرش حشيش على الأقل، عملية إحماء بسيطة كلاعبي الكرة قبل نزول الملعب، يجب أن يذهب في أفضل حالة كي يقوم بعمله على أكمل وجه، يشتري قرش الحشيش من هنا، أو قرشين حسب السهرة ثم يعود به للتاجر بعد قليل مدعيًا أن هناك خطأً في

الوزن، أحيانًا يفعلها في الفجر حيث يأخذ معه الحشيش المتبقي من السهرة، يطالب التاجر أو صبيه بإعادة وزن القرش، لا تعتقد أن المسألة سهلة، بل تحتاج لموهبة أخرى من مواهبه التي لا تعرفها أنت بالطبع، له قدرة على تحريك شفته السفلى إلى تحت قليلًا بطريقة غير عادية وهبته إياها الطبيعة، وطورها خلال كفاحه، ينفخ دون أن تراه أو تشعر به، يواصل بصوت مخفي تمامًا، بهواء خفيف لكنه مؤثر على كفة ميزان الحشيش ليظهر الوزن ناقصًا، ينفخ برعشة الموهوم، نصف ارتعاشة الليل البارد في شفته.

ولأنك لا يمكن أن تحصل على السمن من بطن النمل اكتشف التجار لعبته، صار عدد اللطمات التي تلقاها على قفاه يقارب عدد حجارة الحشيش التي شربها أو رصها في تاريخه.

لا تعتقد أن مواهبه قد تتوقف عند هذا الحد، يبكي بحرارة بعد العلقة المتينة، يبكي بعينين منخفضتين وشفة متدلية، يرد له التجار القرش كاملًا خوفًا من افتضاح أمرهم، إنها الضريبة التي يدفعها بجسارة كل تاجر حشيش ناجح للزميل العزيز منير أبو شفة.

لكن الحفلة كي تكتمل تحتاج إلى قعدة طرية، واحدة طرية أو واحدات، الحشيش يجلب النساء، للهروب من دنيا ثانية إلى دنيا ثالثة، ومنير يتألق مع الوقت ووظيفته تتسع لكنه لم يطبع كروتًا جديدة، جلب واحدة طرية لأحد الكبار، جلس في الخارج يشرب تعميرته ويعلي مزاجه ويسافر وحده كما عاش وحده، أعجبته التعميرة أو لطشته، راح يعلو عن كرسيه قليلًا، يسمع أصواتًا عالية محمومة، يتخيل العراك في الداخل ، قرر أن يهدئ اللعب قليلًا كما

يفعل فريق كرة قدم أثناء الهجوم الضاغط، حمل الجوزة للرجل في حضن المرأة، وأصر بكل الأيمان عليه أن يشرب نفسًا واحدًا ثم يستكمل رحلته.

ولأن المتعوس متعوس مهما كانت حلاوة الفانوس وقع الفحم المشتعل على بطن الرجل فانتكس طرفه إلى خيمته، طار مزاجه وانقضت الليلة بعد علقة أخرى.

الضرب لا يغير شيئًا، وما حدث لن يؤثر على طيبة قلبه، ذهب للمرأة معتذرًا وهو يصهلل لا يدري موضع دماغه، قدم لها بطيبة كبيرة السوتيان والكيلوت وقد تركتهما مرغمة بعد هياج الرجل.

قبل أن يمضي سألته:

وأين ثمن النط يا زبالة.

أعطاها ربع قرش حشيش، وصار اسمه منير زبالة بعد أن تضاعف نشاطه.

يمضي كأن شيئًا لم يحدث، القادمات أكثر من الرائحات، يبدو بعد كل سهرة كأنه خارج لتوه من الحبس، لا يعدم الأمر أن يتقدم للحبس، حين يفيق يختار القضايا الصغيرة التي لا تتجاوز ثلاثة شهور، الوقت عامل مهم بالنسبة له، يريد أن يخرج سريعًا ليستمتع بباقي حياته، بالجماهير التي لا بد أنها لم تعد تقيم حفلات، وحتى إن حدثت فهي مثل أكلة رديئة بدونه.

لا يُسلِّم نفسه للقسم إلا بعد الفجر قبل انصراف سيارة المتهمين بسويعات قليلة، حتى لا ينام في الحجز مع الجرابيع والزبالة، حتى يأخذ حكمًا في نفس اليوم ويبدأ في عد الأيام على أصابعه.

من الحشيش إلى القوادة إلى الحبس، كوكتيل لعب بل كوكتيل زبالة.

إن صادفته صباحًا على مقهى، يقول لك دون أن يعرفك وهو يفتح عينيه بصعوبة: سجن براني، سجن جواني، النتيجة واحدة، لذا قررت أن أصنع سجني بنفسي، داخل أجمل مكان وأعز ناس وأنفاس، داخل جمهورية الحشيش، كله حنية، ثم يرفع رأسه لأعلى، يغني وهو يطرقع أصابعه:

بالحشيش، بالحنية تاكل عنيا.

يعرفه ناجح، يعرف غيره، لديه عشرات منه، دود منقاد خلف غواية نتنة، وراء أشياء تجعل الكبير صغيرًا، وأنت وما تختار.

يتمتم ويقول: على نياتكم ترزقون.

وكما أن هناك حائطًا بين ضابط المباحث والمرشدين، حتى لو كان حائطًا وهميًا من هواء، فهناك حائط مثله تمامًا بين ناجح التائب وبين المسجلين.

كل ما يعرفونه عنه هي غزواته القديمة قبل اعتزاله، التي نقشت بماء الذهب، وحفظت في الصدور وتجري على ألسنة الجميع.

هو في عرفهم لم يعتزل، لكنهم لا يعرفون أنه ترقى وأن عينه قد علت على الحاجب.

يعرفون أنه يعرف كل المجرمين، اللصوص القدامى والجدد، كما يليق بأخطبوط ونذل حقيقي.

إذا كنت تصدق اعتزاله فخذ عندك، هو مصدر المعلومة الخفية، يقدمها من بعيد، كمطر مفاجئ ثم يختفي وينتظر الخراج، وإذا كنت

تشك في كلامي فاعلم أنه في اللحظة المناسبة، إن شعر أن الصبيان سيقعون في يد الحكومة وأن الحبل يمكن أن يطاله ولو حتى من باب الكلام، الكلام فقط، سوف يتقدم بنفسه ويشي بالجميع وبالتفصيل الممل وغير الممل، سيسلم الجميع تسليم مفتاح إلى ضابط المباحث.

لكن للأمانة لا تفوته فائتة، يصرف على الجميع طيلة فترة الحبس، يدفع أجور المحامين، ويتابع القضية من على كرسيه في المقهى وسط ضجيج مباريات المصارعة.

كف على القفا وقطعة حلوى في الفم.

لكن لكل كبير أعداء حتى ولو كان رئيس جمهورية المسجلين، هكذا تقضي حكمة الأيام والزمن هو اللاعب الأكبر لا يترك أحدًا دون أن يبيض عليه، ظهر أبو شمس في المنطقة فجأة، راحت شمسه تطلع ليل نهار، تاجر مخدرات قديم من أيام عز الباطنية، لم يستطع أن يأخذ واحدًا من عملاء ناجح الأصليين، لكنه استولى على ناكري العشرة الذين لا يدافعون عن قضيتهم المقدسة بقلب، بل ينتهزون أية فرصة للمكسب الشخصي، للعب لأي فريق، هم خلف أي قائد يحقق مصلحتهم الشخصية وليسوا على استعداد للدفاع عن وطن المسجلين ولو بالشعارات.

صنع أبو شمس دولة جديدة، لم يقبل أن يظل تابعًا في مملكة ناجح، لم يقبل بالحكم الذاتي، دوريات بالموتوسيكلات تجوب المنطقة أكثر من دوريات البوليس، يتاجر في البودرة، مكسب قاتل سريع وعالٍ، صبيانه مرتزقة، يسبونه من خلفه لكنهم يأكلون

الشهد على حسه، أغراهم صيته واللقمة الطرية السريعة بصنع دولة جديدة، إجراءات أمنية صارمة كأنهم يحرسون مديرية الأمن.

لم يستطع أحد أن يقبض عليه، وأمامه كفاح طويل قبل أن يعتزل، كما أنه من الصعب عليه ولا يخطر بباله في عز فورانه ووصوله للقمة كمنافس خطير لناجح أن يتحول مرشدًا.

ولكي تكتمل الشماتة لا بد من ثلاثة، أنا وناجح وعبقرينو، الضابط والمرشد والغاوي، اتحاد جمهوريات مثل الذي كان يتم في ليلة ويتفكك بعد أسبوع، اجتمعنا بقلب واحد بلون واحد من الداخل والخارج، المصلحة واحدة وإن اختلفت الأهداف، أنا أريد أن أربح القضية وعبقرينو يريد أن يربح قضيته الشخصية وناجح قضيته الزعامة على طريقته.

استأجرنا سيارة نقل أثاث العرسان، ملونة مبهجة، جلب ناجح الأثاث ومجموعة من النساء بقيادة أم خنوفه تدق على طبلة بحجمها، معها فريق نسائي يرقص فوق السيارة وعلى رفارفها، أحضر عبقرينو فرقة الزفة على حسابه، لم نخبر أحدًا من القوة المساندة بخطتنا ولا وجهتنا، في اللحظة المناسبة أخبرت المخبرين قبل التنفيذ بدقيقتين، سلبتهم هواتفهم قبل أن أخبرهم، أغلقتها ورميتها في درج مكتبي قبل التحرك، أعرف كما يعرف غيري أن هناك أكثر من بروتس، يتقاضون أموالًا باهظة، تضيع القضية وتنتشر المخدرات.

في لمح البصر وصلنا، عزفت الفرقة ورقصت الراقصات، وصل صدى الطبل إلى أبو شمس الذي خرج من غرفة القيادة، خرج يسأل عن العريس الذي سيتزوج دون إذنه، يستمتع بالغناء

الذي يغرد في دولته، كَمَشناه من خلف ومن أمام، وأجلسناه مع معاونيه في نفس السيارة تغني له النسوان:

مكانش يومك يا وله.. مكانش يومك.

نظفنا المنطقة، عاد قمر ناجح لينيرها، لكن لا بد من منغصات، الضابط الذي حل محلي بعد أن قمت بإجازة قبض فجأة على ناجح، تستطيع أن تقول ببساطة إنها رزالة، كما أنه لا يعرف مقامه:

.. أنت لست مرشده هو يا روح أمك.. أنت مرشد الحكومة.

يحدث هذا غالبًا، يقبض كل ضابط جديد على مرشدي الضابط الذي سبقه ليسمعهم صوته، ليعرفوا في أية يد ترتفع عصا الصولجان، يفعلها أمناء المباحث مع بعضهم أيضًا، كل واحد جديد يريد أن يأتي له المرشد بقضايا مثل سابقه.

لكن ناجحَ رغم ما به من عيوب تملأ أجولة، يعرف بخبرته أنها أيام وستمضي، ولا يفرط في حبيبه حتى لو فرط في معاونيه.

بيننا عيش وملح وبودرة ونساء.

قبض الضابط عليه، هدده أنه سيظل في الحبس وستلفق له كل القضايا المفتوحة التي لم يتم القبض على الفاعل فيها.

صمت ناجح على الظلم صمتًا طويلًا، تكلم بعينيه فقط، لكن الكلام الحار كان في مكان آخر:

.. نحن لم نبدأ بالحرب وعلى الباغي تدور الدوائر.

اللعب بالرأس غير اللعب في الأطراف، اللعب بالرأس يطلق الأفراد من عقالها حتى لو كانوا يدافعون عن الخطأ، والناس مقامات: لا يجب أن يجرح أحد مقام ناجح.

وضع وريثه هوجان الخطة التي لا يخر منها الماء، اجتمع مع مريديه ومعاونيه، وكل من فعل به ناجح خيرًا، كل من فتح بيته، كل من زوجه من إيراد طلعة مخدرات، حتى منير زبالة كان حاضرًا.

الخطة من بندين، نفذوا البند الأول بهدوء، كسروا مخزن البانجو التابع لوزارة الزراعة، هبشوا منه كل الكمية الموجودة، لم يتركوا سوى اللوحات الارشادية التي تتحدث عن الحشيش، وفجأة ظهروا على الكورنيش بربطة المعلم في وقفة احتجاجية، اختاروا مكاناُ استراتيجيًا تمر منه ربع سيارات مصر، لم يخشوا من القبض عليهم، لم يعد شيئًا يعنيهم، لم يشرب واحد منهم نفسًا واحداُ من البانجو، في هدوء أشعلوا النيران فيه ووقفوا أمامه.

وقف منير زبالة تحت اتجاه الريح كي ينعم بنفحة مزاج تكفيه بقية عمره.

سحابة دخان عارمة تغشى الهواء، صنعت ضبابًا بعد دقيقة حجب سماء المنطقة، أيديهم مرفوعة في الهواء بعدة لافتات:

المعلم ناجح، حاضره يزكيه وماضيه يشرفه.

المعلم ناجح حاضره يشرفه وماضيه يزكيه.

أبرزها الكبيرة التي كتب عليها بخط واضح:

الحرية للمناضل ناجح، كبير المنطقة.

١٣

لا تعشق امرأة تحب القطط.

سوف تتوه في حكايات غريبة وأسماء أغرب، ستتبدل رائحتك، ربما يصبح اسمك سيمو أو زغلول حسب مزاج حبيبتك، تنادي عليك بأسماء قططها، وستعرف أن سيمو هذا عاشق رقيق، بالكاد يخمش بعينيه، يمد يدًا حانية تغطي عنق حبيبته، ويتراجع فورًا إن خمشته تدللًا أو تمنعًا، يقف في منتصف المسافة ولا يعيد المحاولة مرة أخرى، بل ينتظر إشارة واضحة، يرمي منديله وإن صدته حبيبة يتمنع أيضاً ويحتفظ بكرامته، أما زغلول هذا أو زغلول الكبير كما يقال أحيانًا فهو ولا فخر الفحل الذي يقوم بتلقيح كل القطط، لا يمد يدًا حانية ولا يرسل نظرة الغرام، خلق بدون غدد العواطف، مواؤه زئير ممدود، عاطل لا يعرف غير القفز، وحين يهبط من فوق ظهر الفريسة يرسل نظرة متشفية للأخ سيمو الذي يسخر منه بنظرة، بحاجب أيسر مرفوع لأعلى: أنت لست سوى ماكينة عمياء، لن يتذكرك أحد، إنها ذاكرة إناث القطط التي تتفوق على ذاكرة السمك.

لا يمكن أن يكون زغلول هذا أو أي زغلول عاشقًا.

حين تقول هذا لزميلك النطع الذي لا يكاد يغلق سحاب سرواله إلا ليفتحه ـ أحيانًا ينساه مفتوحًا بعد معركة سريعة، لا يترك واحدة،

خادمة كانت أو أميرة، يزوغ من العمل: ساعة فقط وأعود- يقول لك بثقة تكاد تحطم المتبقي من خط بارليف:

الأنثى لا تنسى من خلقها ولا من خرقها.. «يا عم قلب ايه، وغرام ايه».

زغلول هو البطل الذي لا ينسى.

ربما لم يخلق زغلول كقط طبيعي، إنه يتنقل من واحدة لا يعرفها لأخرى لا يعرفها أيضًا، أية قطة تقف على السلالم، لكنه يؤدي وظيفته بأمانة يحسد عليها، وروتين كأنه موظف حكومي أبكم حصل على ترقية مفاجئة، كأنه يقلد كل الذين يركبون مقعدًا أو بشرًا أو قطة، يموء بصخب كأنه يحذر الذكور الآخرين من الاقتراب من عرشه، لا يمسح فمه لينظفه، بل يمسح شواربه، ربما لو شقوا صدره وفحصوه ما وجدوا له قلبًا من أصله.

وأنت بقلب تؤدي عملك، تفعل كل شيء دون سقف، تصل للمدى، أنت عاشق، لا تعرف هل ولدت هكذا أم أنك اخترت ذلك؟ تمر أمامك كل شهر عشرات النساء لكن قلبك لم يرف بعد رفة حقيقية.

كانت جارتكم الهائجة دومًا تقول لأمك: هذا الولد عيونه نعسانة طوال الوقت.

تتذكر البنت التي أحببتها وأنت بعد شابًا، حين سألتك الجارة نفسها عنها بابتسامة نصف هازئة معجونة بالشبق والغيظ أجبتها: حين تظهر أو تمرق من تحت شباكي يرفرف قلبي فوقها، يكاد يحطم قفصي الصدري ويطير.

لم يرتعش قلبك إلا نادرًا، لم تقترب من واحدة ليس بها شيء

خاص، شيء لا يدركه العاديون أمثال زميلك النطع الذي يقول لك: أنت مجنون تختار نساء مجنونات مثلك.

والشارع أمامك كله مجنون، من يسير في اليمين يريد أن ينحرف لأقصى الشمال، والعكس، كل واحد يفعل ما يريد دون حساب لأحد، كأنه اتفاق غير مكتوب على الأنانية وعشق الفوضى.

لكن المهم أنك لم تنجرف كثيرًا وراء رغباتك، وراء الفوضى، صحيح أنك لم تقمعها لكنك لم تصبها في نبع قد يورثك أو يورث غيرك همًا.

تعرف تمامًا أن الروح بالفرح، والجسد بالفرح أيضًا.

وتعرف تمامًا أن قلبك لم تمته حوادث الخيانة واللعب الذي لا يخطر ببال.

لا تنسى أبدًا تلك العرافة التي حكت لأصحابك عن حالتهم ومستقبلهم، جلسوا متأهبين، أخفوا ماضيهم وانتظروا مستقبلهم، خرجوا من بين يديها فرحين بفحولة أو مال أو مركز ينتظرهم حين أمسكت كفك، حين رمت البخور على منقدها قالت لك جملة واحدة:

أنت رجل بقلب امرأة.

نظرت إلى عينيك طويلًا، أطفأت منقدها، قالت: لا تذهب إلى عرافة أخرى.

وقفت على حيلها وبجملة قاطعة كسيف في قصة قديمة: ولا تعد إلى هنا مرة أخرى.

ثم وأنت خارج: ولا تجرِ خلف امرأة تحب القطط.

كأنها وهي التي يختفي قلبها خلف بصيرتها، أو لعبها بأحلام الآخرين، وقعت في غرامك من النظرة الأولى، لم تنس أبدًا نظرتها وأنت تغادر.

تتذكر الآن هذا، تقلبه بعقلك كأنه يحدث الآن، يتوه منك ما يتوه ويحضر ما يحضر.

لكنك تتذكر هذه البنت دائمًا، لم تنسها أبدًا.

حين دخلت مكتبك كانت تحمل قطة، الهمسات والمصمصات تحاوطها، جاءت بتوصية من زميل، تدرس الإعلام، تريد أن تفتش في بعض المحاضر عن قصة تكتبها كما أشار عليها أستاذها في الجامعة.

لا يصدق أحد من الضباط والأمناء هشاشة بعض النساء، يرونها مفتعلة أو محبوكة، لكنها ولأول نظرة كانت تسبقها هشاشتها، بعيون غائمة كأن لها جفنًا رامشًا، ليست حورًا وليست واضحة، مثل غيمة متسمرة لا تتحرك من مكانها، لا تعرف إن كانت تراك أم لا، كأنها عيون من وراء حجاب، الصوت، طريقة نطق الألفاظ، لا تتكسر ولا تتصنع، بجسد يبدو كأنه سيختفي بعد قليل، لولا هذه النتوءات التي تداعب الهشاشة، والتي ربما نمت غصبًا عنها.

لا أعرف إن كنت قد صادفت تلك النسوة النحيلات عزيزي القارئ؟ تراهن نحيلات لأول وهلة، غير أن صدورهن تأبي إلا أن تعلن عن مركزها، عن حضورها رغم النحافة، وحين يستدرن تبدو ظهورهن نحيلة أيضًا، إلا من مرتفع متوارٍ، أو يحاول أن يتوارى مؤكدًا هذا النحول، بل يفضح هشاشة الجسد، لكن ذلك كله لم يستطع أن يزيح رقة الروح.

هل هذا مكتبك؟

.. نعم، استأجرته من الحكومة.

تضحك.

ضابط وخلفك كل هذه اللوحات! حتى كلود مونيه!، ضابط أم فنان تشكيلي؟

راحت تقلب في الأوراق، تقرأ عن دنيا بائعة الحب تحكي حكايتها مع واحد اقتنصته أو اقتنصها، كانت تمسك عضوه حين ضبطها الضابط، وأنت تدير بصرك بعيدًا حتى لا تفاجئك بسؤال لكنها فاجأتك وقالت:

«يعني إيه عضوه؟

قطتها كانت ساكنة في المكان، جالسة بين ساقيها كبنتها، كأنها عرفت أنها في مكتب رئيس المباحث فخافت ولم تتحرك.

حين رفعتها على كتفها وهي تهم بالمغادرة:

أنا أيضًا أرسم، عندي لوحات كثيرة، وقد أشترك في معرض قريبًا.

لست على بعضك، قلت كأنك تمزح:

لا تعودي إلى هنا مرة ثانية، سأقع في غرامك فورًا.

أسنانها كادت تضيء تحت خيط الشمس القادم من شباك عريض.

تشعر أنك واقف على رأسك، قمت من مكانك لتودعها، حتى لا يخمشها أحد بنظرة أو كلمة هي وقطتها.

لم تكن نحيلة وهي تمشي أمامك، كادت لتذوب من فرط رقتها،

ساعتها أحسست بهذا الطائر ينقر صدرك من الداخل، يفتح لنفسه مسارًا ويطير.

لا نعرف متى يهبط الحب.

قال زميلك: قطعة بسكويت، بغاشة، تستأذن القلم قبل أن تفتحه.

.. إنها توشوشه يا هذا قبل أن تفتحه.

خذها، واحدة مثل هذه لقطة، يمكن أن تربيها على يدك.

قلت وأنت تداري السخونة التي صعدت لوجهك:

صعب أن تحب قطة تحمل قطة.

لا يعنيني أن أربي أحدًا، ولا أشغل بالي بهذه المفاهيم الجاهزة الموجودة منذ أيام رمسيس الثاني، كنت أنتظر هزة تقلعني من جذور الدوامة التي وضعتُ أو وجدت نفسي فيها.

لا تكذب على نفسك، أنت استمرأت هذه الحالة لتنسى بها كل رغباتك، كل يوم قضية جديدة تغوص فيها، كي لا تسمح لأي صوت أن يذكرك بحالك، البيت أصبح فندقًا يتيما، تعود إليه لتستحم وتنام مثل القتيل.

أنت معطوب، عليك أن تصلح العطب قبل أن تدخل قلب التفاحة التي هبطت أمامك فجأة مثل تفاحة نيوتن، هو اخترع قانون الجاذبية، لكنها جاءت لك على طبق من فضة.

جاءت مَنْ تُصلِح لك العطب الذي أصابك، إرمِ ما خلفك بقوة قبل أن تحضن التفاحة.

نسيت نفسك دومًا، نسيت الزواج، تعيش بقلب فنان، عاشق، عشقت أكثر من امرأة، قلبك لم يستقر يومًا، ولو كان لما جمعت بين

الفن والبوليس، ضرتين رسميتين في بيت واحد، في قلب واحد.

كل واحدة لها دنيا يا مولانا، تدفع من أقساط واحدة لأخرى، صار قلبك مثل نحاس مصقول لكنه باهت وصدئ.

لكنك وقعت في الحب.

اسمها ضيّ بنت الإيه، كأن اسمها طريق وعلامة، بنمش خفيف لا تخطئه عين محب، ينتقل بين المواضع تحت سطوة الضوء.

تحكي عن عائلتها القططية، لا تعرف من أبوها ومن أمها! ولا إخوتها، حين تقول إنها ستذهب سريعًا تعد الغداء لعائلتها فأنت تعرف بالضبط من هم: كيمو وسيمو وسقراط.

لا تحب قططها فقط، بل تحمل كل قطة رأتها وحيدة على سلم، لم تترك واحدة: هذه طردها أبوها وهذه طردها زوجها، وتلك تشعر بالبرد بعد أن تزوج إخوتها والأخيرة باعها أطفال لطفل فطردتها أمه خارج الشقة.

وأنت، هل عندك قطة؟

لا.

هل تحب القطط؟

يمكن أن تحب مدنًا ووشايات غريبة من أجل شخص واحد.

وقعت يا شاطر، وستجري خلفها، روحك أرض عطشى تعوي، كرهت تشققاتها، تشتاق للارتواء.

وقعت بسرعة كأنك كنت تنتظر ولا تدري، غرزت في أرض الفاكهة الطازجة، بدل الفاكهة المجففة التي مضغتها طوال عمرك، بلا طزاجة ولا رحيق.

لم يعد يرى غيرها، الحب يوقف المشي وراء النسوان، يعطل شياطين القفز والقنص.

وهي بعيونها الناعسة عرفت الذرة المشوية وحمص الشام على يديك، عرفت الجلوس على طاولات من حجر وخشب في الشوارع، أن تقف أمام عربات الفول كأنها سائحة أجنبية وتعودت، تذهبان معًا لمعارض الفن التشكيلي، لم تترك عملًا في حياتك إلا لأجلها، تركت الخدمة في الكنيسة، أوصيت زميلك، حملت جهاز الإرسال معك وذهبت معها لمعرض، كان صوت الجهاز يدوي في القاعة وصوت أقوى منه يدوي في قلبك.

وقعت في الحب يا معلم، الضباط لا يقعون كثيرًا في بحره، ربما لا يعترفون، لكنك تعترف، تكاد عيونك تخرج من مخابئها.

ربما أحببتها لأنك عطشان للحب، تحتاجه لروحك أولًا، لتكنس كل التساؤلات والأوهام، كي ينشلك من عالمك، عالم السلم والثعبان، المشبوك بأشياء شائكة.

هي رقيقة لطيفة، لكنها لا تمد يدًا، لا تقابلك في منتصف المسافة، تريدك أن ترمي نفسك في أرضها، تحرقها بالنار، وهي واقفة على الشاطئ ترقب السفينة بعينيها الغائمتين لكنها لا تنادي ولا تلوح.

أنت غارق لشوشتك، وهي لم تبتل بعد، كأنها بحر مغلق على شواطئه.

ترسم لوحة، ترسمها، نصف وجه ولا تكمله، تعود لترسم النصف الآخر في لوحة أخرى، وحتى حين رسمت يدها لم تكن مرفوعة لأعلى، كانت بأصابع منطفئة تتجه للأسفل، تائهة مثلك، مثل الفراغ الذي يحيطها.

خفت من إحساسك، فضحت اللوحات ما تريد أن تخبئه أو تصدقه.

قال زميلك: لا تنظر في عينيها، تبول في أذنها يا باشا، بوابة النساء الأذن والبدلة الميري.

تتذكر حين كانت البنات تصطف على أسوار كلية الشرطة ليشاهدن الطلبة وهم خارجون من الكلية بزهو، يصرخن كأنهن يشاهدن نجوم السينما والنجوم تلمع على أكتافهم.

لكنك لست من هؤلاء، أنت فنان، الوقوع في الحب لا يحتاج سلطة ولا خبرة، الحب هو السلطة نفسها، لكن استمراره يحتاج لخبرة وذكاء، لا لا، حب بالصدفة أجمل، يأتي كالقدر بغير ميعاد، مثل شحنة كهرباء في قلب ميت، لكن يحتاج لذكاء ليمضي للأمام.

وهي تغيب، تحضر فجأة وتختفي فجأة.

قالت صديقة: ابتعد عنها، خفف حضورك ولا تطاردها، لا لكي تفتقدك، بل اعطها فرصة تجلس مع نفسها وتحبك فيها.

هل تلعب هذه البنت معي؟ لا أظن، بل يجب ألا أفكر في هذا أبدًا، هي على طبيعتها التي تشبه عينيها الغائمتين، تشبه البحر بمده وجزره.

تعود، تفرد أمامك ورقة، ترسم أربعة أسهم، واحد يشير إلى الحب، واحد للمال، وثالث للجنس، ورابعهم للشهرة، ثلاثة بمربع مقفول والحب بمربع مفتوح، طوتها وجعلتك تختار.

كنت تفكر، رحت تتمنى، لكن الإجابة كانت الجنس.

«بطلي غش»، غشيتي في النتيجة».

وعهد الله ما حصل.

تطلب إعادة اللعبة مرة أخرى.

تتقدم بعينين مملوءتين بالضحك والأمل، والخوف تحتهما، تنتهي إلى نفس النتيجة.

هذه البنت ستخمن أنك محتال، زير نساء، النساء يصدقن الأبراج والعرافات وهذه الألعاب.

ترمي الورقة في حقيبتها، تقول:

تعرف، أنا متفاجئة من النتيجة، كنت على يقين بأنك لو فتحتها مائة مرة ستقع بسهم الحب.

وبوجهك الذي صار أحمر غامقًا، ممتقعًا مثل قطعة كبدة، تغني لتهرب من الموقف:

يا سلام على حبي وحبك، وعد ومكتوب لي أحبك.

أنت أيضًا راهنتها على أول أغنية تسمعانها في السيارة، تتمنى أن يكون ذوق ناجح جيدًا هذه المرة:

«انتِ أحلى بنت في مصر، الباقيين كلهم كسر، انتِ حبك جوه قلبي، زيه زي ختم النسر».

تقول لها بصوت عالٍ: الفنانون يقعون في الحب في ثانية واحدة، ثانية صادقة جدًا، يقطعون الطريق الطويل الذي يستغرقه الآخرون في لمح البصر، تقع عيونهم على الروح، يختصرون الدنيا بسرعة الفهد، يختصرون التنهدات.

تغيب وتحضر، تحكي لها عن أغنيات فيروز فتحكي لك عن مغامرات سيمو، تحكي عن علي الحجار وحنان ماضي فتسرد لك مغامرات القطة كرنبة.

تحكي عن الغزل بين عمر الشريف وفاتن حمامة فتحكي عن المطاردة بين قطط البيت وقطط السلالم.

.. سقفك عالٍ بعيد، أخاف ألا أصل إليه.

أنا معك طفل كما ولدتني أمي.

.. دنيتك كبيرة.

أموت في دنيتك الصغيرة، عدت طفلًا معك.

دخلت بقدميك وسط الجمر، وهي متسمرة في مكانها.

تحمل قلبك على يديك مثل بنت خام تظهر أوردتها في ذراعها، وهي تخبئه خلف ظهرها.

رميتَ بقلبكَ فوق الجمر.

تحمله لأجلها على يديك.

وهي تُخبئ قلبها وراء ظهرها.

تقول لنفسك: ربما اعتادت عليك، لكن التعود يزيل أحيانًا صمغ القلب.

تغيب، تحضر، كأنها لم تأت.

ربما ليس وراءها شيء يشغلها، ربما ترى الأمر صداقة، حتى ولو تسرب الحنين بين أوراقها، وارد جدًا أنها حيرانة لا تعرف ماذا تفعل، لكن الحيرة كفيلة أن تفتح الأقفال المغلقة أو تؤمن على إغلاقها وتمضي، وتنتهي القصة.

أنت وصلت لخط النهاية، وهي واقفة في منتصف المسافة، لا تتقدم ولا تتراجع.

قرر أن يرمي الرمية الأخيرة، مع أنه يشعر أنها لن تبادله رمية بأخرى:

أحبك، أحبك من القلب لا من الحنجرة.

.. ضابط أنت أم فنان؟

غيّرت الموضوع، تركتها مرغمًا لحالها وعدت لحالك، ترسم امرأة طائرة في اللوحة بلا قدمين.

قلت لك من قبل: لا تعشق امرأة تحب القطط.

ربما خائفة، ربما لم تنضج بعد، لكن الحب لا يحتاج للنضج، فورة الحب ليس لها سن أو ميعاد، ربما لا تحبك، أو لا تعرف الحب أصلًا، لا تعرف على أي حائط تفرد مشاعرها.

لكنها تحبك، قلب الفنان يدرك هذا، يلقطه من لفتة، من كلمة، ربما مترددة، النساء يحسبن مشاعر الحب بالعقل، والرجال بالقلب أو بالرغبة، البنت التي لا تنام الليل من أجلها، وأنت بوجلٍ تفكر كيف ستفاتحها بالحب، شاهدتَ هذا المشهد قبل وقوعه.

جرِّب، حين تقول لها أحبك، حتى وإن طارت أمامك من الفرح وذابت أمامك خجلًا، تعرف تمامًا أنك فكرت في هذا وأنك ستعترف أمام قس طيب، تتخيل اللحظة واللقطة قبل وقوعها، وأنك مرتبك كمعظم الرجال، وأصابعك باردة رغم دفء قلبك.

نعم، هي شاهدت هذه اللقطة من قبل، هيأت لها المسرح وأخرجتها كما تحب، وضعت الممثل الذي هو أنت على الخشبة، وتركت لك فقط أن تزيح الستارة وتواجه الجمهور لتأخذها المفاجأة.

تتفرج على اللقطة المعادة كأنها المرة الأولى، لعل هذا هو السبب الذي يجعل النساء طوال عمرهن يستعدن اللقطة الأولى ويثبتن الرجال عندها.

يحدث ذلك غالبًا، إلا في الحالات التي تقع فيها المرأة في الحب وتنغرز قدماها في قلب الرمل المبلل بدموعها، ساعتها لن تقوم بإخراج المشهد، ولن تبكي من الفرح، سيسيل العسل وحده من عينيها ثم من أطرافها.

حبيبتك لم تتخيل اللقطة.

ربما هي خائفة، رغم أنك تصير طفلًا مع طلتها، تأتي بضفائر أحيانًا فتبدو صغيرة في العمر وتعود طفلًا معها، ربما حائرة من الخلطة التي تبدو عليها: ضابط وفنان وطفل معها، ربما نبت الحب في قلبها لكنها ارتعبت من الرجل الذي يقدم نفسه كلها.

لم تقدم ماءك جرعة جرعة، دفقته مرة واحدة فأغرق النبتة.

أنت تحبها وهي تحب القطط.

على منوالها في الغياب والحضور، تغيب أكثر فتحضر داخلك بكثافة.

تركتها لترتاح من هجومك بالعشق عليها، إلا من مكالمات متقطعة يسمع نصفها عامل الهاتف، حتى جاءت المكالمة الحاسمة:

أريدك فورًا.

كانت تبكي، هذا فأل جيد، كادت دموعها تسيل من سماعة الهاتف.

لحقتها بسرعة إلى مستشفى الكلب.

بدموع تكفي لتشييع كل قتلى حروب التوتسي والهوتو تبكي، قطها زغلول وقع في الحب لأول مرة، أحب قطتها إلزا، والأخيرة مترددة، لا تعرف إن كان يحبها حقًا أم لا، وحتى في اللحظات التي ترى الحب يلمع في عينيه كانت تتراجع عندما تراه يقفز فوق قطط أخرى، لم تقبل تبريره أن هذه طبيعة وظيفته، يقفز على الظهور هناك لكنه يريد حضنها هي.

وهي أيضًا ربما شاركت في المسألة، لم تحاول أن تسحبه بعيدًا، كانت تنفر منه فتدفعه ليدفن إحباطه في أحضان الأخريات العابرات.

لكنه في لحظة شعشع فيها الوجد في قلبه، خمشها بقوة بأظافره، لم تفهم أن الخمش العنيف لا يحدث إلا من حب عنيف، تعاركا وأصاب عينيها، كان كالمسعور، أصابها بنصف عمى، وهي بين الحياة والموت.

كدت أقول لها إن هذا هو ما حدث لعماد حمدي في آخر أيامه مع اختلاف الأسباب لكنني تراجعت، حالها لا يسر، لا تستطيع أن تتزحزح من مكانها، جسدها ينتفض تحت مواء قطتها.

ما زالت تبكي بشدة.

أخرجتها وبقيت مع الطبيب الذي حاول لكن السر الإلهي صعد.

لم أستطع أن أخبرها بالمصيبة، لأن زغلول أفندي كان على شفا الانتقال للعالم الآخر أيضًا، إذ أن الآنسة إلزا بادلته عراكًا بعراك، ولأن المصائب لا تأتى فرادى فقد غادر بعدها بدقائق. حاولت أن أرتب الخبر حتى لا يصيبها في مقتل.

مات العاشق والعشيقة المتمنعة التي حافظت على كرامتها لآخر لحظة.

لا أعرف بالضبط ماذا أفعل في هذه الورطة، ورطة لن ينفع فيها عبقرينو ولا ناجح، أنقذني مجيء صديقتيها، وتوزعت المواساة بيننا.

كان لا بد من جنازة تليق بدموعها.

كنت في المقدمة بالطبع، أحمل جثة الفقيدين، لأول مرة في التاريخ يموت محبان من القطط معًا، اللهم في حادث دهس سيارة.

كنا أربعة، كانت منزعجة ومتأثرة لضعف الجنازة وقلة عدد المشيعين.

.. موزارت حضر جنازته أربعة فقط.

لولا مهابة الموقف لأطبقت في عنقي.

كما أن ظهور مشكلة جديدة أبعدتها عني: كيف سندفنهما؟ هل بجوار بعضهما أم نرمي زغلول في مقابر الصدقة؟

واحدة تهمس: زغلولَ حقير ولا يستحق الدفن من أساسه، والأخرى تهمس أيضًا: لتنم إلى جانبه، كان يحبها رغم توحشه، سيتصالحان في العالم الآخر.

واحدة تقول والأخرى ترد عليها:

طبع الرجال المندفع الذي لا يصبر على تمنع امرأة، من لا يصبر لا يفوز، وهذه هي النتيجة، كل الرجال متعجلون.

لقد شوت مشاعره فلم يتحمل قلبه، يا إلهي حتى القطط تحب القلب المشوي.

كان لا بد من قرار حاسم: ندفنهما معًا، إما أن يتصالحا أو تنتقم منه براحتها في العالم الآخر.

انتهينا بعد أن وضعنا أوراق الريحان والرحمات لإلزا فقط، لم يحظ زغلول سوى بالحجارة، ولم يستطع أي منا أن يقول: ربنا يسامحه.

انتهينا بعد أن طلعت روحي، وتمنيت أن أغمض عينيَ لينتهي هذا الموقف.

كانت تتفحصني بعيون غائبة غائمة كعادتها، تخيلت أنها سترمي نفسها في حضني، وتكسر تمنعها بعد أن شاهدت نهاية اللعبة.

اقتربت مني، وضعت يدها على كتفي:

طلب صغير أخير: قل لموتسارت هذا أن يصنع لحنًا أو كونشرتو لإلزا في ذكرى الأربعين.

١٤

العزاء طويل، والليل أطول، الليل موال العشاق، لكن مواله حزين هذا المساء، لا يكاد يخرج صف حتى يمتلئ المكان في لحظة، وناجح يحاول أن يصلب ظهره، يشد ياقة جلبابه الصوف، يضع طرفًا فوق طرف بإحكام، يشد ملامحه، ليس أمام المعزين فقط، بل أمام الموت، حتى إذا داهمه في الحال يأخذه بكامل حضوره.

الآن لم يعد في حاجة إلى أن ينظر وراءه، الآن بالتحديد، الكبار يمتصون المصائب أمام أنفسهم وأمام الناس في لحظتها، وحين يعودون لمخادعهم يمكنهم أن يقلّبوا دفاترهم القديمة، وربما يبكون.

انتبه، هنالك واحد على مرمى بصرك، ظل واقفًا حتى جلس الصف كله، لم يعد في الممر غيره، أصبح في الصورة وحده، ولا أحد يقترب منه، يقلب بعينيه السرادق كله، واقفًا كعمود، منتصب القامة، برقبة مائلة قليلًا، كأنه يصعرها من باب الفخامة، يحرك وجهًا صلدًا تحت الأضواء كأنه مدير أمن العاصمة، الآن يتقدم وحده بشموخ مصطنع، ببذلة كاملة، خده الأيمن بسمرة واضحة، خده الأيسر بسمرة تميل إلى السواد، رمى بضع نظرات بملامح جامدة، ثم بدأ يتقدم نحو ناجح، نظرة واحدة منه كانت كفيلة بأن ينتفض الجالس بجواره تاركًا مكانه لهذا الزائر متجمد الملامح.

اسمه البيه المفتش، مفتش المباحث، لا يعرف له أحد اسمًا، دخل إلى قهوة ناجح ذات صباح، يرتدي ملابس البوليس، يضع على كتفه رتبة نقيب، قد لا تبدو مناسبة لسنه، لكنه حصل على ترقية استثنائية كما قال، وصدقه الجميع.

شرب فنجانين من القهوة على عجل ثم غادر المكان، لم يطلب شيئًا، جاء للتعارف، حين عاد بعد أسبوع كان قد انتقل للمباحث، ومن ساعتها لم يره أحد رؤية قريبة إلا لمامًا.

يتيم، لا يعرف له أحد أمًا أو عائلة، وجد نفسه في ملجأ الأيتام، بلا نسب ولا شجرة، اتخذ قرارًا واضحًا من البداية سوف يعينه عليه الجميع فيما بعد أن تكون له عائلة تغنيه عن عائلته المجهولة.

عاش يكره عبد الحليم حافظ الذي استجدى الناس بصفعة عماد حمدي، كان الضعف والاستجداء يصيبه بالقيء، ويصيب أقرانه بالدموع، قرر أن يكون بلا دموع وأن يتركها للآخرين، موقع عماد حمدي أفضل رغم خشونته.

معه ثانوية عامة بالعافية، حصل عليها بالغش، كان يضع البرشام داخل ساعة يده للأسئلة المتوقعة، يبرم المسمار فتتحرك الإجابة وما ليس متوقعًا يكتبه على سيقانه، يدخل إلى دورة المياه، ينقشها في عقله ويعود.

مجموعه لا يؤهله لشيء سوى أن يدخل معهدًا بالدعوات الصالحات، وحين يتخرج لن يجد وظيفة، بالكاد يعمل حمالًا، يحمل الكراتين على كتفيه في إحدى شركات القطاع العام.

اكتشف موهبته في التزوير وحده، لكنه حين خرج من الملجأ قرر ألا يزوِّر لأحد بل يزوِّر لنفسه، بالأحرى يزوِّر نفسه.

قرر أن يختصر الطريق ويصبح ضابطًا، أخيرًا اهتدى لمصيرة بسهولة ويسر.

للأمانة وحتى لا أظلم الرجل، في لحظة اتخاذ القرار كان عقله يشاوره أن يكتفي بأن يكون أمين شرطة، وحركة الأمناء أوسع من حركة الضباط، وعلاقتهم بالناس أقرب، لكنه قرر أن يكون مخلصًا لرغباته، لا يريد نقودًا فقط مهما كانت قيمتها، يريد أن يصبح شيئًا كبيرًا.

النصاب البارع والمزوِّر القديم لن يجد صعوبة في أن يزوِّر بطاقات بصورته واسمه ورتبته.

في البداية لبس ملابس الضباط ليعلن عن بداية الانقلاب، ثم استغنى عنها ولبس ملابس مدنية بعد أن نقل نفسه بنفسه للمباحث، ولم يعد في حاجة إليها.

المباحث أقوى، ولن يستطيع أحد الوصول إليه بسهولة، حين يطلبونه لأداء خدمة يقول بصوت عالٍ كأنه يطارد المجرمين في الجبال البعيدة: أنا في مأمورية، سأعود بعد أسبوع، في الاتصال الذي يليه: عندنا مصيبة كبيرة.

الريح تطاوعه، وقدمه بعد أن ثبتت على الأرض استعدت للطيران.

يومًا بعد يوم تكبر الحكاية، يصدقها الناس، لكنه صدّقها أولًا.

كي تصنع كذبة كبيرة لا بد أن تصدقها أنت أولًا، ومن بعدها سوف يصدقها الجميع.

والأيام كانت كفيلة، كل يوم يمر تتلألأ الكذبة في الهواء، على كف يده، ليقول بملء فمه: أنا مفتش المباحث.

كبرت اللعبة، عرف طريقه إلى رجال الأعمال: عندنا قضية قتل، ورقم تليفونك أحد الأرقام التي طلبها القاتل كثيرًا، يمكنني أن أخفيها لك كأنها لم تحدث، وعليك فقط أن تتبرع لدور الأيتام.

«تليفونك ملمّس فيها»، قالها بالحرف بطريقة تسمح له بالتأكيد أو الرجوع عنها.

أعلن عن نفسه وكَرَّت الحكاية، موجود دائمًا في صدر الاحتفال بيوم اليتيم، يكرّمهم كأنه يكرم نفسه أو يشطب أيامه القديمة.

مزوِّر عتيد، ضرب كل الشهادات لمن يحتاج وقبض الثمن، يتولى عملية الإفراج عن المساجين، يجمع التبرعات للإفراج عن الغارمين، يأخذ المعلوم في الأمور الثقيلة ويترك الخفيفة لتكون له عائلة ونسبًا.

لا يعدم الأمر أن يقوم بتوظيف من يحتاج، وامتدت يده الطيبة للناس، ساعدهم في حج بيت الله وفي السفر للعمرة، يحصل على التأشيرات الاستثنائية، وحين لا يستطيع يضربها بنفسه.

لم يترك خيرًا إلا وساهم فيه، لكنه لم ينس نفسه، حين تظهر حركة تنقلات الضباط ينقل نفسه من مباحث السياحة والآثار إلى مباحث المرافق، ثم النقل والمواصلات، كارنيهاته في جيبه، يصنعها كيف يشاء ويبدل صورته.

يحتاجونه بشدة ويستفيدون من خبرته الواسعة.

للأمانة أيضًا لم يكن ينقل نفسه كل عام، في الغالب كل عامين.

عاش في الدور، يجلس في مقهىً قريب لمقهى ناجح، ربع ساعة كل أسبوع، يجمع الطلبات ويحدد المعلوم سرًا، بدا كأنه بابا

نويل الحقيقي، بابا نويل الأصلي يأتي مرة كل عام لكنه يأتي مرة في الأسبوع، أعلن عن نفسه وربح الجولات حتى الحادية عشرة،

لكنه كان قلقًا بعض الشيء من ناجح لعلاقته بالضباط، كان ذكيًا بما يكفي ليصنع معه علاقة وليبقي بينهما مسافةً، حين أرسل لناجح لم يوافه إلا في الأسبوع التالي، وبعد أن رسم نفسه أمامه قربه وأجلسه بجانبه.

فهم ناجح لعبته، شك فيه، عرف أنه مزيف، كان عليه أن يوصل له الرسالة دون أن يفقده، تصرف كواحد ذهب للحج ورفض أن يرجم الشيطان، قد يحتاجه في يومٍ ما.

يحمل في يده مسدسًا داخل جرابه، نسيه ذات مرة على الكرسي أثناء ذهابه للحمام، مسدس صوت تم تعديل ماسورته ليبدو حقيقيًا، لقطه منه ناجح ثم مال عليه وقال له في أذنه:

أريد واحدًا مثل هذا، وأريد ماسورة أفضل.

غلطة الشاطر بألف، بل غلطة المزور بألف، عرف أن ناجح كشفه، نهضا، سارا معًا بأيد متشابكة.

لا حاجة لناجح أن يسلمه للبوليس أو يفشي سره، فكر في ثانية، ضبط البوصلة وقرر أن يستغله، جعله ينقل له الحشيش داخل سيارته- بالطبع صارت عنده سيارة، وفخمة جدًا- يختمه بالشمع الأحمر، يضعه بجانبه كأنه مضبوط في قضية، مكتوب عليه بالطبع رقم القضية، ولا تضحك حين تعرف أن الختم على الحشيش باسمه أيضًا.

يمر من الكمائن مثل سهم يعرف رقبة غريمه، يبدو كضابط حقيقي، بل ربما أفضل منه، في البداية يصلب ظهره ويشد عنقه،

يتحدث بألفاظ جادة تناسب طبيعته الجديدة، يلاعب زملاءه في الكمائن، يروي نكتة، أحيانًا يهبط ليشرب شايًا معهم، أو يتقاسم طبق بسبوسة أحضره خصيصًا.

لا ترمش له عين، يقولون عنه قلبه قاعد، لا ينتفض أبدًا مهما كثرت الكمائن، لا ذرة ادرينالين واحدة في جسمه كأنه جسم لا يعرف من الهرمونات سوى هرمون النرجسية، الرغبة، ولا تنس هرمون الأناقة.

لكن المجرم الأبدي الذي لا يسقط لا يوجد إلا في دولة المافيا، أو في مسلسلات التليفزيون، الحجر الداير لا بد من حكه مهما أفلت من قلب الرحى.

لم يعرف متى يتوقف.

لم يفكر أساسًا، منتش كفهد في سباق للماراثون، قد يتوقف المجرم بعد أن شبع أو تعب، أو أدركه بعض العقل فتحسب للعواقب، لكن النخاع المشحون بهرمون العظمة والسلطة صعب أن يتوقف ويتحرر من نشوته، صعب أن يرى موضع قدمه، أن يتذكر أن له قدمين من الأساس، صعب أن يحال على المعاش ويأخذ سلطته معه.

شاهد أحد اللواءات بالمعاش لم يستطع أن يحجز مكانًا في أحد المطاعم، وهو يقول بعصبية للفتاة التي تحجز الطاولات وتكلمه بغير اكتراث:

«هو لازم أقولك إن أنا لواء».

كل الأمراض تشفى، وتقل الهرمونات مع العمر إلا هرمون السلطة والعظمة وانتفاخ الذات.

صيته لعلع في المنطقة كلها، في لحظة سهو قام بتزوير عقد ملكية أرض، أنشأ جمعية إسكان، وشرع في إقامة العمارات نصب على أقارب ضباط فوقع في الهوة رغم براعة المماطلة، أفلتت منه ولم يستطع أن يداوها.

اصطادوه، السلطة تعاقب بالسلطة، وتصطادها.

حين فتشوا غرفته التي يختبئ فيها أعلى سطوح العمارات القديمة الفخمة في جاردن سيتي والتي تجاور حجرات الغسيل وغيرها، وجدوا ملابس ضباط معلقة على الحائط برتب مختلفة، إشارات وعلامات، هواتف قديمة، طبنجات صوت، أحذية ميري، شهادات تقدير على الحيطان، صور عديدة مع وزراء متعاقبين وهو يتسلم نوط الجدارة الأول، هواتف لا حصر لها ولا عدد، سقف الغرفة كسماء زرقاء مرصعة بالنجوم كأنه يهاتف العالم وما وراء العالم، جهاز كمبيوتر يسجل فيه مذكراته وغزواته، وسرير بالكاد يتسع لامرأة سمراء بجانبه.

كل ماركات الساعات وربطات العنق، وطرب حشيش مكتوب عليها: ريّح نفسك، دلع نفسك، بل إن هناك حشيش مكتوب عليه: حشيش ناجح، حشيش هوجان.

لم يعترف إلا بشيء واحد.

لم يعترف بالتزوير، لم يتقدم ضده أحد، كل من حصل على شهادة الدكتوراة وقف فوقها وحيَّاه، كل من حصل على وظيفة دعا الله أن يفك زنقته ويخرجه من ورطته، كل من حج أو اعتمر قال إنه واسطة من السماء، الغارمون دعوا الله أن يفك كربته كما فك كربهم، والمساجين قالوا إنه البطل.

واحد قال بأعلى صوته: الوظائف كانت تذهب لأولاد الناس والمحاسيب، جعل رأسنا برأسهم.

زوَّج من زوَّج، فتح البيوت، وجعل نسل الجرابيع في كل مكان.

أكل من أكل على يديه حتى لو كان هو يأكل.

لم يعترف إلا بشيء واحد، أنه ضابط وبرتبة عقيد، وإذا كانت ترقيتهم تتم بالأقدمية فترقيته تتم بالتقادم.

ثم إن اليتامى سيبكون عليه.

اعترف بالتفاصيل على مضض، قل لم يعترف.

أقسم لك أن هذا ما حدث، وسؤال واحد يكاد يجنن ضابط المباحث «فجنون»: هل كان ناجح يعرف؟ وإذا كان يعرف فلماذا لم يخبرني؟ هل كان يستمتع باللعبة، لماذا عرف السر وأخفاه؟ وماهي مساحة التواطؤ بين الاثنين؟

الحقيقة أن البيه المزيف عندما أرسل في طلب ناجح، وافاه بعد أسبوع، لم يذهب فورًا ولم يمتنع كلية، وإذ ذهب في النهاية كأنه يقول له: أعرفك لكن أنا الكبير، يمكن أن تأكل عيشًا ولحمًا وقشدة بجوارنا.. وسرك عندنا.

الحقيقة إن كانت هناك حقيقة أن ناجحَ لم يستطع أن يركب ضابطًا حقيقيًا فراق له أن يركب ضابطًا مزيفًا.

الحقيقة أن ناجحَ وجد أن هناك من يزاحمه على القمة، يفعل كل شيء، يعرف ما على وجه القفص لكنه لا يعرف ما في القاع، يعرف الشارع الكبير لكنه لا يعرف الأزقة والزخانيق الصغيرة، لا يعرف الحشيش الأصلي من المضروب، لكن الأهم أنه يوصله إلى بر الأمان.

لعب معه لعبة أن يخفيه عن الجميع، بالاتفاق، لكنه في الواقع كان يحمي بيضة النعامة التي ساقها إليه القدر.

دفعه إلى الصف الخلفي في دنيا الليل، وترك له السمعة والصيت في النهار، والكبرياء التي تبجح بها أمامه ولم يتنازل عنها.

نقل له المزيف المخدرات، لكنه لم ينقل له الكبرياء، احتفظ به على وجهه وملابسه وحركات أصابعه، خاصة إصبع السبابة، وطبقة صوته.

حين طلب منه ناجح إيصال معلومة التفت إليه بنفس الرقبة المعوجة وقال له بالحرف الواحد وبصوت حاد:

«هو أنت فاكرني مرشد».

قلت لك من قبل إذا كنت لا تعرف ناجحَ فأنت معذور.

حين سقط المزيف بين يدي البوليس سقط من ذاكرته فورًا، كأنه كان هبة ريح واختفت، لم يزره مرة، مد يده داخل مخه تصفح الصفحات ثم انتزع صفحته، أحرق بنفسه الكارت الذي صار مكشوفًا.

صحيح أن ناجح هو من مد له الحبل وتقاسم معه الغنائم، لكنه عند نزول الجملة الأخيرة، جملة النهاية، أغلق التليفزيون، نسي الفيلم ونام ولم يفتحه بعد ذلك أبدًا.

قلت لك من قبل إن ناجح نذل عند اللزوم.

ربما يكون هذا ما أوجع البيه المزيف وأوغر صدره، وربما يكون قد شارك في قتل نجله، لكنه سرعان ما طرد الفكرة، كانا سمنًا على عسل، والنصاب لا يقتل إلا في حالات نادرة جدًا، بل تبدو

مستحيلة، غايته أن ينفد بروحه هو، ثم أنه لم يتب بعد، لا أحد يتوب من السلطة، ولو كان قد أعلن توبته لما جاء للعزاء كأنه مندوب من رئاسة الجمهورية.

لا أحد يتشفى في نجل كبير المرشدين والمسجلين معًا، ولا يجرؤ.

ربما كان المزيَّف على يقين وسط نرجسيته أن ناجح هو من أبلغ عنه، أو دلَ عليه ليغسل يديه منه، ربما ظن أن أطماعهما تقاطعت في لحظة، أحس كل واحد أن الثاني سيأخذ الكرسي.

أرض المسجلين والمرشدين ليست مُسطحة تستوعب قادة عديدين، إنها هرم بسلالم مسنونة، من يصل إليها يجد قمتها مدببة تتسع لمؤخرة واحدة تؤلم كثيرًا لكنها عالية، وعالية جدًا.

يمسح «ناجح» الفكرة تمامًا من رأسه، ما يتذكره الآن هي الفجوة التي حدثت بينه وبين صديقه ضابط المباحث، فجنون باشا، فجوة صارت جفوة واستمرت سنة كاملة، فجوة صنعت شرخًا كبيرًا بينهما، تيقن أنه خدعه، باعه بيعة الكلاب في سوق الخميس، بقيت آثار الدمل طويلًا، لكن مع الأيام اندمل الجرح وربما طاب.

لعل هذه الواقعة قد تجعله يحجم عن تعزيته.

كل ما يتذكره ناجح الآن ما قاله الضابط لعبقرينو: لا تسألني كيف فعلها ابن الهرمة، لو كانت عندي قبعة لرفعتها له عاليًا، مرات ومرات.

أنا ضابط مباحث لو كان عندي كاب لرفعته للمزيَّف، وأبقيت رأسي عارية، وهي في عرف البوليس مخالفة وعيب، مزور فاجر ولعيب انتحل شخصية ضابط وبرع فيها أكثر من الضباط.

ناجح يمسح وجهه بيده، وخنوفه يتقدم ليعطيه منديلًا، يتذكر لقطة لم تُمْح يومًا من ذاكرته، حين اقترب ضابط حقيقي من الضابط المزيَّف، ربت على خده وبضحكة هازئة:

ما الذي رماك على المر، على المرار الطافح؟ أخيرًا وقعت يا سعادة الباشا الكبير، يا مزيَّف.

والأخير برقبة مضطجعة للخلف، بوجه صارم ونبرة حادة مستمرة في غيها:

أنت المزيف يا سعادة الباشا.

١٥

نقر خفيف على شباك السيارة، ما إن تلتفت حتى تسمع نقرًا ثقيلًا من الناحية الأخرى، لا تعرف إلى أين تدير رأسك، تتعجب من أين يأتي كل هذا العدد من أطفال الشوارع المتسولين، وكل علب المناديل التي يحملونها، التي تكفي لتجفيف دموع نصف سكان العالم، وربما تكفي لمسح عرق النصف الآخر، في الأخير هذا دليل على أن مصانعنا تعمل بكفاءة جيدة.

يضحك، يسمع صوت ضحكته، كانت صاحبته المغنية الراقصة التي عاش معها زمنًا تقول: كان من المستحيل أن يظهر فريد الأطرش إلا وسط شعب مثلنا: الغريب يا أخي أن ألحانه لنفسه حزينة وألحانه للآخرين مفرحة، لو عاش في عصر المناديل الورقية لوضعت المصانع صورته على العلب، نحن أسطوات وملوك النكد والشجن في الأغاني، نصفها هجر وعذاب، ونصفها وعود كاذبة، والذين كتبوا أغاني البهجة لم يصعدوا للأعلى، ليس هنا مكانهم.

كانت تحكي دائمًا عن منظر الست منيرة المهدية وهي تكاد تمزق المنديل وتضحك، تضحك بصوت عالٍ وتقول: «اللهم اجعله خير».

نقر مزعج على الشبابيك، لا تفتح، لا تنظر، أول نظرة منك سوف تنشّط غدة الطمع عندهم، لا تعط واحدًا جنيهًا وإلا أمسك

بك الآخر، أو الأخرى بالذات بك كالقرادة ولَحوَّطوك بكماشة، سوف تحلّفك بأمك وأبيك والبنت التي تحبها، سوف تنجب صبيانًا وبناتٍ بأسماء لا تعرفها في اللحظة ذاتها، ولن تنضب حيلهم.

حين نضبت الحيل القديمة، تم اختراع واحدة جديدة، يقف طفل أمام زجاج سيارتك، بمحاذاة وجهك تمامًا، يرفع يده أمام فمه، يحركها باستمرار، يطلب منك فقط أن ترخي الزجاج، وحين تفعل أو لا تستجيب، يقول لك: جوعان، أريد أن آكل.

تكاد تفرغ معدتك وتكره الوجبة التي أكلتها.

نفعت الحيلة لشهور، وصار للمناديل دور مهم تمسح بها دموعك، وتبحث عن شيء آخر يمسح دموع قلبك، لكن اللعبة انكشفت بعد أن أفرغت جيوب الناس وأمعاءهم، ولأن صاحبتك بنت كار أو بنت سوق كما يقولون راحت تضع في السيارة عبوات البسكويت، تمنح من يلعب هذه اللعبة واحدة، كانوا يأخذونها على مضض وأحيانًا يترددون في مد مخالبهم، في عيونهم نظرة مشحونة بالألم.

حبيبتك الهشة كانت تبكي لأجلهم، تسقط دموعها في حجرك، فتفكر أن ترميها خارج السيارة، ويكون يومًا أسود عليك.

انكشفت اللعبة التي جرجرت القلوب على سطح إسفلت قاسٍ، لكن جراب الحاوي ملآن لا ينضب.

الطريق مازالت طويلة، وهاتف عبقرينو الملعون مازال مغلقًا، وناجح في قلب مأساته لا ينتظر منك هاتفًا.

يفكر أن يطلبه حتى لو كان خنوفه هو من سيرد، حتى لو لم يفهم نصف كلامه، على الأقل سيعرف ناجح أنه قادم في الطريق:

لعل مكالمتي تبرد قلبه قليلًا، أو على الأقل تشغله ولو لخمس دقائق عن التفكير في مصيبته، سيعرف أنك لن تتركه في مصابه حتى ولو كان هو السبب في مصابك بخروجك على المعاش بسبب علاقتك به، أنت تخلصت من هذه الحكاية، ربما كان ضروريًا أن يأتي الحل من الخارج لتفلت من كماشة هذه الوظيفة، لولا ذلك لظلت قدمك مغروسة.

لكن هو لا يعرف ذلك، ولن يصدقه إن عرف، لم تستطع أن تقول له إنك فنان وإلا باعك لكل المسجلين، الخطرون لا يحترمون إلا الخطرين، لا يعترفون بغير أنفسهم وبغير الضباط، لعبة الثنائيات، كل شيء في البلد ثنائيات عدا مقعد واحد.

الأهلي والزمالك، عبد الحليم وفريد الأطرش، عمرو كباب وتامر حسني مبارك، الضباط والمسجلون خطرًا.

يخلق الناس الصراع ليعيشوا فيه، يعيشون به، وناجح لا يتخيلك أبدًا في صراع بين المباحث واللوحة وإلا كان قد هرسك تحت قدميه.

لو كانت هناك خصومة بينكما لربما انقضت، يحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، يحتاجك أمام حكم القدر، القدر الذي اختار ابنه بلا سبب معروف حتى الآن.

يقتله بالقطع غياب السبب، مع أن معرفته لن تعيد الغائب، لكن على الأقل ستجعل رأسه تنام بعيدًا عن فكرة الثأر ووطأته، وطأة الثأر أثقل من الثأر نفسه، يظل أهل القتيل يرقدون بعيون مفتوحة حتى إذا عرفوا قاتلهم أغمضوها.

يهرش أنفه: كان يجب أن يكون عبقرينو معي في هذا المشوار الثقيل، ربما يتبرع بحيلة من حيله، وربما أشار عليَّ بعدم الذهاب.

لا بد أن ناجحَ جالس الآن في مقعده لا يجد كلمة واحدة للرد على أحد، يغطيه دخان الحشيش، يغطيه دخان حريق قلبه، لا يرى أبعد من أنفه، وربما ينتظرك وحدك دون عبقرينو.

يضحك ثانية، يسمع صوت ضحكته، من اللعبة الخفية التي كانت بين الاثنين، أقل جملة تقال إنهما كانا ضرتين، رغم أن المسافة بيني وبين ناجح تختلف عن التي بيني وبين عبقرينو.

ناجح يعمل لصالحي لكن لصالح نفسه أولًا، وعبقرينو يعمل لصالح نفسه أولًا ثم لصالحي، الأول يغنم نقودًا وسمعة وتقربًا من الحكومة ويُبقي رأسه بعيدة عن أية مقصلة، والثاني يغنم حلمه الذي يتحقق كل يوم بين يديه، لا يريد سمعة ولا نقودًا.

في لوحة مفاتيح البيانو نوعان من المفاتيح، لكنها تعطي ما لا نهاية له من النغمات.

اللعبة بينهما كانت حامية، ناجح يأتي بالمعلومة ويدلك على مكان الفريسة من بعيد، يقف ليتفرج على حصاد يديه، أما الثاني فيأتي لك بالمكان ويقفز قبلك فوق الفريسة.

كل واحد وتعليمه، وهدفه الذي وضعه لنفسه، ناجح يمدك بمعلومة عن مكان الجثث لكن عبقرينو لا يتركك دون أن يكفنها معك.

عبقرينو ولا فخر هو أول من اخترع «البرايفت» في التليفون، الاتصال الخاص الذي لا يُظهر رقم الطالب، جعلك أول من يستخدمه في الوزارة كلها، كي لا يعرف رقمك من تطلبه.

حين يعجز ناجح، يتقاعس أو يتصرف بلؤم حول مكان مجرم، يتدخل عبقرينو «بالبرايفت» يحدد المكان بالضبط، بل يقدم لك

مكانه في الأيام الأخيرة المكالمات التي أجراها، مدة كل مكالمة، من أي شارع ومن أي بيت أو خرابة، متى ومع من، لتقبض على حرامي ابن لبؤة اختفى وأغلق هاتفه.

كان لا بد من تفصيله أخرى لتكتمل اللعبة، تفصيله من اختراع عبقرينو ومباركتي لا يعلم عنها ناجح شيئا، يطلب المجرمين عبر «البرايفت»:

مبروك، كسبت معنا، رقمك ربح عشرة آلاف جنيه، توجه إلى أقرب فرع لك لتتسلم نقودك في الفترة من الساعة الواحدة حتى الساعة الثالثة، لا تتأخر دقيقة واحدة وإلا ضاعت عليك.

عبقرينو يفتش في هاتف كل مجرم، يرى ماذا يحب، ماذا يستعمل، ثم يضرب من نقطة عشقه.

وفي الوقت المحدد نكمن له داخل الفرع، يسلمونه النقود ثم نستلمه نحن.

مبروك، رحلة عمرة، أنت والمدام.

.. أنا غير متزوج.

نقول له، كأننا لا نعرف أنه نصاب ابن وسخة يقتات على فلوس النسوان:

في هذه الحالة يحق لك الأب والأم فقط، نحن نراعي حالة كبار السن.

نلعب معه على غدة الطمع، نأخذ منه العنوان الموجود به، أو نقول: اِذهب للفرع في شارع قريب، ثم نطب عليه كالقضاء المستعجل بعصا موسى.

هل تسلمت الأشياء التي أرسلناها أمس؟ هل وصلت أم لا؟

يتفحص تاريخ النفوس وحالها، يفلي المكالمات، يعرف منها قسط التعليم الذي حظي به المجرم، يتكلم بالإنكليزية حين يعرف أن مجرمًا يستعملها في مكالماته:

تم خصم مبلغ منك، سنحوله لك مرة أخرى، وجدنا المكالمة تم حسابها كمكالمة دولية.

نخصم الرصيد منه ثم نعيده إليه فيعود إلينا.

الطمع والنسوان، هما من يجذبان المجرم، يجب أن نلعب عليهما، ولا ينقص تأثيرهما على أي مجرم كان إلا في حالات نادرة.

ربحت معنا ما لم يربحه أحد، شال فلسطيني مطرز، قطعة واحدة معمولة باليد، غير موجود في مصر أساسًا.

نجري في سباق مع الزمن:

يا باشا، الولد عبر الحدود، وأكيد راح غزة، سرق السيارة وطار بها، سيبيعها ويعود بدونها.

لا يرضى عبقرينو أن يضيع جسم الجريمة مهما كان، لا يستطيع أن ينام قبل أن نقبض على كل أثر يودي بالجناة إلى السجن.

لا يَعدَم الوسائل، يبتدعها.

وناجح يضرب كفًا بكَف متعجبًا.

هو لا يستدرج أحدًا في الغالب، لا يسلمك أحدًا تسليم مفتاح، لا يريد ثأرًا ولا خسارة ثمينة، يمنحك المعلومة ويجلس بعيدًا ينتظر النتيجة، لا يريد أن يصبغ يديه بأي دهان، يسلمك التفاصيل، ولا

يعنيه أن يموت المجرم أم لا، المهم أنه لن يسلمك أحدًا بيديه إلا في الحالات التي قد تشين سمعته.

. عبقرينو يذهب معك ليسلمك المفتاح والشقة والأثاث والجثة بنفسه، كي يزهو أولًا بنفسه ويعود لينام هانئًا وسعيدًا.

لكل منهما حزبه الخاص.

ناجح يجلس في خلفية القهوة، أحيانًا في شقته التي تعلوها، معه رفقاء السلاح، شلة الأنس، يجلس كواحد منهم، كبير لهم لكنه يتباسط، يضربون حجارة الحشيش حتى مئة حجر، أسس ـ دون أن يقصد ـ حزبًا أطلق عليه» حزب الانبساط»، شعاره الجوزة، شعار مطبوع على حوائط المقهى وعلى جدران وقلوب أعضائه، قلبهم على بعضهم البعض مهما اختلفوا، يحكمهم قانون اسمه قانون ناجح، قانون غير مكتوب، محفوظ في الصدور.

حزب شعاره الحقيقي أطباق البسبوسة بالقشدة، أحيانًا بالحلاوة الطحينية، لا يطيب لهم التحشيش دونها، الحلو مع الحشيش، يطلق المخيلة ويجعل الدنيا كلها تهيص.

بعد أول عشرة أحجار يترنم أحدهم:

الحمد لله الذي جعل الحشيش لنا خير قوت، وجعل النار من حوله كالزمرد والياقوت، ويرد آخر: عن أبي موتسيان الذي داخت المباحث خلفه: اللهم ارزق الحشاشين والحشاشات، الأحياء منهم والأموات، المسجونين منهم والمسجونات، وامنع عنهم رجال المباحث والشبهات، وارزقهم بجوزة لطيفة وقعدة خفيفة، إنك سميع مجيب الدعوات، ثم يطلع بصوت جهوري: إخوتي الحشاشين، أقيموا الحشيش.

عبقرينو له حزبه الخاص جدًا، هو الرئيس والأعضاء، لا يريد مولدًا ولا يحزنون، يكافئ نفسه بنفسه، يدعو نفسه وصديقته للعشاء والشرب في أفخم مكان، يعود لينام وحده أو معها، طاووسًا من بلاد قورش.

كلاهما طرفا مقص مفتوح، حين ينضمان على بعضهما تُنجز القضية.

المشترك بينهما هو الحلم، تصور، عبقرينو حلم أن يكون ضابطًا، تحقق له وتفوق على نفسه حتى صار عندي أهم من الضباط المعتمدين، هو من يستحق لقب الخبير، أفضل من أي ضابط، سمعته تجاوزت التنكيت عليه أو السخرية منها، بل داستها.

ناجح يحلم باستمرار اللعبة التي ابتكرها وأدمنها، أفضل من يقنع ضابطًا أن لون البحر أزرق، ملك تسوية العبط مع الشيطنة في طنجرة، دوخته الأيام، لطّمته، تعلم كيف يصطاد وهو واقف على الشاطئ، غويط لا تعرف قراره، بحره غامض بقاع بعيد، يمشي دائمًا على أطراف أصابعه ولا تحط قدمه على الأرض إلا عند النوم.

بينهما عداء صامت، ربما ليس عداءً بل غيرة صامتة، ناجح يستغرب من هذا المرشد الذي يراه أكثر التصاقًا بضابطه، من صوته الذي يعلو أحيانًا حين يخطئ أفراد القوة في تفصيله، أو حين يجمع تليفونات الأمناء قسرًا عند الخروج لمأمورية خوفًا من الخيانة، صوته يعلو أكثر حين يتبرم أحد الأمناء من تسليمه هاتفه.

كانوا يطلقون عليه: معاون مباحث الحنجرة، مع أن هذا اللقب يستحقه ضابط لا يفكر ولا يبحث جيدًا، دخل المباحث بالواسطة أو بالصدفة.

لا يعرفون أن عبقرينو هو الحنجرة نفسها التي تتنفس بها عملية القبض على مجرم خطير أو حل قضية أسرفت في غموضها.

ربما يكرهه ناجح لأنه يستطيع أن يأتي بمجرمين لم يستطع هو أن يصل إليهم، حتى وإن دل عليهم أو منحنا بعض خيوط يرى في النهاية أنها مستحيلة، يفتح فمه عن آخره كأنه لم يصدق في خياله:

الولد صعب، لن يقبض عليه سوى عزرائيل.

لذا يمازح عبقرينو أحيانًا من خلف أسنانه:

أهلًا بالفن كله، عزرائيل احتار معك يا عبقرينو باشا.

عبقرينو لا يكرهه، يعرف أهميته، لكنه يكره الدور المداهن الذي يلعبه، يسميه ناجح الزئبق، لا يصدق أنه تاب، يتخيل دائمًا أنه يخفي خيوطًا كي لا تنهدم مملكته، لكنه حافظ على الخيط الرفيع معه، اعتبره مرشده هو، وهذا ما كان يغيظ ناجح منه وإن أمسك غيظه.

كنت أتفرج على اللعبة، لكنني أتدخل في الوقت المناسب.

أفكر دائمًا أن أرسم لهما مركبًا يقوده كل واحد في غير اتجاه، لتغرق قبل أن تبدأ رحلتها، أن أرسم لهما الريح وهي تعبث بالشراع، وهي تكاد تمزقه، كنت أتراجع، أحاول مداواة الغيرة الصامتة بطبق من البسبوسة دون دخان، وأرى دخانهما يصّاعد في الهواء.

يحجب ناجح معلومة أو يستهزئ بها، لكن عبقرينو يبحث عن الشيطان خلفها.

تتذكر الآن آيات.

آيات تزوجت شيطانًا، كان لاعبًا نشطًا في دنيا النشل، ملقاطًا كبيرًا، عندما وقعت أسنانه وأصابته طلقة عرج بواحدة وارتخت يداه، حاول أن يجد مكانًا في تشكيلة المخدرات لكنه وجد نفسه صبيًا بعد أن كان معلمًا، وجد نفسه يلعب لصالح غيره، تصالح مع مواهبه وقدره وذهب إلى عمل من لا عمل له، نصّب نفسه مناديًا يقلب عيشه، اختار منطقة على هواه ليكون سيد نفسه.

كان اسمه البرنس في النشل فأصبح الخِسع في المخدرات ثم فتح الله عليه باسم معقول: الحاج محمود المنادي، ولأنه ينذر أن تتوب القحبة كان ينشل زبائنه أحيانًا، يعيد لهم الأوراق الرسمية التي عثر عليها في مكان قريب ليقبض مرتين من الضحية.

لم يهنأ طويلًا باللعبة الجديدة ولا أن يلقن ابنه مفاتيح الصنعة، عاجله الموت بعدما حرق قلوب الكثيرين وخرق جيوبهم، نشل وحده ولم يعط المعلمين الكبار شيئًا، مات قبل أن يكتشف أن آيات كانت تلعب في ظهره ومن أراد الثأر منه ثأر بها.

كما تنشِل تُنشل.

خافت آيات، أرادت أن تمسح الماضي كله وتلعب على نظيف، تركت المكان وحطت في مدينة السلام، قد تجد ما تحلم به من سلام، معها صبيها الذي تعامل معه أقرانه على أنه غريب، والغريب في هذا الوكر فريسة حتى يثبت العكس، كانوا كعادتهم قساة، صبي طري الجسم طري الروح لا يفهم ألاعيبهم رغم أنه تربى في بيت عتيد، فأفرغوا فيه ذكورتهم، أطلقوا عليه اسم زقلط في البداية ثم سوسن بعد أن اعتلوه، فاستجاب لهم، ربما رضخ، لا حائط يحميه ولا عصا ولا لسانًا.

ابن العوَّام غالبًا عوَّام، لكن الريح جاءت من الجنوب، وهو تعلَّم، بعد أن كان يُختَار صار يَختار، بعد أن كان يُغتَصب.. صار يُغتَصب وينتقي قاتله.

العِرق يمد لسابع جد، رأت آيات أمها وهي تلعب خارج الصندوق كثيرًا، آيات بسمار خفيف يمرح على وجهها، عليها كلها، جسد شُدت عليه أحبال متينة ملتوية فلوتها جيدًا، وطبخت كل نتوءاتها في اتجاهات متعاكسة، الأعلى يفر إلى الأعلى، والأسفل يفر إلى الأعلى والخلف معًا، سن ضاحكة ولسان يسحب السمك من قاع البحر وهي على الشاطئ، وحيدة غريبة مع ابنها في منطقة غريبة، كانت نيتها أن تجد واحدًا نصف كم، تصير معه زوجة ثانية ولو بعقد عرفي، ملامحها ومشيتها تدلان على عشيقة، والجميع دائمًا ينتظرون فريسة، أفرغوا فيها أحلامهم وكبتهم، قد تتوجع مع ابنها في ليلة واحدة، وقد يتسامران ويهرشان.

للأمانة قيل إنها شهية وسخية، لكنها في منطقة لا تقدر المتعة بالمتعة، تطفف الميزان، تنشل ولا تعترف، تسرق ولا تشكر، تكشف سواءتها ولا تخجل أن تدهن الحوائط بمَنيّ الحكايات، كل من أعجبته وأعطته ضرب موسيًا في جبهتها أو خدها الأسمر الخفيف الناعم، كل من أعجبه جُرْحها.. جَرَحَها.

سمارها كان يطوي الجروح، شكرته كثيرًا، لو كانت بيضاء لما صمد، حين يستمتع وافد جديد وقبل أن يقوم من مقامها قومته الأخيرة يضع بصمته، يضرب بشلة في وجهها، بجرح يتسع أو يصغر حسب درجه استمتاعه، أو وجعه، يعرف أنه لن يكون الأخير ويكره أن يتركها لغيره، ولن يستطيع أن يستمر حتى إن أراد، تطعنه

سمعتها كما تطعنه نداءاتُها، لا يستطيع أن يخرج دون أن يترك أثرًا يدل على أنه مر من هنا.

وجهها تحت وطأة البصمات صار وجهًا آخر، طريقًا غير معبد مملوءًا بالحفر، الذي هواها وأطال عندها وبكى قبل أن يتركها حفر لها شارعًا في غرتها، في أعلى مكان كي لا يطاله أحد.

وجه بجروح بل جروح بوجه، عين تكاد ترتفع لأعلى والأخرى بطرف يميل لأسفل.

حين رسمت لها لوحة كانت الأمواس والسكاكين تملؤها، بارزة من الحفر، وعيون جائعة شريرة تختبئ خلفها، أنفها الذي نجا من الأمواس واقع في أسفل اللوحة.

فكَّرتْ أن تعتزل دون مباراة وداع، يكفيها أن تنظر في المرآة لتعرف عدد المباريات التي لعبتها، أشك أنها تتذكر عدد الأهداف التي تلقتها شباكها.

مع الأيام لم تعد مطمعًا لأحد، كانت تجلس على باب دارها ويجري وراءها من يجري، الآن تجري ناحية المستشفى التي لم تقربها من قبل رغم جروحها، تجري خلف ابنها الذي أصيب بجرح قطعي في جبهته بدلًا منها، وبجرح نافذ في بطنه وآخر في مؤخرته المجروحة على الدوام.

قال ناجح: امرأة وسخة وابنها أوسخ منها، تشاجرا مع أي عابر على حكاية تافهة، لا يستحقان البحث خلفهما، هذه حكاية تحدث كل يوم.

وانصرف.

صرنهما ضابط أرعن لا يملك غير حنجرته، لا يريد أن يوجع رأسه بعمل محضر، قال: ناس وسخة.

هو من يستحق لقب معاون مباحث الحنجرة.

قال عبقرينو: هناك جرح نافذ، هناك شياطين لا شيطانًا واحدًا في الحكاية.

في البداية لم أكن مكترثًا، لم تكن هناك شواهد على أي شيء سوى ارتباكهما في حكايتهما:

خناقة مع بائع سكاكين، ضربه من ضربه وطار.

خناقة مع بائع أنابيب غاز، غزه وطار.

لم يذهب عبقرينو عند باعة السكاكين ولم يبحث عن بائع غاز.

ناقش الصبي، حاصره وعصره، استخدم معه نظرية الشبورة، بخَّ فيه حتى أعمى عينيه وأوقف عقله ثم تركه يخر الحكاية وحده، بعدها أشار عليّ بسرعة التحرك؟

ذهبت معه على مضض إلى دارهما، لم نجد شيئًا سوى قتيل لم تبرد دماؤه بعد، استدرجه الصبي لينام معه لكن الصيد راق للمرأة، أول واحد تختاره من سنين.

أي قتيل هذا الذي يغير مبادئه في لحظة!

في الغرفة الداخلية وقع الخلاف بين الأم وابنها، اشترطت أن تنام معه أولًا.

.. أنا الذي اصطدته.

أمك شرقانه، لم تبل مرتبتها من زمان.

.. لو نام معك ستقطَعين نفسه، ولن يكون فيه حيل بعد ذلك ليركب دجاجة.

دعه لي، لا أحد يطلبني من زمان، سأعوضك عنه في مرة قادمة.

.. اتركيه لي، أنا الذي اخترته وأوقعت به واستجاب.

وارتفع صوتهما، طار الصراخ وتعاركا بالأيدي.

ولأن القتيل طيب فقد حاول أن يفصل بينهما، وبدأ الفصال: مع مَن ينام أولًا؟

لاحظ الصبي أن عين طريدته لا تنظر إليه، تميل بحرقة إلى أمه، أوجعته مؤخرته وربما أوجعته نخوته لأول مرة، ضرب القتيل، ضربه القتيل، واحتدمت المعركة بين الثلاثة وعلا صوت الشماتة.

لم يجد القتيل سوى سكين حاول أن يخيف بها الصبي، ولأن الحديد يستطيل من تلقاء نفسه في قلب المعارك، مستجيبًا لحدة الصراخ انغرز في مؤخرة الصبي الذي جاءته فرصته ليدافع عن شرفه، عن فرصته التي رتبها بنفسه لنفسه ورآها تضيع أمام عينيه، أكلته الدودة التي زرعها الصبية فيه فظل يضربه بمفتاح انبوبة الغاز حتى هوى.

.. «أنا طلعت راجل يامه، أنا طلعت راجل».

تركاه في دمه وانطلقا للمستشفى.

.. أنا طلعت راجل يامه.

ناجح مغتاظ يخفي خيبته، على وجهه النظرة ذاتها التي تستقر على وجه مخدوع:

عالم تلعب الدودة في أساسهم من لحظة ولادتهم.

وعبقرينو طار كعادته، لا بد أنه في بار بعيد بإضاءة خافتة يحتفل مع صديقته، ويشرب بعمق كأنه يشرب البحر.

١٦

«ستُقتَل يا ناجح، ستُقتَل»، يسمعها «ناجح» كأن أحدهم يهمس بها بداخله.

إذا كنت تعتقد أن الموت قادر على إيقاف الحياة فأنت واهم، الموت غدار بلا قلب، يلسع ويختفي، ينشل الحياة، يسرق السر ويهرب مذعورًا، إنه مثل مسجل خطر بلا قلب، لا يكتفي بغنيمة، يضع سكينًا في ظهرها حتى يكتم صراخها.

الذين يمنعون الضحايا من الصراخ هم المجرمون الحقيقيون، والذين يستمتعون بصراخهم هم أحقر المجرمين.

وناجح جالس في قلب السرادق، لم يصرخ مرة واحدة في حياته إلا لحظة ولادته، لم يصرخ إلا تهليلًا أو استغرابًا من عَمْلة قام بها واحد من صبيانه، لم تخطر على باله ولا جاءت في خياله، يتمنى الآن لو يستطيع أن يصرخ صرخة كبيرة تصل لآخر حياته.

زاغ من الموت ألف مرة، حياته كلها مشرعة على الموت، يعيش ويمشي فوق أرض رجراجة لا تستقر.

أتى كل من أتى، إلا واحدًا ينتظره هو بالتحديد، يلمح خيالات تمرق من باب السرادق، يكاد يشم رائحتها، ينتفض من مقعده بوجه ممصوص أكلته صفرة الغياب، فيرمي الجمع ما بأيديهم ويتطلعون في اتجاه بصره، شباب بملابس السجن يندفعون من الباب، يمشون

خلف بعضهم البعض كأنهم جاءوا بمشيتهم من السجن، قطعوا السرادق برؤوس ثابتة، لم يتلفتوا، ولا هزوا رموشهم، يتقدمون في اتجاهه، عندما علموا بوفاة البطل هوجان أخذوا على عاتقهم وهربوا، لا يمكن أن يتركوا معلمهم في يوم كهذا.

حطوا أمامه، حاوطوه، قبلوا رأسه واحتضنوه، لفُّوه وسطهم كأنه ابنهم، تشابكت أيديهم من خلفه ومن أمامه، ثم تفرقوا إلى مقاعدهم، كل واحد إلى غيته، ذهب من ذهب لقسم البيرة، أو إلى ركن أبو صليبه وحضّر كفنك، توجه أكثرهم إلى ركن الحشيش وستأتيه الجوزة بمنافعها أينما حل.

لم يسألهم أحد كيف استطاعوا الهرب، ولا فكر أحد، عملية عادية، طبيعية، ربما كانوا في المحكمة لتجديد حبسهم، قفزوا من سيارة الترحيلات عند أي منعطف، ربما خدروا حارسهم أو قيدوه وأجبروا السائق على توصيلهم للسرادق وهذا هو الأرجح.

المهم أنهم جاءوا، وكما حضروا فرح هوجان لا بد أن يحضروا عزاءه تحت أي ظرف وفي أي وقت.

أشار ناجح لخنوفه إشارة فهم منها أن هؤلاء ليسوا في حاجة للمزاج الآن، بل في حاجة للطعام، ومن يريد أن يغيّر ملابسه فلتوفِّر له ملابس أخرى.

ستُقتل يا ناجح.

يتذكر الآن عبارة صديقه الضابط الذي نصحه أن يصفي حساباته ويعتمر، أن يعتزل في الوقت المناسب: اللاعب الذكي يختار وقت الاعتزال، ولا يوجد شيء نهائي سوى الموت.

الموت الذي لم يسرق منه ضناه، بل سرق حلمه.

ينظر لأعلى، يرى هوجان يهبط عليه من سقف السرادق في حضنه.

هوجان الذي بانت عليه أمارات الزعامة باكرًا، مع نزق كثير لا يناسب طريقة ناجح في إدارة مملكته، ناجح يضرب كفًا على القفا ويضع قطعة حلوى في اليد، يضرب ويلاقي، وواحد مندفع جريء، لكنه أرعن لا يمسك في يده خيطًا ولا يعرف خط النهاية.

الولد الواعي الذي يقدس أباه شعر أن الحلة لن تحتمل ديكين روميين كبيرين، لذا اختار منطقة أخرى، ذهب إلى قلعة الكبش، افتتح مقهى كما هي عادة الكبار لتصبح مقرًا للعمليات، أسماه البيت الأبيض، ورغم أن الاسم جميل وكبير إلا أن ناجح رفض:

«هيقولوا عليك بتبيع بودرة».

اقترح أن يكون اسمها على اسم مقهاه، وأضاف من عنده: مقهى السعادة- فرع قلعة الكبش، وربما تصبح سلسلة من بعد، مقهى في كل منطقة بالاسم نفسه.

في فترة قصيرة استطاع تكوين فريق جديد من أشبال المسجلين، تاركًا اللاعبين الكبار لأبيه، وجوه جديدة ودم جديد مع كوتش جديد ممتاز.

ولأنه كان معجبًا بمباريات الكرة الحريمي رغم استغرابه لها، قام بتنظيف ذهنه وكون فريقًا آخر من النساء، فريق متخصص في القبض على خصي الرجال، أو الذبح برقبة زجاجة مشطوفه، وتشليح النساء.

وكأنه كان يقرأ المستقبل، يعرف ما تحتاجه المراحل القادمة، مرحلة الانتخابات وألاعيبها.

أغمض هوجان عينًا عن اللصوص وأبقى الأخرى مفتوحة، المرحلة القادمة تحتاج لهذا الفريق القادر على تجريس أي مرشح أو مرشحة وسحقه بكل الوسائل ولو وصل الأمر لتقطيع ملابسه الداخلية.

فريق نسائي مسجل خطر على أحدث طراز، وفريق الرجال لا يتدخل إلا وقت الحاجة.

وغد جديد ينزل إلى الساحة، أخذها ميراثًا وإن اخترع أدوات جديدة، يمكن أن تقول إن المرحلة كلها جديدة وهي من فرضت أدواتها.

جاء وقت الانتخابات، المرشح وزير في الحكومة وإن فاز سيتولى رئاسة البرلمان.

أقام سرادقات مرشحه وحماها برجاله، قبض الفلوس من يده ومن يد مشجعيه، حدد السعر ولم يقبل النقاش كأبيه، وزع ما وزع وأبقى العمولة الكبيرة لنفسه.

أقام سرادقات وهدَّ أخرى، أطفأ نور سرادق المنافس، وقام رجاله بضرب وتهديد من حضروا، لم يعودوا مرة ثانية، طبع الأعلام، اشترى الدفوف، قبض من الكل بنفسه ووزع على الكل عبر وسيط، الزعيم يجب أن يسلم على الجماهير من بعيد، يلوح فقط، بالكاد تلمس أيديهم يده، حول المقهى لغرفة عمليات، وزع الحشيش دون أن يغرم مليمًا، ناس تجامل بالنقود وناس تجامل بالحشيش، لم يسمح للبودرة أن تدخل في حملته ولا حملة تمويل مرشحه: حملة نظيفة لمرشح نظيف، ومدير حملة في ثوب جديد، نقل رغبات الناس ووعد بتنفيذها.

حين رأى المرشح طوله وعرضه عرف أنه سيكسب الانتخابات، وحين سمع طبقة صوته ورأى الحشد الذي جمعه لأجله والحراسة المشددة التي فرضها على المكان عرف أن طريقه مفتوح وآمن.

الفريق النسائي الذي كونه رقص في كل الاحتفالات وأمام كل السرادقات، وزع الشربات وأخاف بعين قارحة كل واحد أو واحدة تفكر أن تصوت للمرشح الآخر.

الرقص في اتجاه واحد بنغمة واحدة على إيقاع واحد ولمرشح واحد أحد.

الوضع الجديد يحتاج شكلًا جديدًا، خلع جلبابه أثناء الحملة ولبس بذلة دون ربطة عنق، بقمصان أنيقة وأكتاف عريضة.

تحوَّل إلى نسخة معدلة من شخصية أبيه، غصبًا عنه، هدأت رعونته واختفت عضلاته تحت زي جديد، راح يمارس دور أبيه، اللعب على الناشف، لا يدخل يده في أية عملية، يدير من بعيد ويقبض حقه ناشفًا وطريًا، الخيوط لم تعد تمتد بين يده والمباحث مثل أبيه، بل بين يده والبرلمان، وبينهما المباحث.

حلمت فنصبت فكبرت فعدلت يا ناجح.

تحقق لناجح ما كان يحلم به لنفسه ولابنه.

إذا كان ناجح رئيسًا لجمهورية المسجلين خطرًا، فهوجان هو المسجل الخطر على الطراز الحديث.

لا يتحدث مع الصغار مثلما تفعل يا «ناجح»، هو يجلس مع الكبار.

أنت آخرك رئيس المباحث وهو آخره رئيس البرلمان نفسه.

لم يشأ أن يجلس في ملعبه مثل أبيه، كون فرقًا من العاطلين،

وضع عينًا في كل وزارة أو اشتراها، يشارك في احتفالات الوزراء، يعرف المواعيد وتحركات الوزير، يصنع اللافتات عنده، يرسل سرية من جيشه إلى موقع الحفل للتشجيع والتأييد، والشيك في النهاية يخرج من الوزارة باسمه.

المخ الناصح يحفر لنفسه كل يوم طريقًا جديدة، لم يعدم الأمر تشجيع فرق كرة القدم، إلا أنه اصطدم بالألتراس الذين تكونوا في الفترة الأخيرة، لكن هؤلاء يشجعون بقلوبهم وهو يشجع بحنجرته فقط.

في لحظة صفاء فكر أن يسجل براءة اختراع الألتراس باسمه في الشهر العقاري، لكنه تراجع واكتفى بأنه أول من اخترعه ومعروف باسمه، مسجل في قلوب العاشقين والحاقدين.

وقع في أول اختبار لسمعته، كُسرت ساق طفله في المدرسة، ودون أن يتحرى السبب ـ ربما أثناء مباراة لكرم القدم، أو قفزًا من على السور كما كان يفعل أجداده، وربما انزلق لسبب أو لآخر ـ دخل إلى المدرسة، طرد المدرسين قبل الناظر، صرف التلاميذ من الفصول الذين حين رأوه راحوا يهتفون: هوجان.. هوجان.

أغلق المدرسة ووضع المفاتيح في المقهى.

كان شرطه الوحيد للمصالحة أن تُكتبَ المدرسة باسمه:

لافتة كبيرة أعلى المدرسة وأخرى عند البوابة بماء الذهب: مدرسة هوجان ناجح.

ربما تصرف برعونة، لكن رأيه أنه لا بد أن تكون قاسيًا في البداية، إنها نظرية الشبورة، تصنع شبورة في المكان من أول لحظة، أن تقسو على معاونيك في البداية ثم تعيش بقية حياتك مرتاحًا.

لأمره [illegible] واتقاء شره، أقيمت حفلة كبيرة لنجله بمناسبة عودته إلى المدرسة، كما حصل على قطعة أرض كبيرة يبني عليها مدرسة لابنه وقت يشاء.

لم يعد يذهب إلى المباحث، هي من تأتي إليه، ينقل من ينقل ويعيد ترتيب الوظائف كيفما يشاء، وتعدت سمعته حدود الوطن حين توسط لتعيين موظف ملحقًا إعلاميًا في إحدى السفارات بالخارج.

سمعته طيبة، وجه شاب يليق بمرحلة تمكين الشباب في الدولة.

علاقته مع ضباط حراسة البرلمان كانت سالكة وغامضة في الوقت نفسه، يلجأ إليهم حين تضيق به السبل عن الحل أو حين يهدد بأنه لن يغرق وحده، لم يبح لأحد بشيء عنها، لكنه كان يردد بدون مناسبة وهو يقرض شفته السفلى: النقود مقابل النفوذ.

يبرم ناجح أصابعه، يفكر كثيرًا في أن هذه العلاقات ربما كانت السبب في مقتله، في غموض مقتله، العلاقات المعقدة تنتج جرائم معقدة لا يمكن طعنها بسهولة.

آه يا ولدي.

يقولها «ناجح» للداخل، مَنْ طعنَه فعلها في ظهره وسط جمهرة، وتبخَّرَ؟

كان الآمر الناهي لمنطقته دون عداوات واضحة، لم يجرؤ أحد أن يقترب من مضاربه ولا لوح.

لا يعرف من قتله، ولا لحساب من! ولو وصل للأخيرة سيحل الموضوع ولو كان نائمًا في جوف حوت.

أحيانًا تأخذه الجلالة، جلس أمام التليفزيون طوال اليوم ينتظر أن تعلن جماعة ما مسئوليتها عن مقتله.

ربما لهذا السبب ينتظر على نار حضور الضابط صديق عمره، الخبير في حل القضايا حتى ولو كان على المعاش، سيدله ويساعده، وقد يحضر معه عبقرينو ليتفقوا جميعًا على خطة يصلون بها للقاتل.

لا يعرف بالضبط إن كانا سيأتيان أم لا، يضع يده على قلبه ليجس النبوءة، ثم يرفعها سريعًا خشية أن يشعر أحد أنه مهزوز أو مهزوم.

يبدو أن مخاوفنا أقدارنا يا ناجح.

ستُقتل يا ناجح.

يسمعها الآن كأنه يسمعها لأول مرة، لم يأخذها أبدًا على محمل الجد، كان يلعب لعبته بجدية، لكنه كان يعرف أنه لن يقتل لأنه يملك القدرة على التراجع في أية لحظة، يبيع في اللحظة الحاسمة.

الذين يبيعون لا يخشون القتل، لا يخشون النهايات المفاجئة، لا يفلتون خيطًا من أيديهم ولو قلت عنهم أنهم أنذال ومنبع النذالة.

النذل لا يتخيل أنه سيقتل أبدًا، النذالة منجاة من النهايات التعيسة.

ستُقتل يا ناجح.

تسمع هذه الجملة كأنها تقال لواحد غيرك، قلبك ليس خفيفًا لهذه الدرجة، ولا يكون قاسيًا إلا حين يقترب الحبل من رقبتك، عدا ذلك كل شيء يمكن تعويضه.

لكن الحجر الذي يدور لا بد من حكه وإن طال الأجل، قانون غير مكتوب، لكنه محفور في النفوس وفي الأدمغة.

تائه في مقعده، لا يعرف هل هو في أول السرادق أم في وسطه، على وجهه حزن عميم، يفرش على فدان.

لو تعرف من قتله ستُرتاح، المصيبة تصغر والمشكلة تكبر، مصيبة موته قد تصغر مع الزمن، لكن مشكلة عدم معرفة قاتله ستكبر، ستتحول إلى ثقب يخرمك ويخنق بقية أيامك.

ستُقتل يا ناجح.

سمعها مرارًا، لكنها جاءت في ابنه.

يستسلم لفكرة أنه قد يموت مقتولًا، أما ابنه فلا.

من قتل ابنه إنما قتله هو.

إذا كنت تريد أن تعرف علاقة ناجح بابنه فلا بد أن تعرف الحشيش، معنى الحشيش لا شكله، متى يخزن وكيف؟ الأغبياء الذين يخزنونه بغشم كبير يتركونه حتى يجف ويصير طوبًا، لا يعرفون أن روحه تضج من المكان الكتيم فتطير، لا يتبقى منه سوى رائحة بسيطة تخدع المشتري، مع أنه لو عاش وخرج للحياة سيطير ويطير، لا يعرفون أنه يفقد زيوته الطيارة، يفقد روحه وصوته بأفعالهم فيصير مثل كتلة حجر جامدة لا تنطق ولا تصيح.

ناجح هو الحشيش، وهوجان هو الزيوت.

ناجح هو المادة الخام، وهوجان هو الروح والرائحة.

هائم في ملكوته، لا يريد لهذه الليلة أن تنتهي، لا يريد لليل أن يغادر رغم أنه ليل وسيمضي، لا يريد أن يواجه نفسه وحيدًا في الصباح، لا يخشى أحدًا، بل يخشى على نفسه من نفسه، من ضوء النهار.

لم يخش شيئًا يومًا قدْر أن يكون عليه دم، الناس تخشى السلاح، المخدرات، البودرة، الدعارة والقدر، وهو يخشى الدم، يخشى ما لا يستطيع دفع ثمنه، كل الأشياء بثمن إلا الدم بدم.

ستخرج القراميط من مخابئها يا ناجح، تنزلق من بين يديك، لا ترى لها عيونًا، تقفز بالطين، عاشت في قلبه وربما تكونت من دوده وتشربت لونه.

تقول الأسطورة إن الدود يتجمع حول بعضه حتى يتكون القرموط، الدود الكبير يصير ذكرًا، والصغير إناثا، وهو الوحيد الذي يعيش خارج الماء لفترة طويلة.

أيًا كان، كلها سوداء اللون، لكن قد تفوتك من الكذاب جملة صادقة، هناك دائمًا جملة اعتراضية، هناك قرموط زهري يتقافز فوق عائلته، يلعب ولا يجرح، لا يهاجم ولا يختبئ، ينزلق فوق الجميع ومن الجميع.

تصل لسمعه أصوات جلبة، أصوات ولغة أجنبية عبر شقوق السرادق، لا يدري ما بالخارج.

يقول خنوفه الذي رشق وجهه بين الشقوق:

.. وفد أجنبي جاء للتعزية.

العيون في اتجاه بوابة السرادق، أقدام بدأت في التحرك، تَعِسُّ لتُخبِر، ووجه القرموط الزهري يطل أخيرًا من البوابة.

١٧

الموال من أوله حلو، أطلَّ القرموط الزهري بوجهه الوسيم، بشواربه التي تلعب ولا تهدأ، بشعره المترنح فوق عنقه.

نصاب ظريف، لا يضر ولا ينفع، لا يعمل مع أحد، لا يصدق أحدًا، ولا يصدقه ناجح، يلعب على طول الخط ألعابًا ظريفة لصالح نفسه فقط، يضرب الضربة ويختفي، وحين تكبر اللعبة عن حدود أصابعه أو حائط دماغه يلجأ لناجح لتصريف الأمر.

لا يبحث عنه إلا حين يريد أن يختفي عن الأعين بعد إحدى مصائبه، يغيب عنده في إحدى شققه أو شقق الحبايب إلى أن يدبر حاله.

لا يتذكر ناجح متى تعرف عليه، ولا يهم، لا يأتي إلا لمامًا، ولا يغيب أيضًا إلا لمامًا، لا تعرف هل هو هنا أم هناك، شخص سمير، قعدته لطيفة أنيسة، وسيمة بوجهه الوسيم، كان يمكن أن يكون بطلًا في السينما لولا أنفه المعقوف قليلًا، لكن هذا الانحناء المرتفع في منطقة وملفوف في منطقة ربما كان بصمة النصاب في وجهه، كل النصابين العظام لديهم هذا الأنف تقريبًا كما يقول.

اسمه أسعد قشطة كما يقول، انظُر لاسمه، سعيد من يومه ولا يقبل بغير ذلك بديلًا، يفعل فعلًا أو يعمل عملًا، يقول له واحد:» قشطة، يرد: قشطة للصبح».

مشكلته الوحيدة غيرته من أخيه، الفنان التشكيلي، يشعر دائمًا أن أخاه سرق حظه، وإنه كان يستحق أن يكون مكانه، لذا يؤذيه دون أن يشعر، أو أنه يتعامى ويسدد كل ضرباته له، يرمي عليه سوء حظه، هو من النوع المنتشر الذي يعتقد أنه بلا أخطاء وأن من حوله يستحقون نتائج أفعاله السوداء لأنهم لم يمنحوه حظهم أو مواهبهم، أو أخذوا نصيبه من النجاح بالصدفة.

يلعب دور الضحية بامتياز، بل يعتقد فعلًا أنه ضحية، كبرت معه الحكاية، راح يرددها حتى صدقها هو، كل نصاب فاشل يريد حائطًا يرمي عليه خطاياه، وحائطه الأقرب من بطن أمه.

يشرب كثيرًا، يعب لينسى، يشرب أنفاس الحشيش ليتخيل أنه ناجح وسعيد، ليقول كلامًا قد لا يصدقه هو حين يفيق، يشرب في البارات التي يجلس فيها أخوه ويترك له الفواتير يومًا بعد يوم، وأخوه يدفع، يدفع ويدافع عن سمعته.

يجلس مع أخيه المرهف وسط أقرانه، يسمع كلامًا عن الفن، اللون، توال، الأكريليك، ويعيد ترديدها أفضل مما سمعها.

لص ثقافة من طراز فريد، حين يواجهه أحدهم بذلك يقول ما سمعه أيضًا منهم: عبد الحليم حافظ كان لص ثقافة، لم يكن مثقفًا من قريب أو بعيد، لكنه شرب من صلاح جاهين وإحسان عبد القدوس وغيرهما طوال الوقت، تعلم منهم ونجح أكثر منهم وأنتم فقط من تتهمونه بترديد هذه الأقاويل.

يشرد كأنه سيأتي بالحجة التائهة، يقول بنبرة قوية: الفنان ليس من يمارس الفن، بل من يحمل في قلبه روح الفن.

سلك اللحظات الأخيرة وقنص المعنى بجملة واحدة نشلها من أحدهم، هيهات من يستطيع سرقة المعنى وشحنه للآخرين.

ضج أخوه منه طوال عمره، وقف على رأسه حتى يكمل تعليمه، كان دائمًا في الناحية الشمال، وحتى عندما اختار لغة ليتعلمها اختار اللغة الهولندية، كي يستطيع أن يهرب كما يقول إلى بلد لا يهرب إليها المصريون بكثافة، لا يريد أن يرى أحدًا منهم، يريد دنيا وحده وسماءً أخرى، يمارس فيها فنه ولغته، سماء في رأسه هو فقط، كأنه يريد أن يهرب فقط، يهرب للأمام.

حاول أخوه أن يجد له وظيفة، لكن النصاب الظريف لا يحب الوظائف، يمقتها، سينصب على كل من يعملون معه في أسبوع ثم يصيبه الملل.

بارع في تعلم اللغات، يتصعلك مع البنات الأجنبيات كأمير حقيقي فقد مقعد ولي العهد، ينتظرهن أحيانًا في المعارض التشكيلية، تأكله دماغه عند أول طريدة وعند فراغ جيبه، حكاء ولاعب بوكر جيد يعرف من ومتى يقتنص.

كاد أخوه أن يفقد عقله، لم يترك صديقًا له إلا اقترض منه، أو نصب عليه في لعبة، دوخ الجميع وهو يبتسم، كان أكثر ما يوجع أخاه حين يقابله واحد في الشارع يمسكه وسط الناس، ويطلب منه أن يرد النقود التي اقترضها.

عاش ظلًا لأخيه وإن تخيل دائمًا أنه الأصل، وأن الصدفة والحظ فقط أخطأه وذهب للآخر، الجميل أنه ما زال على أمل أنه سيجد الطريق، لا يعرف بحسه المرهف أن النصاب لا يتوب.

ينتظر اليوم الذي يحصل فيه على طربة حشيش أصلي، يعمر بها دماغه على أعلى مستوى، ثم يبدأ في رسم كل اللوحات المخزنة في رأسه دفعة واحدة.

لا تضيق به السبل، وحتى إن ضاقت يخلق حيلته، سكن في شقة مفروشة مع أصدقاء ليس من طينتهم، جعلهم جمهوره، لفهم على إصبعه في ليلة واحدة، وحين قضى على ما معهم ولم يعد في جيبهم ولا جيبه مليمًا، نادى على الرجل الذي يشتري الأثاث نصف المتهالك، باع له كل محتويات الشقة، قبض ثمنها، ربما ربع ثمنها، لا يحب الفصال، سيهاجر، هكذا قال للمشتري، قبض ثم أغلق الباب خلفه، حمل حقيبته على كتفه ومشى مشية فنان، ينظر خلفه بأسى إلى الشارع والبناية، كمشروع مهاجر حقيقي في طريقه إلى المطار، يريد أن يملأ عينيه من ذكرياته القديمة.

يغيب طويلًا عن عائلته طيبة السمعة في قلب الصعيد، يعود فقط في المناسبات، الأفراح والعزاء، يحضر في اللحظات الأخيرة كعادته ليخطف الأضواء من الجميع، لا يتذكر أحد مساوئه ولا لمحاته الفنية في النصب، يتذكرون الابن الغائب سيء الحظ الذي لا يتركهم في أفراحهم وأحزانهم، يحضر في اللحظة الحاسمة وسيمًا أنيقًا يدخن السيجار.

لاعب الضربة الأخيرة دائمًا، واللقطة التي تبقى من بين كل الصور.

كان عليه بعد غيابه الدائم وحضوره الشحيح أن يقدم شيئًا لأهل قريته، شيئًا يعوضهم، يساعد به أهل بلدته الحبيبة كما قال ويرد لهم الجميل، افتتح مكتبًا للسفريات، وبدأ العمال والموظفون

يتوافدون عليه، صار يغيب داخل المكتب من كثرة الناس والنقود كأنه مسافر فعلًا.

ولأن النصاب قد تنجح معه كذبة بالصدفة، ولأن السماء لا تضن دومًا على النصابين الظرفاء، لعبت معه البلية هذه المرة، واستطاع تسفير بعض العمال عن طريق الضابط المزيف، لم يكسب مالًا من العملية لكنه كسب رغم أنفه سمعة جيدة.

الدودة التي تلعب في ظهره سرعان ما تظهر، ليس له في النجاح ولا العمل الدائم.

اقترب موسم العمرة، جمع جوازات الراغبين، ملأ المكتب بالمصاحف والسبح، وشرائط القرآن للمقرئين السعوديين الذين حلوا في تلك الفترة محل المقرئين المصريين وملأوا الفضاء بأصوات منفرة كئيبة، وضع الجوازات في حقيبته وسافر للقاهرة.

عند أول بار صادفه دخل، ظل يشرب حتى مطلع الفجر، حمل الحقيبة بيده، تطوح خفيفًا حتى كوبري قصر النيل، عند الحافة كان يبكي وهو يفتحها، لا تعرف من السكر أم من الذنب أم من لسعة الكونياك، لا تستطيع أن تحدد بالضبط، يبكي كعشيقة مات عشيقها في حضنها.

فتح الحقيبة على سور الكوبري، أطلق جوازات السفر في الهواء إلى قاع النيل، ودعها بدموعه كما يليق بفنان حقيقي، تسقط في مشهد سينمائي واقعي ربما لم يخطر لحسن الإمام، وجد جوازًا نائمًا في القاع باسم عمته، رماه بألم زائد، وفي النهاية لملم الحقيبة الفارغة وما تبقى من دموع وراح يخطر على الكوبري يغني ما خطر على باله مع تباشير الصباح «الدنيا ريشه في هوا، طايره بدون

جناحين»، وهو لا يدري أن عمته الآن قد صحت في نفس التوقيت تقول لأبنائها:

ابن أخي الجميل أسعد، سوف يأتي لي بتأشيرة العمرة ويعود.

لم يعد، بالطبع لم يعد إلا حين مات أبوه، كان مترددًا لكن في ظرف كهذا لن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منه.

كعادته تلقى الخبر وهو في نصف الزجاجة الخامسة، تلقاه بصدر حزين، لم يفلح أن يقدم لوالده شيئًا يفرح به قبل وفاته، لا أسعده بوظيفة ولا بحفيد ولا سمعة طيبة رغم أنه كان المفضل عنده، فأكمل حتى الزجاجة الثامنة.

حين هبط على السرادق دخل دائخًا تائهًا، لم يسلم على أحد، عذره معه، يبكي، يبكي بقوة، لا تعرف هل يبكي من الحزن أيضًا أم من السكر، لقفه أحدهم، احتضنه وأجلسه على مقعد كبير وسط السرادق، والمقرئ يتلو:

فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز.

انتفض أسعد من مقعده وبصوت عالٍ يشبه الصراخ: أنا من زحزحته، أنا من زحزحته.

ثم سقط مكانه.

حملوه إلى أقرب دار، وحين أفاق قبيل الفجر انسل مع أول خيوطه كي لا يراه أحد أو يرى أحدًا، انسل لكنه صار في بؤرة الحدث، غداءهم وعشاءهم، نسوا الميت، نسوا جرائم أسعد وألعابه وتحدثوا فقط عن زحزحته.

يضحكون منه ومعه، ويبكون مثله أيضًا من الضحك.

يعود إلى الشارع، إلى الشقق المفروشة، إلى ناجح أحيانًا، لا تعرف بالضبط غرام ناجح به، حين جاء للمقهى في البداية ارتابوا منه، اعتقدوا أنه مدسوس ومن ذا الذي يجرؤ أن يلعب في أرض ناجح، وحين فك الأخير ختمه وعرف سره تركه بل أكرمه، هو في الأخير يحب الأذكياء، هو ابن اللحظة لا شر عنده، يؤلف حكاية وعند منتصفها يكملها له ناجح فصارا حبايب.

نصاب أنيق يمكن أن ينفع في أية داهية أو عملية.

نصاب لا يريد أن يؤذي أحدًا، يؤذي نفسه فقط، يؤذي الآخرين ببراءة يحسد عليها: لماذا يذهبون للعمرة، ورب هنا رب هناك، والدعوات تقبل من الشرقية وطنطا كما تقبل من السعودية، وكل هذه المصاريف أنا أولى بها ودعواتي مستجابة.

أحبه ناجح، استملحه، كما أنه لم ينس أنه يلعب في الدنيا بمبدأ: من لا تحتاج وجهه قد تحتاج قفاه.

حين وقع في يد فجنون، التقطه من الحبس وأخرجه، كان ينادي عليه: أنا فنان يا سعادة الباشا.

بالطبع كان قد درس المنطقة في لحظة وعرف أنه فنان أيضًا، أو كما سمع غاوي فن وفنانين، حكى له قصة أخرى، أخرج له بطاقة باسم أسعد عسل لا أسعد قشطة، وراح يحكي عن بيكاسو وكاندينسكي وكليمنت.

عرض عليه أن يبيع له لوحاته أو يقيم له معرضًا وكاد ينجح، لولا أن الضابط قرر من البداية ألا يدخل الفن في عمل البوليس وألا يسمح لأحد أن يستغل شعرة منه مهما كانت النتائج.

كان قد وقع إثر شكوى من سائحة هولندية، أخذ شيكاتها السياحية وجواز سفرها ونسي في غمرة السكر أن يعيد لها الجواز فاشتكته، وضمنه ناجح الذي صادفه هناك.

لا يمكن أن يفوته أن يشارك في عزاء نجل ناجح، الرجل الذي آواه لفترات طويلة، ومنحه دفعات من أفخر أنواع الحشيش في كل وقت، وربما نفحه نقودًا أيضًا دون أن يطلب بلسانه، لكن عينيه كانتا تشتكيان.

أحب ناجح فيه النصاب الظريف الذي يعيش لمزاجه ولا يحقد على أحد عدا أخيه، ويستطيع أن يكذب أجمل من الصدق فتصدقه، أحب منه ما لم يره من النصابين الرمم الذين يعرفهم.

الآن يطل من باب السرادق، بعد أن أوقف السائحين الأجانب في طابور أمام السرادق، كان بهم في جولة ثم عرج على السرادق، يعطي كل واحد منهم تذكرة دخول لحضور العزاء، ولا تسألني من أين أحضر تلك التذاكر، ربما لطشها من محصل أي أتوبيس، تذاكر مترو قديمة أو تذاكر لعبور نهر النيل من ضفة إلى أخرى.

أخذ كل واحد منهم بطاقته، مشوا خلف بعضهم بعضًا كأنهم في طابور، تلقفهم شحته وخنوفه للوصول بهم إلى عرش ناجح، يسلمون عليه ثم يذهب كل واحد إلى غيته، حالة من الارتياح والدهشة تغشى السرادق، صيت ناجح وصل لأبعد الدول والجنسيات الأخرى تعرفه، وحدها كانت أم آدم أو أم حواء متوترة، تشق المقاعد، تتطلع في الوجوه لأول مرة في حياتها، تتفحصها بدقة، تتفحص رائحة وجهها في وجه أي أحد، تبحث

عن أثر لملامحها في أي وجه منهم، قفزت حياتها القديمة أمامها مرة واحدة، وصعد لها خاطر غريب، ربما يكون ابن أو ابنة لها بين القادمين.

كانت هناك ثلاثة أشياء تحدث في وقت واحد:

١ ـ «أم حواء» تتفحَّص الأجانب، لكن لا أَثَرَ لها في أي منهم.

٢ ـ «ناجح» يُتمتم في سِرِّه:

مش باقي غير شوية ضي في عنيّا..

وانا هديهمولك وأمشي بصبري في الملكوت.

٣ ـ «أسعد قشطة» يُوزِّع النَّصْب الظريف في السرادق.

١٨

حتى لو نسيتَ كل الضُبَّاط لن تنساه.

لا تعرف بالضبط ما الذي يجعل الأرواح تتلاقى.

كنتَ تتساءل وأنت في الطريق إلى «مرسى مطروح» في عِزّ الصيف، وسط أتوبيس منفوخ عن آخره بالضباط وعائلاتهم، «ما الذي يجمعك بهؤلاء!»

والدك الضابط الفخيم قال إنك يجب أن تتواجد في بيئة شرطية.

«حتى في المصيف!»

«وفي الحمَّام إنْ أمكن، الجرابيع في المصايف الأخرى، وحذار أن تتهور ويعرف أحد أنك زِفْت، رسَّام».

كنتَ تنظر إليه فقط، لا تراه، وأذناك في اتجاه آخر، تعرف أنه سوف يُلقي الموعظة إيَّاها عن النَّسَب الشرطي، الدم الأحمر، سلالة بعضها من بعض، وأن ابنة ضابط هي خير مَنْ تفهم ضابطًا.

ناقشْتَه أكثر من مرة: «ابنة الضابط لا بد أنها كفَرتْ من الضباط، شربت من المعين الشرطي مرة واحدة بما يكفي حياة كاملة، وإنهن يتطلَّعْن دائمًا للجديد، لِما يخايل أحلامهن بعيدًا عما ألِفنه وأصبح عاديًا، وربما مزعجًا».

لا تنس زميلك الضابط، دُفعتك، الذي وقَعَتْ في غرامه ابنة تاجر

كبير في سوق روض الفرج، قال الجميع عنهما جملة واحدة: «كل واحد بحث عما ينقصه»، إلا أباكَ الذي قال بصوت مخنوق مملوء بالحسرة: «العِرق دسَّاس، الخال والد، أبناؤه سيصبحون تجار فاكهة يوردونها للوزارة، ويا ضيعة الوزارة».

لكنك تتذكَّر هذا الضابط تحديدًا، الذي اصطدَمْتَ به عند الشاطئ، كان يُدندن، سمعتَه ليلة أمس يُغنِّي، فكَّرْتَ أن تذهب لتناديه وتدخل عنده.

«أنت الذي تغني؟»

«وأنت الذي ترسم؟»

أَعزَبَان في مُخَيَّم لمتزوِّجِين، وحيدان، فنانان، صِرْتُما جماعة، كلٌ يمارس طقوسه على إيقاع الآخر.

حين رأى رسومك راح يضحك من قلبه: «لماذا رسمتَ كل الوجوه حادة؟ حاذر أن يراكَ أحدهم».

تضحك، يتوقف عند صورة جماعيَّة بوجوه وبطون ومؤخرات منتفخة، تعلو صيحته: «العسكرية الوارمة.

قلتُ: «كنتُ أحاول اصطياد الروح».

تكتشف أنك لستَ حذِرًا منه، ولا هو، الروح الممتلئة بالفن لا تعرف الحذر من شبيهاتها.

لم تفترقا، تجلسان معًا، تخرجان معًا إلى شوارع المدينة وشواطئها بعيدًا عن الجميع، حتى لا تجرح عزوبيتكما الجماعة الصارمة.

يُغنِّي أمامك، يُغنِّي لك، ولنفسه.

يحكي لك عن الغناء طول الوقت، والفرق بين «عبد الوهاب»

الموهوب الدؤوب، و«بليغ» الموهوب بالفطرة، بشراسة، كيف يستطيع «عبد الوهاب» أن يسرق روح «بليغ»، ولا يمكنك عندما تستمع للأغنية أنْ تعرف من الذي وقّعَ اللحن.

الفن بالسيرة، تذهبان إلى صخرة «ليلى مراد»، غَنَّتْ فوقها في فيلم شاطئ الغرام، فأخذ اسمه من الفيلم.

يقول لك: «لا تفعل مثلي، لا تترك نفسك للوظيفة».

أخطأ عندما دخل هذه الوظيفة وتاه فيها، ولم يَعُد هناك طريق آخر، أخطأ عندما تخلّى عن الغناء، لم يحارب من أجله مهما كانت النتائج.

لا تظهر خطوط الحياة في وجهه إلا حين يُغنِّي، يحلم كل ليلة بمسرح يقف عليه، ولو لمرة واحدة وحيدة، يشحن للناس أحلامهم، ولو مات بعدها سيموت سعيدًا.

مذبوح، تشعر بألمه، ألم يحرق، يتمنَّى أن يُغنِّي ولو لمرة وحيدة أخيرة.

تتواطآن معًا على الفرح، تُقدِّمان شريطًا لمدير المُخيَّم ليذيعه في ميكروفون المعسكر، تتحايلان على نقص الآلات داخل الشريط: «هذه آخر بروفة لعبد الحليم حافظ، آلات قليلة، لكنه ممتع، شريط نادر».

نجحَتْ اللعبة.

وجهه يضيء، سيفعلها، وأنت تشاركه، يجب أن تُكمل لوحاتك، وتُقيم معرضك وليكن ما يكن.

عيناه تتلألأ فيهما المزيكا، يريد أن يُحقِّق أمنيته ويُغنِّي أمام

جمع، لم يَعُد يعنيه أن يكون منتفخًا، ولا أن تكون الكراسي نفسها منتفخة.

يُغنِّي في الحفلة الختامية، التي يحضرها غالبًا المحافظ ومدير الأمن وباقي الوجهاء في المدينة.

تتعاطف معه من كل قلبك، تستحثُّه أن يفعل ذلك ولو لمرة واحدة، ولو لتغريدة أخيرة لبجعة وحيدة.

تراه الآن على المسرح، ببذلة «عبد الحليم»، يُغنِّي أمام جمع كئيب كأنه مأتم، وجمهور يكاد ورم كل واحد منهم أن يتعدَّى كرسيه.

يغني سعيدًا: «مَنْ حاول فك ضفائرها»، ويطوِّح برأسه فيطير شعره، أصابع يده في الهواء كأنها أصابع «عبد الحليم».

تتخيَّل من فرط نشوته أنه سيسقط على المسرح كما فَعَلها مُغنُّون قبله تَمَنّوا الموت بين جمهورهم، وأن يكون آخر نفس لهم عبر ميكروفون وسط جمهور على خشبة مسرح، «نصري شمس الدين» فَعَلها وسط جمهوره، و«علي الرياحي» تمنَّاها فوجدها.

لكن هذا ليس جمهوره، ليس جمهورًا بالأساس.

حين ينتهي من الأغنية تسمع تصفيقًا باردًا، مُستهجَنًا، لكنه كان في دنيا أخرى، يسمع تصفيقًا قويًا من حوريات البحر اللواتي خرجن حين سمِعْن صوته.

تتذكَّرْ، كنتَ تُصفِّق بقوة، يُشير لك بفرح، تُلوِّح له وتفرد ذراعيك.

يُلوِّح لك ثم يطير عاليًا، عاليًا.

على الأرض، كانت تنتظره قصة أخرى، كان قد خرج في عيونهم على المعاش قبل أن يخرج في النشرة القادمة.

لم يحدث ذلك معه وحده، حدث معك أيضًا، تم التحقيق معك:
أنت متهم بإقامة علاقة مع مسجل خطر.
كانت أول جملة وجهَّهَا لك مُحَقِّق أعلى منك رتبة.
هذا المُسَجَّل لا ذنب له ولا ذنب لي، كل ما في الأمر أن الأوامر كانت صريحة أن أقابله».

«لماذا؟ وما هي الأوامر التي كانت موجهة لك؟»

«يا باشا، هذا الرجل هو المصنف رقم واحد في عالم المرشدين، وهو مُسَجَّل خطر عتيد، عنده كتالوج كل المجرمين والمنطقة كلها، وهو قبل ذلك مرشد الحكومة، يعرف مواعيد ولادة النساء وأحيانًا ميعاد الحمل».

«نعم! حمل وولادة، انتبه لما تقول».

«ما أقصده، أن له سلطة وقيمة بين أبناء المنطقة، صاحب مقام كبير بينهم، ومن الآخر يستطيع أن يجمعهم خلفه بالرضا أو الإجبار».

«زعيم تقصد؟»

«نعم».

«أسألك ثانية، ماذا كانت الأوامر التي لديك؟»

«أن أجلس معه في قهوته وسط ناسه لتزيد مكانته بينهم، أستميله، أضغط عليه من طرف واضح أو خفي لصفّ المرشح الذي اختارته الحكومة وأمن الدولة في انتخابات البرلمان بعد أن أصبح عظمة كبيرة واسمًا كالأسطورة».

(أردْتُ أنْ أقول له إنَّ المسجل في النهاية عميل الحكومة، لكني تراجَعْت).

«لماذا لم تجلس معه في مكتبك؟»

«طلبْتُ ذلك، أنا في الحقيقة لم أطلب، لكن التعليمات كانت واضحة أن أقابله في المقهى كأي زبون عادي، ثم أنني أقابله منذ عشرين عامًا، أحيانًا كل يوم ولساعات».

«أنت ظهرتَ في الصور التي التُقِطَتْ لمسيرات المرشح ومعك المُسَجَّلين، وكأن الوزارة تساند هذا المُرَشَّح وتستخدم هؤلاء».

(هذا اللواء يعرف أكثر مني أن الوزارة تساند هذا المُسَجَّل).

قلتُ: «صورة من بعيد وأنا ألبس ملابس عادية، لن يعرفني سوى عشرة، ثم إن من واجبي تأمين هذه المسيرات».

«هل معك نسخة من الأوامر؟»

كِدْتُ أَهِبُّ في وجهه لولا أنه برتبة لواء، هو يعرف أكثر مني أن التعليمات تصدر شفوية ولا وقت للأوراق عند ضباط المباحث.

«أوامر شفهية».

بلَعَ ريقَه.

«أوامر شفهية! أنت متهم بإقامة علاقة مع مُسَجَّل خطر، بالمخالفة للقواعد الوظيفية واللوائح واحترام المهنة».

قلتُ: «أنا ضابط مباحث يا باشا، إذا لم أقابل المجرمين والمُسَجَّلين والمرشدين لأمارس عملي فماذا أفعل؟ هل أقابل نقيب الأطباء؟»

بعد أسبوع كنتُ خارج البوليس.

١٩

العزاء للصبح.

يقول خنوفه لواحد بجانبه، عندما رأى الطابور الأجنبي، تسمعه جيدًا، كأن كل طاقتك انسحبت من جسدك، استقرت وتركزت في أذنيك.

أم حواء وحدها، لا تسمع شيئًا، طاقتها كلها في عينيها وأنفها، تدور حولهم تتشمم الروائح، هل رأيت مرة روحًا ترتعش أمامك، هي كذلك بالضبط، قد تغيم ملامح البشر مع الزمن وتتبدل، لكن الروائح تعرفها الأمهات، بصمة لا تعرفها التكنولوجيا، تحاول أن ترى شيئًا، أي شيء، تدقق في كل وحمة، أو شامة أو شعر خرُّوبي كشعرها، في كل خيال، تنقل عينيها بينهم وبين خيالاتهم على حائط السرادق، ربما يبوح ظل، ربما يكون لأحد من أبنائها.

لكن هيهات، لا رائحة، لا ترى سوى غيمات تروح وتجيء، تنتفض في قلبها، سوى بحر فارغ، في قاعه ترقد ابنتها التي أنكرتها ورمتها، نادتها النداهة، خبأتها الصخور بين جحورها.

هل تتذكر تلك السيدة التي غرقت ابنتها منذ أسابيع ولم يجدوا جثتها، دخلت في الماء لتسبح، لتزيل بالماء المالح أكوان الألم فوق جسدها، سبحت عميقًا ثم غابت، داخوا عليها ولا أثر يبل ريق أمها، أمها التي جلست أمام المكان التي قفزت منها ابنتها قفزتها الأخيرة.

جلست على حجر لثلاث ليالٍ تناديها: اخرجي، اخرجي يا بنت بطني، أشوفك مرة واحدة ثم عودي، أشم رائحتك فقط، سأودعك كما يليق بوداع أخير، ثم أودعك حيث يجب أن تكوني.

حضن أخير لأمك.

لم تكن تبكيها، كانت تبكي قسوتها، أفعالها معها، تبكي جحودها، أصعب شيء في الوجود جحود أم على ابنها أو بنتها.

ليس ذنبها أنها بنت حرام كما يقولون، كانت بنت الحب والجوع، وبنات الحب لسن بنات زنا، لسن حرامًا.

جلست وأطالت، انزرعت على حجر كأنما أنْبتها، وربما لو قامت لالتصق بجسدها.

تنادي، تنادي، لم تعرف للتعب طعمًا، ولا أغمضت عينيها لحظة، تغمضها أحيانًا فقط لتحلم أنها وجدتها، وحين يظلم المكان كانت تشعل شمعة تلو شمعة لتدل عليها حين تخرج.

في لحظة كانت قد كرهتها لأنها تذكرها بخطاياها، التي لو عدتها على أصابعها لتعدت الأخير قبل أن ينتهي العد، ثم ارتكبت خطايا أفظع حين باعت أولادها، رمت لحمها بعيدًا ولم تلملم لحمها القريب.

كانت تريد أن تنسى، كأنها خافت أن تذكرها البنت بكل ما اقترفت، تناستها حتى تمحو من جحور مخها أن لها بنتًا من الأصل.

لا تعرف بالضبط ما الذي صحا فيها! لا شيء يصحو في قلب حجر، لكن أحيانًا تكشف الحياة عن أحد وجوهها، تنبت وردة في قلب صخرة، يتسلل الأخضر بين كتلة صماء، كأنه يكفر عن خطيئة قلبها الصلد.

أقسى ما كان يوجعها أنها لا تتذكر رائحتها، رمتها يوم رمتها، رمت ذكراها وعادت كأنها لم تصادفها يومًا.

حين يموت الناس قد تتذكر لهم مآثر عديدة، من يوجعك حقًا هو من تتذكر رائحته، ما يميتك حقًا هو من تخطئك رائحته، لا تستطيع أن تطلق حزنك للخارج فتتخلص منه، بل تأخذ الرائحة لتدفنها داخلك لتحزن وحدك أكثر، تظهر واضحة عميقة في عينيك، يراها من يراها، لكنه لا يستطيع أن يمسكها أو يهشها عنك.

نادت، والناس بين مشفق ومن يقول جُنت المرأة، وفي لحظة ضاقت بها ملابسها قررت أن تضع حدًا للحكاية، وقفت على حيلها مرة واحدة، انفلتت من الحجر، صرخت عليها، أشارت للناس أن يضربوا بكفوفهم، لبوا مسحورين، ضربوا بقوة فخرجت، كانت تتقدم في اتجاهها وحدها، خرجت إلى حضنها لمرة وحيدة وأخيرة، أخرجها الغواصون، حضنت جثة متعفنة، وربما لو حضنتها من قبل مثلما ضمتها الآن لعاشت.

أنت مثلها يا ناجح، بحر واسع بغريق واحد، بلا عينين لتراه إن خرج، افعلها فقط، ستنبت لك مائة عين.

يتمتم في سره:

مش باقي غير شوية ضي في عنيا.

وانا هديهم لك وأمشي بصبري في الملكوت.

يزم عينيه ليرى قدر ما يستطيع، يرى ظل عماد على الحائط، يعرفه من أذنيه الكبيرتين اللتين تظهران بقوة حين يحلق شعره، وتلوحان الآن على جدران السرادق مثل سماعتي ميكروفونين أصليين.

لا يحتاج أن يرى وجهه ليتأكد، يدخل إلى قلب السرادق يسبقه صوته العالي:

حي، حي، هوجان جاي. هوجان لم يمت، الموت أخذ خياله ولم يقدر عليه، فضوا هذا الصيوان، لا تطلقوا فألًا سيئًا على سيد الرجال.. حي، حي.

يتقدم في الردهة باتجاه ناجح، يرمي برأسه للخلف، يتأكد من وجود الألتراس الخاص به، خمسة عشر شابًا، بعضهم يرتدي قميص نادي الزمالك وبعضهم قميص الأهلي، والباقون يرتدون قميص المنتخب الوطني لكرة القدم، وفي نهاية القافلة الصغيرة واحد يلوح بعلم مصر مائلًا فوق الرؤوس.

اسمه عماد لون، كان من قبل عماد على كل لون ثم تم اختصاره طبقًا للتعليمات، إن كنت تريد مثالًا على من يسوق الهبل على الشيطنة فضع عماد في أول الصف، خلفه ثلاثة أماكن فارغة، ثم ضع بقية اللائحة.

لا تعرف أية داهية رمت به إلى عالم كرة القدم، إلى عالم المشجعين الذين يتصدرون مدرجات الدرجة الثالثة، يشعلون المباريات بهتافاتهم وألاعيبهم.

حصل على دبلوم زراعة بالعافية، حين سأله المدرس عما يفعله بحبة البطاطا بعد أن يسلقها، رد بأنه يسلقها بقشرها، ثم يقوم بنزع القشرة ولحسها من الداخل.

لماذا؟

.. حتى لا يضيع الفيتامين.

غاب المدرس طويلًا، قال له: مكانك ليس في التعليم، مكانك بين دراويش المشايخ، أنت تفكر ببطنك وستحصد بها.

حين هبط إلى القاهرة من قريته في قلب الدلتا لم يكذب خبرًا، كان يمشي على بطنه، يبحث عن الفيتامين، وجده في قلب الموالد، في موائد الرحمن، لكنه لم يقتنع بأن ينتظر وجبة على طاولة رديئة، بعد نصف يوم كان قد دخل المطبخ لا ليعاون في الطبخ فقط، بل ليملأ كرشه الذي يعوي بسبعة أمعاء.

بعد أن اطمأن على بطنه كان لا بد أن يطمئن على جيبه ومستقبله، دخل في صفوف حلقة الذكر، ثم تقدم بشجاعة إلى المكان الأول ليدير الطبقة والجميع خلفه.

الصدف تتبعه، قادته إلى النادي الأهلي، أنفه تسبقه نحو ملعب جديد، صادف الخطيب نجم كرة القدم، وبدون مقدمة بادره بالسؤال:

من الأكثر موهبة، أنت أم طاهر أبو زيد؟

رد النجم بحيرة شديدة: هذا أغرب سؤال سمعته في حياتي.

لم يكن عماد قد رأى مباراة كرة قدم كاملة في حياته قبل تلك الواقعة.

الدراويش الذين عاشرهم لا يعرفون أساسًا لماذا تلعب كرة القدم، غير أن ذلك لا يمنعهم من المشاركة في ولائمها.

لم يدخل ملعبًا لكرة القدم من قبل ولا يعرف قوانين اللعبة، لكنه شاهد شابًا يقود المدرجات كاملة، يرقص بمؤخرته يطوحها ذات اليمين والشمال والمشجعون يصفقون وينادون خلفه، شاهده

بعد ذلك يقبض من اللاعبين ومن إدارة النادي، وقف في طابور المشجعين الكبار الذين ينتظرون ثمن تشجيعهم، أشار له كبير المشجعين الذي يرقص أن يخرج من الصف، لم يكن يعرف أن عماد يعلق على جبهته شعاره الخالد: عض قلبي ولا تعض رغيفي.

واحتدمت الخناقة، رفع عماد كبير المشجعين لأعلى ثم رمى به كامل الصف ووقف وحده في المقدمة يقبض النقود أولًا.

ومن يومها، لم يترك مباراة إلا غشيها، لاعبًا إلا وقبض منه، وأتت أسرار الدروشة أكلها، يمسك مسبحة قبل المباريات، يرميها على رقبة اللاعب، ثم يتمتم كأنه يتمتم لينتصر الفريق على الأعداء.

حلت بركته، وامتلأت جيوبه، لم يعد خارج الطابور، صار في أوله، لم يعد في الدرجة الثالثة، انتقل للأولى وأحيانًا إن لزم الأمر في المقصورة، صار له مريدون وأعوان، سريع البديهة، يقرأ اتجاه الريح، حين صار المنتخب الوطني محط الأنظار تحول إلى قيادة جمهور المنتخب، قرأ أن مدرب المنتخب متغطرس، أناني لا يرى سوى خصيته، يراها منتفخة في أكبر مرآة، عن كل المدربين في العالم، لا يقبل أن يناقشه أحد في قرار أو خيار، أحضر له أكبر منفاخ ونفخه حتى كاد يفيض على الملعب نفسه وعلى البلد كلها، موقنًا أنه المبعوث الإلهي لكرة القدم، يلاعبه: لو كان هناك نبي جديد لكنت أنت نبي هذه الأمة.

طلب منه ألا يهتف باسم أي لاعب: يترك ذلك أثرًا سيئًا في نفوس بقية اللاعبين كما تعرف، أعطى له نصف الجملة وعماد أكمل من عنده النصف الآخر، صار الهتاف باسم المدرب فقط، وحين يملون يهتفون باسم الرئيس.

حين ينسى واحد ويهتف باسم لاعب يقطع عماد الهتاف، ويهتف باسم وزير الشباب والرياضة ثم باسم الرئيس.

حين يسافر المنتخب ليلعب في بلاد أخرى، يكون اسم عماد على قمة اللائحة أولًا ثم باقي اللاعبين والمشجعين.

لو أنصف البوليس يومًا لوضعهما على رأس لائحة المسجلين.

أوحد ينتج أوحدًا.

استغله عماد، أشعل له غروره المتقد، للأمانة لم ينس أصله ولا أهله في هوجة النعيم التي هبطت عليه، وضع أسماء إخوته وأقاربه في كشوف منح وزارة الشباب والرياضة بدعم المدرب، هاتفهم ليأتوا من قريته البعيدة ليصرفوا المكافآت، يقتطع منهم سبعين في المائة فقط من قيمة منحة مؤازرة المنتخب، ويمط أذنيه الكبيرتين إن فكر واحد منهم أن يناقش أو يعارض.

التقطه أعوان هوجان قبل أن يلتقطه البوليس ليكون لهم عونًا وعينًا، من يريد أن يفعل ذلك ويستمر فليمر عبر كلية هوجان أولًا.

لم يقتسم معه هوجان حصيلة ولم يأخذ منه إتاوة، قرأه منذ البداية، قرآ بعضهما البعض، ساعده على تطوير وتأمين نشاطه شريطة أن يظل تحت عينه وأن يدفع فقط من ريع الأنشطة الجديدة التي سوف يوكلها له.

أجندة مزدحمة وعلاقات تتشعب.

نعم، كان لا بد أن يكون لعماد ثمن جديد وربح آخر، قل أرباحًا، أخذه هوجان من يده للعبة تذاكر المباريات، يقدم له جزءًا من تذاكر المباريات المهمة ، يأخذها من المنبع قبل أن تدخل السوق، بالطبع

مقابل عمولة بسيطة وأحيانًا بنفس قيمتها، يبيعها عماد في السوق السوداء بأضعاف ثمنها، والحساب يجمع من بعد، خاصة مباريات الأهلي والزمالك، ثم انتقلت اللعبة بعد ذلك لمباريات المنتخب، لكن هوجان لديه مندوبه، يخبئ عن عماد مكان البيض حتى لا يلعب من ورائه أو يفتن على أحد، كل شيء بحساب، الغرام الزائد يشبه الأكل الزائد ينفخ البطن، لا يجب أن يكون هناك فولت زائد في أسلاك المحبة.

يظهر بترتيب مسبق على شاشة التليفزيون، يسمع كلمتين من هنا وهناك، يلقطهم جيدًا بأذنيه الكبيرتين، كلمتين فيهما الفيتامين، يطرشهما بحنجرته الواسعة، لا ينس في غمرة ذلك ما قاله له المدرب حرفيًا:

هزمنا لأن الحظ عاندنا، لأن السحر الأسود يفعل فعله، لا بد أن نستعين بسحرة في المباريات القادمة، كما يجب ألا نلعب بالكرات المحلية لأنها سيئة، يقول وهو يرقص مجاملة للمدرب:

«هو وبس، هو بس، اللي خلي العالم كش»

يرمي قذائفه في كل اتجاه حسب التعليمات، تخصص في حمل اللاعبين في مباريات اعتزالهم أو عقب الفوز بمباريات مهمة.

كبرت خزانة عماد، الصغيرة لم تعد تتسع، خاصة أنه لا يؤمن بالبنوك، نقوده تحت رأسه وخزانته تحت بلاطة المطبخ.

يعيش وحيدًا في شقتين متجاورتين، ينام في شقة النقود، لا علاقة له بالنساء إلا لحظة بيع تذاكر السوق السوداء أو الهتافات في الملاعب.

عشرته مع الدراويش أهاجت بطنه وأرخت ذكره، ينامون

بجانب بعضهم البعض في اتجاه واحد، ما إن يبدأ الصاروخ الأول في الاشتعال حتى تشتعل بقية الصواريخ حتى تصل للحائط البعيد، ينام في الطرف البعيد، يحصل على نصيبه من الخوازيق التي أعطاها للجميع.

يقود الهتافات، كل صاروخ نظيف يجعل حنجرته أقوى وأعرض، ثم يتركها لمعاونيه، ولا يظهر إلا لحظة حضور الكاميرا، يبيض ليأخذها وحده.

الغرام بالسلطة ليس عند البوليس أو المسجلين أو اللاعبين فقط، لعنة تسري بشراهة حتى بين المشجعين.

لو أنك داخل السرادق الآن، سترى يد «ناجح» تتسلَّلُ تحت طاقيته: هل يمكن أن يكون عماد هو من قتل نجله أو شارك عن طريق أحد أعوانه؟

لم لا، علاقات هوجان برجال الأعمال في المنطقة وغيرها لم تكن مريحة بالطبع، لم يقبل أن يكون تابعًا لأحد مهما كان نفوذه، ولا بد أن المصالح تعارضت.

ثم إن الأولاد الذين يمشون خلف عماد صاروا يسمون نفسهم ألتراس هوجان، هو الذي فك قيودهم من البوليس بعد أن أبلغ عنهم دون أن يعرفوا.

قرصة أذن من معلم، أطلق عليهم ضابطًا، ثم عاد وتدخل بنفسه للإفراج عنهم.

ربما أحس عماد هذا باللعب وربما لم يفهم، لكنه عرف بعد أن كان الكبير أن له كبيرًا آخر يطوقه ويحد من حركته، ربما هو من تخلص منه، لكن هذا الاحتمال ضعيف.

يلعب بالبيضة والحجر ويجلس أمامك كأن الذي مات ابنه هو.

عماد لون هو في النهاية من يدير النشاط اليومي لرابطته حتى ولو كان يتلقى بعض التعليمات من هوجان، كما أن حُمَّىَ السفر لبلاد أخرى مع المنتخب الوطني جعلت رأسه تدور في اتجاه آخر، ولم تعد تنقصه الزعامة حتى ولو كان القرار النهائي في ملعب آخر، كما أنه مشغول بحلمه أن يترشح للبرلمان في بلدهم ويعول على هوجان أن يكلم صاحبه الكبير لتدعيمه.

لا يعنيه النفوذ بقدر ما تعنيه النقود، أما هوجان فيعنيه النفوذ قبل النقود، يجلس عماد على ركبتيه، إذ أنه لا يستطيع أن يرسل اللصوص والمسجلين للهتاف لوزير الشباب والرياضة في ملعب كرة اليد، وإلا سرقوا المشجعين وتجرأ أحدهم ونشل الوزير نفسه.

علاقتهما كانت سمنًا على عسل مع حفظ المقامات، وعطرها ونقودها فوق رقاب الجميع وجيوب الجميع.

حين ظهر ألتراس الحقيقي الذي يقوده شباب متعلم شكل خطرًا على الجانبين، لم تكن لعماد سيطرة عليهم، لكن وجوده أصبح أكثر ضرورة حتى يخترق هؤلاء، يعرف خططهم، خاف على أكل عيشه وسلمه للمجد، لكن هوجان طمأنه أنهم شباب متحمس يفرغ طاقته في التشجيع، كما أن مطالبهم تتعلق بأشياء أخرى لا علاقة لها بالتذاكر أو بحمل اللاعبين أو قبض مكافآت التشجيع.

المشكلة أن هؤلاء الأولاد الجدد في الكار بدأت السياسة تجرفهم، ولا بد من السيطرة عليهم وهذا مستحيل، لكن وجود عماد وفريقه يستطيع أن يعرف النوايا والاتجاهات، وهو ما يجب

أن نحصل عليه ونقدمه للبوليس الذي سيدخل على الخط بكل قوة، وقد يحصل عليه من أحد غيرنا.

كان متحسبًا أن يصل البوليس لعماد ويفتح قناة معه تتجاوز قناته، ولو حدث هذا فمن يبيع ألتراس يمكن أن يبيع أباه ويبيع ألف هوجان، لذا أرخى له هوجان بعض الخيوط ليمسك بالبقية.

لكن الخيط الذي قُتل به هوجان غامض غموض ليلة شتاء في قرية نائية معتمة.

يقف على حيله ثم يجلس بسرعة قبل أن ينتفض معاونوه، يقول لنفسه:

لا بد من إعادة تقليب عماد، تقليب روحه لا تقليب نقوده، لا حاجة للعب بنفس الطرق القديمة، لا أريد نقودًا ولا نفوذًا ولا كرة قدم، الكرة التي تشبهها أنت الآن تمامًا، تتقاذفها أقدام الذين قتلوا ابنك، يجب السيطرة عليه بالمحبة واللين والذكرى قبل السيطرة عليه بالنار لتعرف من قتل ابنك.

ابنك الذي وسّعَ القماشة حتى كثرت خروقها، أراد أن يمسك كل شيء، لم يترك شيئًا واحدًا خارج نفوذه مع أنك قلت له ألف مرة: لا أحد يأخذ كل شيء في الحياة، يجب أن تفوّت للآخرين لقمة وعصا كي تبقى معك مفاتيح كل الخزائن.

تفكر الآن: ألم يستطع أن يقرأ الملعوب قراءة على حق ربنا، الألتراس لم يكن في قاموسنا، ويحتاج لدماغ تسير مع التيار، حاول أن يركبه من أعلى نقطة، لذا سقط إلى الأسفل بسرعة.

لم يكن معلمًا بنفس هادئ، كان عَجولًا، قطّع نفسه، طحن روحه ونسي أن المرشد الكبير لا يحتاج كل شيء.

المرشد يعرف أنه لن يأخذ سوى ربع الصورة المعتم في الغالب، حيث الضباط في الضوء، في قلب الصورة، لكنه رأى نفسه كبير المرشدين والمسجلين في العالم ويريد مكانًا واضحًا في الصورة، في قلبها أو بجوار القلب:

يا ولدي هدئ اللعب، التيار عالٍ.

.. لا أستطيع أن أترك خيطًا، لا أقدر أن أكون خارج اللعبة، هذا قدري، قلبي حامي ولا أعرف الانتظار.

كبير المسجلين والمرشدين عليه أن يكون في مقدمه صبيانه، لكن عليه أن يتعلم جيدًا كيف يكون خلف آخرين، وأن يلعب دور الدوبلير بمزاجه حتى لا يكون مسمارًا برأس، كل المسامير التي ظهرت رؤوسها تم قطعها مهما كانت صغيرة.

كأنه لا يسمع.

نصيحة أخيرة: يجب أن تتعلم الكمون والانتظار والفرجة، عبئ السحابة، اشحنها بما تريد، وتفرج عليها.

.. ستذهب لغيري.

كل سحابة تأتي بمخدراتها يا ولدي، أينما كنت ستأتيك.

الآن يا ناجح، ضاعت الخلطة السحرية التي صنعتها بيديك، طلعت مقاديرها غير مضبوطة، زاد الملح في الأكل فخربت الطبخة كلها، بل احترقت.

لم يتعلم منك، كان أهوجَ كاسمه.

لا شيء يتغير في حياة الناس، يدخل من يدخل ويخرج من يخرج، ما يتغير فقط هو الديكور، لكن دنيتك انهارت كلها فوق رأسك.

الآن يا ناجح، كل الناس تجلس فوق قبور أحبائها مهما كانت معزتهم، وأنت تسير بقبر فوق رأسك.

الآن فقط تعرف بكاء الروح، صامت مذل، تعرف أن نغزة الروح بشعة، أنت لست وحيدًا فقط من غيابه، بل من غياب ظله، كل الظلال على الحوائط وابنك بلا ظلال.

وحِّدوه.

يسحب عينيه من متاهتهما، يعود إلى المتاهة التي تدور حوله، صوت أم حواء، كأنك لم تنتبه، أنت الآن تهذي، نسيت تمامًا أنها المرأة التي أكلت قلبها قبل أن تأكل أولادها، وحين استفاقت راحت تنادي عليهم أمام بحر لا يرد ودائعه إلا جثثًا.

تقترب منه على مسافة تكاد تلاصقه، تقول له بصوت لا يسمعه أحد:

بعد أن ينتهي العزاء، لا تنم ثانية واحدة، اِذهب إلى البحر، ناد عليه، بنفس النداءات التي كنت تدلله بها في صغره، حتى يسمعك جيدًا.

تكاد تغرز شفتيها في أذنه:

غرقى البحر يعودون بداخله أطفالًا، سيخرج لك، اِعرف منه اسم قاتله، ناد عليه ولا تَعُد بدونه مهما كان.

٢٠

أنت تفكر الآن في ناجح، يستولي على رأسك كلها، يحاصرها، أكل نافوخك، تكاد طاسته تطير.

نمل يلعب في دماغك، فئران تسرح تحت قميصك.

والطريق خانقة فعلًا.

مواكب الزوار بالساعات، تنغلق المدينة على نفسها، لا تعرف إلى أين تمضي، كأننا في بيت جحا، في ساقية العفريت، مدينة مقفلة أخذ مدير المرور مفتاحها معه إلى أن يطمئن أن الضيف غسل أسنانه ودخل مخدعه.

عذاب، عذاب حقيقي، لكن الريح لها قلبان، في قلب المأساة تنبت زهرة، أو تلوح يد، ينفتح باب ويمرق هواء بارد، لمح المقهى الذي جلس به عقب جنازة عماد حمدي وهو في أول سلمة من أيام عمله، مرت به لحظة حنين وارتاحت ملامحه، قرر أخيرًا أن يستريح، ليس مهمًا أن يصل في وسط العزاء أو في آخره.

عند أول رصيف، فرجة بسيطة تسمح له أن يحشر رأس السيارة فيها، ركنها ولا ونش بإمكانه أن يدخل الشارع ليحملها إلا إذا كان ونشًا طائرًا.

عندما حط قدمًا على الأرض والتعب يكاد يأكله، ربما قبل أن يلمسها، كان عامل المقهى قد طار من مكانه يشير إليه بحدة أن ركن السيارة ممنوع هنا.

بآلية وضع يده اليمنى على كتفه اليسرى، تعلو، تهبط وتشير، علامة أنه ضابط.

ابتلع العامل جرأته، وبلع المنادي الذي طلع من تحت الأرض جملته، لم يستطع أن يقول: هل ستتأخر يا سعادة الباشا؟

رماه باشمئزاز، وأشار بإصبع أن ابتعد، دون أن ينظر إليه.

لا يكره أحدًا في الشارع قدر طائفة المنادين، بلطجة على أعلى مستوى، على أصولها، لا تعرف مع من يعملون.

بالطبع هو يعرف، كل خمسة أو ستة يغتصبون شارعًا بالقوة، بوضع اليد، أحيانًا لهم معلم كبير يحميهم، يحمي نفسه، عين على الشارع وعين مع البوليس، يقتسم المعلومات والمعلوم معهم، يقبض ويدفع، والأمناء في حالة تناغم معه يعزفون لحنًا واحدًا مهما أمسكوا من دفاتر أو حرروا مخالفات.

ولو سألت عابرًا، أي عابر، سيقول لك بيقين تام: إنهم يفرضون إتاواتهم على الناس، نصفها أو يزيد يسقط في جيبة الحرامية الكبار، والشريف بينهم لن يصدق أحد أنه شريف.

وإن لم يكن لديهم في الشارع معلم أو كبير، فكبيرهم مكانه معروف.

في إحدى المرات، ما إن ركن سيارته في الشارع نفسه حتى طلع له من تحت الأرض واحد يريد المعلوم في التو واللحظة، رفض وبدأت مشاجرة، والمنادي يتكلم كأنها أرض أبيه وشارع أمه، ساعتها أظهر له العين الحمراء، دق على صدره بعنف: أنا كنت رئيس مباحث المنطقة عشر سنوات قبل أن تعرف أنت أين يقع هذا الشارع، كأنه يريد أن يقول له قبل أن تولد يا روح أمك، لكنه تراجع،

ساعتها أيضًا لم يتراجع المنادي عن مطلبه وإن تراخت نبرة صوته، دس يده، أخرج بطاقة عليها اسمه وعمله كمنادٍ، مُوَقَّعَة من معاون مباحث المنطقة ومختومة بختم النسر:

وكله من خيرك يا سعادة الباشا.

يختار مقعدًا بعيدًا في زاوية المقهى، أحلى شيشة وشاي لسعادة الباشا الكبير، نسر الحكومة كلها.

يتحاشى النظرات التي تلاحقه، يقلّب عينيه في المكان، جلس هنا عشرات المرات، عسْكَر هنا مع فريقه أحيانًا لمطاردة ألغاز إحدى القضايا، وأحيانًا نام ليالي طويلة في عز الشتاء.

ما زالت صورة عماد حمدي على الحائط نفسه في المكان ذاته، على الحائط المقابل واحدة مثلها تمامًا وهو يحمل الجوزة ذاتها في فيلم ثرثرة فوق النيل، بائسًا يقوم بالتخديم على أصحاب المزاج العالي، هو، هو لم يتغير-وإن صارت الصورة باهتة- وحل محله الآن آلاف يقومون بالتخديم على كل شيء.

يقوم من مقعده، لأول مرة يرى الصورة عن قرب، مكتوب تحتها أنه ودع الدنيا بائسًا يائسًا بعد أن أسعد الناس، ودعها على شاكلة صورته، وودعته هي بركلة حذاء قديم، معدمًا ليس في خزانته جنيه واحد، كما ودعت إدجار الآن بو وكافكا وموزارت، لم يزد عدد الذين مشوا في جنازة كل منهم عن عشرة أشخاص، وأنهى القساوسة المراسم بسرعة لقلة عدد الحاضرين، وإن تكفلت السماء بالتعويض إذ صبت ماء الحزن لأجلهم.

والمنادي بين حين وآخر يطل برأسه من باب المقهى، يفرك يديه، في عينيه نظرة مراوغة كلها لؤم وخبث من القاع حتى الشاشة،

خبث الخضوع، يفرك يديه مداهنة، ربما يكون قلقًا أن تقتلعه من مكانه، أو يريد خدمة، خدمة حقيقية أو نطت في دماغه فكرة ليصنع معك حوارًا، أي حوار، وهو يحني جذعه، ويداه خلف ظهره.

لعلك وعيت الآن جيدًا بعد دهر ونهر، ما الذي يريده الناس بتزلفهم للسلطة، كيف يتسلقونها وينجحون!، كنت دائمًا تصد هؤلاء الساقطين عشقًا وهيامًا بها، لم يدخلوها صدفة، لم تتعب مراكبهم ولا خشوا الغرق.

سلسال طويل لا ينقطع ولا تبرد ناره، وقُنْبُل على رأس هؤلاء، موديل آخر لكنه ليس داخل الكتالوج.

قنبل، اسم لن تنساه إلا لو قامت الحرب العالمية الثالثة، سائق ميكروباص وحبيب المباحث.

عند أية مأمورية يحط أمناء المباحث على موقف السيارات، في لمح البصر يأخذون أول سيارة عليها الدور، لنصف يوم، ليومين، وأحيانًا أسبوع، لا أحد يجرؤ أن يفتح فمه، نداء الوطن، يقوم شيخ الموقف من نفسه باقتطاع أجرتها من السيارات الأخرى التي تعمل ليعطيها للسائق حين عودته.

يأخذ السائق أجرته من أجرة زملائه ويقدم لهم الحكايات، قنبل يقدم لهم الحكايات وبطولاته في الموقعة، ثم يرمي قنبلته في النهاية عن دوره في المأمورية التي كادت تفشل لولاه.

أعجبته الحكاية، ما إن تهل الشرطة حتى يتقدم أول الصف ليخرج مع المأمورية، يهاتفني كل يوم عن معلومة جديدة، عن شحنة مخدرات في مخزن مواجه للمقهى، عن تخزين البضاعة بين جوالات الفحم، عن صبيان المخدرات وعن معلمهم، اللعبة مغوية

والنجاح في الحياة على بعد خطوة، راح يقدم المعلومات من تلقاء نفسه، وحصل إثرها على رتبة المرشد المتطوع.

يومًا بعد يوم كبرت معه الحكاية، يشتغل لوحده، يخطط للإيقاع بالمجرمين، يعمل سائقًا يومًا ويعمل معك أيامًا، حين تراه تعرف أنه ودع دنيا الميكروباص وتفرغ لقيادة الحملات على دولة المخدرات، والنصر قريب.

أصبح مقربًا من الحكومة، ينشل ما في جيب المتهمين، ليس طمعًا وإنما لأن القوة لها أظافر ومظاهر، ضرب شعره بالأكسجين، لبس سلسلة في يده اليمنى، علق مفاتيح في دلاية بنطلونه بها شوكة صغيرة تصلح لفك القيود، ولولا خشيته لاشترى قمصانًا مثل قمصانك.

حين تراه كأنك لا تعرفه، كأنه غيره، تحولت هيئته وملامحه من سائق لملامح وهيئة أمين شرطة يعمل في المباحث منذ ولدته أمه، ساعتها تيقنت أن السلطة لا تغير نفوس الأشخاص فقط، بل تغير الملامح ذاتها.

عاش في الدور، راح يعمل من تلقاء نفسه، وحتى بعد أن تركت مباحث القسم ومباحث المخدرات يطاردك بالمعلومات كما يطاردك الآن، يعرف القدم الغريبة التي تدب في المكان، لا ينام ولا يتركك تنام.

لم تكن ترده، تعلمت ألا تقتل المصدر حتى لو تركت الملعب، تمرره وتمرر المعلومة إلى ضابط آخر، لا تقطع رجاء المصدر ولا ذاته الجديدة مهما حدث.

هو مثل شحته تمامًا، مع اختلاف بسيط في الملامح والأهداف،

شحته يرشد ليعيش، لأنه خلق هكذا ويريد أن يظل على هيئته، وقنبل يرشد لأنه يريد أن يكون مرشدًا ثم تحوَّل لأمين شرطة خريج نفسه ويريد أن يظل هكذا.

كأن كل واحد منهما مولود من بطن أمه منذورًا أن يكون مرشدًا، وإن اختلفت الكليات التي تخرجا منها، لو أجروا فحصًا لهما ولغيرهما لوجدوا أن فصيلة دمهم جميعًا هي فصيلة دم سي، فصيلة جديدة غير موجودة في الإنسان العادي، دم أصفر، يمنح السعادة والحياة للجميع، مريضًا كان أو محتاجًا.

صحيح أن شحته يفكر في الاعتزال، لكن قنبل لا يلامس الأرض، مازال به نفس وشغف ولن يعود قبل أن يقضي وطره ووطر الآخرين، سم البطولة سرى في دمه، ونشوة التحقق، وحلمه أن يصبح أحد الأبطال في صورة لم تلتقط بعد.

طريق المجد مفروش بالأشواك والكوكايين، حاول الإيقاع بالمرأة التي تبيع البودرة في عبوات صغيرة جدًا، مدام شمة، اسمها هكذا، مناسب تمامًا لعملها، لا تعرف أيهما اكتسب صفته من الآخر، لا يريد الإيقاع بها وحدها، يريد أن يوقع المعلم الكبير الذي تعمل لحسابه.

أعجبته المرأة لكن لا مكان للعواطف، حاول أن يطرد الحكاية من رأسه، البطولة أولى، غدة المجد أقوى لكن غدة الشهوة صارت تفرز بغزارة، المرأة أيضًا أعجبت به، هي التي تعمل بلا قلب، لكنها تجاري الزبائن، قرر أن يشتري منها ويفرك إعجابه تحت قدمه، حين ذهب لتسلم البضاعة أدخلته غرفتها بعد أن سكّرت الأبواب احتياطًا، وهو واقف، شاهدها ترفع جلبابها من الخلف، تسحبه

لأعلى، ثم ترفع قميصها الداخلي وهو واقف، يرقبها حتى وصلت للكيلوت، شاهد كيس البودرة على فخذها الأيسر:

«مد ايدك خده، أنت مش أي زبون».

لا قلب للسلطة، أخذها، وشى بمعلمها، وزارها في الحبس.

أن تعثر على واحد مخلص مثله مثل العثور على نملة في بنطلون ملك، أصعب من العثور على الكحل في عيني الملكة، الكل جامح في اتجاه مركب السلطة، الذين يعيشون بالقرب منها لا يطيقون عنها بُعْدًا.

لكن البحر له ضفتان، الطامحون ليسوا خارج السلطة فقط، الصور تعبر أمام عينيك بالمئات، في مقدمتها صورة الشاب اللطيف الوسيم، أبوه ضابط وأخوه ضابط، لم يدخل كلية الشرطة بسبب عيب ما، أوجعته النهاية، لكنه بعد أن تخرج من كلية أخرى قرر أن يدفن حسرته، وألا يجعلها تعيقه عن هدفه القديم، حين تراه دون أن تعرفه ستقول إنه يشبهنا تمامًا، أكتاف مستقيمة مرتفعة قليلًا لأعلى، ورقبة منحنية للخلف، كل أصدقائه ضباط، يعسكر في القسم ليل نهار، لكنه لا يعمل وإن شارك في إبداء بعض الملاحظات أو سب بعض المتهمين.

يبدو أن ذلك لم يشف طموحه، هو ليس صديقًا للشرطة مثل المشتاقين، هو ضابط ولو لم يتخرج من الكلية، لا يتنفس غير هواء الشرطة، يعرف كل شيء عن البوليس ولديه حكايات تملأ روايتين، وفكرة التابع أو الصاحب تصلح لواحد غيره، أقل من أن تناسبه، هرش رأسه الممتلئ بالأفكار، قرر أن يصنع قسمًا للشرطة وحده، على مقاسه هو، قسم لا يقوم إلا بعمل وحيد، نَصْب الأكمنة في

الشوارع، التخصص مفيد أكثر للناس والبوليس معًا، يصطحب معه ثلاثة مغرمين من أصدقائه، يوقفون سيارة بالعرض في الطريق، يصنعون كمينًا للسؤال عن الرخص والتفتيش عن الممنوعات، والأمن والمتانة عند البنات، يأخذ البنات في البداية، يضعهم في سيارته ثم ينصرف بعد ذلك للبحث عن الحشيش.

معه مظاريف بيضاء، معه شمع أحمر، ضابط حقيقي ابيضَّ شعره في العشرينيات من عمره أسفًا على مستقبله، لكنه لم يسمح للأبيض أن يعطل مسيرته.

حين مر ميكروباص قنبل حاملًا ضباطه وأمناءه بملابس مدنية بالطبع، عائدين من مأمورية، أوقفهم، وحين شرع في سؤالهم وتفتيشهم، فاجأوه قبل أن يفاجئهم:

من أنت!

ضحكة هازئة علت، وبصوت آمر كطلقة: انزلوا، أنا معاون مباحث مدينة نصر.

ضحك آخر ساخر يمر فوق رأسه ويحاوطه:

«أمال إحنا مين»!

نهاية تكفي لأن تستلقي على قفاك وتغلق الحكاية، لا تكمل شيئًا بعدها، لكن المصيبة أنه بعد أن تدخل والده وشقيقه، كان رافضًا الانصراف من القسم، صامتًا، وحين استوضحه والده الذي شاب شعره مرتين بسببه، قال بثبات:

أريد الحشيش، والفلوس التي ضبطتها في الكمين.

مثله كثيرون، لو تذكرت كل الحكايات ستصل للعزاء قبل أن تكمل نصفها.

يطلب شايًا آخر، وحجر معسل جديدًا.

هناك من يرشد لأنه خلق مرشدًا، هناك من يفعل ليقترب من السلطة ويحصل على منافع مادية أو صيت في منطقته، وهناك من يحب الضابط حبًا عذريًا من طرف واحد، حب السلطة عذريًا هو أخطر شيء، يحبك جدًا ويخاف منك جدًا.

وهناك من يتلذذ، يجد متعته في أن يكون طرفًا في حكايات يغمض عينيه عليها قبل أن ينام.

خلق الله الناس ذكورًا وإناثًا، لكن الناس حوَّلوها إلى ذكور وإناث ومرشدين للحكومة.

ومرشدات أيضًا.

أسرار صغيرة مع أناس، لكن ناجحَ كان يعرف السر الأكبر، هو كاهن الرسالة، بولس الإرشاد، الديك الفصيح في دنيا المسجلين خطرًا.

دخل عليك ذات يوم، دخل بالحنجل والمنجل، وبدأ مرافعة طويلة:

يا باشا، أنت تعرفني عز المعرفة، نحن لسنا بلطجية، البلطجي يؤجر ونحن لا نؤجر، نحن خدام الحكومة، نحبها، وحتى لو كنا نعيش وسط العالم السفلي، فنحن يدك ورجلك، نقيم المداميك، ونحن القوة الضاربة لسعادتك.

يقول بإيمان يشع من عينيه، مؤمن برسالته، ورغم أن فمك اتسع عن آخره إلا أنك مازحته:

أنت رئيس جمهورية يا ناجح، وناجح فيها.

.. يا باشا أنا لو تعلمت، كان ممكن أكون وزير.

لا تعرف بماذا ترد، تعرف أنه ليس فتوة ولا روبن هود، لكنه يضع المنطقة كلها تحت إبطه بدون سلاح أو مظاهر خارجية تدل على عظمة كاذبة ومنظرة فارغة، لم يقع في الهوة التي وقع فيها كثيرون، بنوا قصورًا واشتروا سلاحًا وكلابًا وسلاسل.

يدير جمهوريته دون صوت عالٍ، مستمتع بالخفاء، حمى من أراد من المسجلين والناس، وجعل الحماية سلعة سرية، كذلك فعل ابنه بالضبط، كان الشعور بوجوده أهم من وجوده، كان صدر العالم السفلي عن جدارة:

ماذا تريد يا ناجح، هل تريد أن تخطب ابنة المأمور لابنك.

يحرك يدين عريضتين أمام وجهه كأن المياه ستنبع منها، يسوي شاربه ويمس صدر جلبابه الأنيق، وفي لحظة لم تكن تخطر على بالك، لا في أحلامك، ولا في كوابيسك الكثيرة:

أريد ان تتوسط لنا ليدخل هوجان كلية الشرطة.

ابتلعت ريقك، بلعت ابتسامتك: وماله، ليه لأ، شاب وابن أصول وجريء ويستحق.

قلتها بتعاطف كبير، لا يمكن أن تسخر من حلمه وجهًا لوجه:

لكن ألا تري معي يا ناجح أن المرشد الناجح الذكي أفضل من وظيفة الضابط، ومن غير وجع قلب، وساعات يكون مطلوبًا أكثر.

تتذكر ذلك الآن، أنت من يحتاج أن يهرش، تقوم من مقعدك ثانية، تقف أمام صورة عماد حمدي وتقول بصوت تكاد تسمعه:

لا بد من جنازة أخرى لعماد حمدي.

٢١

أنت متهم بإقامة علاقة...

بل أنت متهم بإقامة أكثر من علاقة.

يمد ساقًا على آخرها، يسترخي، يفرد كل ذكرياته ليشاهدها دفعة واحدة.

تمر حياته كلها في شريط، شريط اللحظة، كأن روحه على وشك أن تغادره، فيرى حياته كلها معروضة أمامه كما يقولون.

تتوالى الصور، تتدافع واحدة في ذيل أخرى.

لا تريحه سوى صورة أمه، تلوح كخلفية أو في زاوية، لا يتبقى على الشاشة سوى الذكريات السيئة، تنتصب وتزيح غيرها، في وسطها ويمينها وشمالها، أعلاها وأسفلها صورة ناجح، يملأ الشاشة، يكاد شاربه يتدلى خارجها.

عليك أن تعترف لنفسك الآن أنه لم يكن له أدنى ذنب في خروجه على المعاش، حتى ولو أخفى عنك بعض ألاعيبه، حتى ولو لم يكن على الصراط المستقيم.

يا رجل في أي كتاب أو حتى بُلْغة قديمة يمكن أن تجد مرشدًا تقيًا!

تقدم ليخدمك حتى لو كان يخدم نفسه، وأنت تقدمت لتخدم الحكومة حتى لو كنت تمارس عملك، وهي من أعطتك الخازوق

المتين، دسته لك في وضح النهار وباعتك، أمسكتك متلبسًا بالبضاعة رغم أنها صاحبة البضاعة، على الأقل كان ناجح يعطيك الخازوق من خلف ظهرك، بل من خلف ظهره هو، مرعوبًا أن تعرف، كان يفعل فعلته ويداري وجهك عنك وعن الشياطين ليمرق بها.

اسمع، الحكومة كان لها دائمًا مزرعة مثل مزرعة السمك، ترمي فيه الزرّيعة وتصطاد عشوائيًا ما تصطاد، لكنها الآن مثل المزارعين الجدد، تربي سمكًا خنثى وحيد الجنس، يؤكل فقط ولا ينجب.

فقعتك الحكومة الخابور رغم أنك ابنها حبيبها، ساعتها فقط اكتشفْتَ أنها عقيمة لا تنجب وحتى إن أنجبت فلا تعترف بغير أولاد الحرام، ليست حبيبة أحد ولا حتى حبيبة نفسها، وسكينها حاضرة وإن أخفتها، وراء ظهرها أو ظهرك.

يمُدُّ ساقه الأخرى كي يستطيع مواجهة الصور المتدافعة، وليعُد الخوازيق على مهل.

لا تلم ناجح إذًا، الكل يخبئ ولا تعرف له مخبأً، البنت التي أحببتها وأردت أن تعطيها عينيك خبأت أيضًا، حين تركتك في منطقة رمادية تضيء مرة وتغبش مرات، تفتح نافذة وتغلق بابًا، تغني مرة ويصير وجهها كالجبل مرات، عقدت جبينها وهربت وأخفت عنك هربها.

أخفى عنك ناجح ما أخفى مع أنه كان بمقام حبيبتك ولم تستطع أن تتقبل الخسارة فيه.

أنت أيضًا خبأت حكايتك عن الجميع، خبأت ما لا يخطر ببال، حتى عن نفسك، لم تستطع أيضاً تقبل الخسارة في ثريا ولم تحك حكايتها لأحد.

في الحياة هناك ما نخبئه، ما يجب أن نخبئه، لا أحد يكشف المستور كله، مثل طائرة نفاثة تترك وراءها دخانًا أكثر بكثير من طول رحلتها.

احكها، تخلص منها، لن يلومك الآن أحد، قل لنفسك بشجاعة ثم للآخرين حكاية ثريا الخادمة اللطيفة التي سرقتك، عرّتك وتركتك في قلب الشارع بالسروال الداخلي فقط.

لم تستطع أن تنبس أو تفتح فمك حتى لعبقرينو، عضضت لسانك ولم تستطع أن تواجه حتى نفسك، أن تشطب من حياتك هذا العار.

لم يحدث هذا لضابط من قبلك.

لا، بل حدث مرة واحدة، رئيس مباحث في منطقة مهمة تحت الأضواء بها سفارات وسفراء، ملء السمع والبصر، لا تفلت منه قضية، لا يجلس على مكتبه من كثرة مريديه، يظل واقفًا دائمًا يسلم أو يرحب، كأنه مرشح دائم للبرلمان، كأنه سيتزوج بنت الحكومة، يسكن في الطابق السفلي من فيلّته، ويؤجر الأعلى لوسيم أنيق شكله ابن ناس، تحرى عنه قبل أن يوافق، أخذ بطاقته وضاهى بصماته.

في ذلك الوقت، كان مشغولًا بلص بارع، يسرق الشقق في منطقته، لا يكسر أبوابًا، لا يترك أثرًا واحدًا، يقوم بالجريمة الكاملة، لا يستخدم مفتاحًا مصطنعًا، ابتكر طريقة بنت حرام، وان مان شو، يحمل في جيب بذلته الأنيقة كالونًا آخر للباب، يدفعه ببراعة مكان الكالون القديم ليسقط الأخير داخل الشقة، بمنتهى الحنان يفتح الباب بمفتاحه الجديد، يسرق على مهل دون بصمات، يسرق بأناقة ولا ينسى عند خروجه أن يعيد ـ بمنتهى الحنان أيضًا ـ الكالون القديم لمكانه، لا يعوقه حارس ولا بواب.

داخ الضباط، راقبوا التماثيل، رفعوا البصمات ولا من مجيب، كادوا يعتزلون، يسخر منهم، سرق شقة أحد الكبار بنعومة يُحسد عليها وترك له بطاقة شكر على وفرة الغنيمة.

هذا الوسيم الأنيق الذي يسكن في الطابق العلوي لفيلا رئيس المباحث هو من نهب كل هذه الشقق.

لطيف ومجامل، يفعل فعلته، يمر بأناقة وأدب على رئيس المباحث في مكتبه يشرب القهوة أو الشاي، متلصصًا على الجو العام، يقول بثقة: إن هذا اللص مهما بلغ ذكاؤه سيقع، ثم يضحك في سره من استنتاجات معاون المباحث.

مرة وحيدة في غمرة نشوته الفاحشة نسي الكالون الجديد في مكانه وأقفل الباب خلفه.

وكانت فضيحة.

لو كان الضابط من فصيلة الذئاب التي تخجل من نفسها حين يضحك عليها غريم، يتركها أمام خيال أو ناطور ويهرب، لطقّت بطنه في الحال حسرة وكسوفًا.

لم يتحمل الضابط أن يبيت اللص في عشه، أن يخزن المسروقات في بيته، أن يسرق ثم يشرب القهوة في مكتبه، لص ينام في حضنه بل للأسف ينام أعلاه وربما يمد يده من نافذته يتحسس مؤخرته ويعرف لون سرواله.

ورغم أنه نجا من أزمة قلبية لكنه عرف أنه سيعيش بلا وجه، بأنف أسفل فمه أو عند قدميه، فأخذها من قصيرها واستقال، استقال وباع الفيلّا.

كانت فضيحة وجرسة، لكنك أخفيت فضيحتك.

يحرك ساقًا بقلق واضح، مثل عصب ساخن حائر في ساق لا يعرف أين مكانه، لكن يحس بالوجع دائمًا، انتبه أنه في المقهى فاستعاد هدوءه وطلب عنابًا.

لم يوافق أن يُحضِر له ناجح أو حتى واحد من زملائه خادمة، يعيش وحيدًا لا يقبل أن ينظف له عسكري شقته ولا أن يسخّر له أمناء المباحث من ينظف ويتلصص، يتحرك في مسافة محدودة، غرفته والحمام، بالكاد يسمح للبواب أن يحضر واحدًا ينظفها أو واحدة في حضورهما معًا، كان حريصًا أن يبعد أيًا كان عن مخدعه قبل أن يحضر عبقرينو خادمة تنظف اللوحات والكتب وتطبخ له حتى ولو لم يأكل.

جاءت خجلى بشبح ابتسامة أو بابتسامة متأخرة، راحت تقفز للأمام مع الأيام.

نظيفة، تبرق، بجمال خافت مختف ربما بسبب الشقاء ولقمة العيش، صبوحة بعينين غائرتين تستجديان عطفًا زادها جمالًا.

غريبة، تنتظره بالساعات حتى ولو لم يحضر، حتى ولو حثها مرارًا على الانصراف.

لا تخرج قبل أن يأكل، تغطيه حين يندلق من التعب على أقرب كنبة، تنزع له الحذاء والجورب.

شَمَّتْ أن روحه متعلقة بأمه، عرفت أنها غائبة حاضرة ومقعدها فارغ، راحت تتسلل ببطء، تداوي له عين السمكة بعد أن سحبت ساقه ووضعتها على فخذها.

لم تسأله يومًا أجرها مهما تأخر أو نسي، لم تطلب خدمة لنفسها، تنط كل صباح قبل أن يخرج، يفتح لها الباب ويتركها ذاهبًا للعمل، وحين بات ثلاث ليالٍ خارج البيت عسكرت على السلالم حتى هبط الليل، أعطاها مفتاحًا حتى لا توقظه، كانت من قبل تنتظره خارج الباب حتى يهم بالخروج.

كل شيء في مكانه، لا فتلة خارج إبرتها.

لم يحتفظ بصورة بطاقتها، سيأتي بها- بأي واحد- ولو كانت تختبئ وراء الشمس، كان مطمئنًا أنها اختيار عبقرينو، لم يفكر في اختبارها رغم أن النساء كلهن يفعلن ذلك، يفتشن حقائب الخادمات وأحيانًا يفتشهن ذاتيًا قبل انصرافهن.

تتسرب إلى حياته نقطة نقطة، تضع قدميه في الماء والملح، تصر أن تدعكهما، تمنّع في البداية لكنه في النهاية استجاب.

تقشر له عين السمكة الجديدة، تسحب ساقه لفخذها، تكْحت وتدهن على مهل، الملابس في مكانها، الجوارب لم تعد تضيع، وحين يتأنق تقول: عريس بسم الله ما شاء الله، وحين تعثر على شعرة نسائية بين ثنايا المخدات، بابتسامة خاطفة تقول: حاسب على نفسك من الصلع، الشعر الغريب يضيع الرزق.

تودِّعه عند الباب.

خبأ حكايتها عن الجميع، خبأ أن ثلاثة هواتف ضاعت، تخيل أنها سقطت منه أثناء المطاردات الكثيرة، ربما نسيها في مقهى أو معرض والتقطها من التقطها، كان يخشى أن يفتح أحدهم هواتفه ليعرف أرقام الضباط، لذا كان يكتب اسم العائلة فقط أو يضع صفة ما.

اختفت الهواتف، ورغم أن عبقرينو جلس لها بالمرصاد، لكن لا أحد استخدم واحدًا منها ليلقط مكانها بمجرد فتحها، لذا هدأت الحكاية ونامت:

فنان طبعًا، تنسى اسمك حين ترسم.

كان يعرف الخادمات جيدًا، مرت عليه عشرات القضايا، يسرقن من يعملن عنده حتى لو عملن خمس سنوات، حتى لو صرن جزءًا من الأسرة، كل الضباط مقتنعون أن الخادمات خائنات، كان يقول دائمًا: إلا واحدة.

كان يقول بحس الفنان لا حاسة الضابط.

لم يستطع أن يعطها من ملابس أمه التي يحتفظ بها، لكنه كان يعوّضها، يمنحها ما تشتري به، يراها صدفة تجلس على الأرض أمام خزانة المرحومة، تخرج ما بها، تغسلها، تعطيها للكواء وتعيدها مكانها من فترة لأخرى حتى لا تأكلها رائحة الغياب، كأن أمه ستدق الباب وترتاح عنده قليلًا، ثم ترتدي هذه الملابس وتخرج بها في المساء.

اصطادته من بوابة أمه، ذكرى الحاجة، ملابس الحاجة، عطرها وجمالها.

.. الملابس أيضًا تشعر بالغياب يا سعادة الباشا، تشتاق أصحابها، تشتاق رائحتهم وعرقهم.

وشبح أم ثانية يتحرك في البيت، أم صغيرة.

تدخل عليه بخفر حين يهم بالنوم ظهرًا أو عصرًا إن عاد، تُدخل رأسها فقط، بعد عدة مرات دخلت برأسها وصدرها، ثم دخلت

كلها، تسأله بصوت خفيض، يسألها بصوت غائب من فرط التعب، تغطيه وتخرج على أطراف أصابعها، وحين أوجعه ظهره ذات مرة وحار بين الأدوية تقدمت بجسارة، تقدمت كشيطان أنثى، مسدت له عموده الفقري فقرة تلو فقرة، ثم- يا للهول- مست مؤخرته، مؤخرة ضابط المباحث.

قلت لك دخلت كلها.

كانت يدها دافئة طرية تضغط وتدور، تضغط ليخرج الألم، ورغم أن ارتفع بجسده قليلًا حتى تبعد يديها، إلا أن الشيطان حضر، لكنه لا يعانق امرأة متزوجة حتى لو دعته، حتى لو كانت خادمته السخية.

صارت سخية، بانت عليها النعمة من راحة البال والغداء في بيته، أصبحت حريصة على سخائها حين تخطر بجلبابها، تشده من وسطه للأمام وتتأنى، وقبل أن تخرج تلبس حذاءً بكعب عالٍ كي تتقلب في كل الاتجاهات.

بدأ الفار يلعب في قميصه، لكنه طرده.

إلى أن أتى محصل الكهرباء، كان يأكل سمكًا، أشار لها بعفوية إلى الجيب الأيسر لبنطاله، لتمد يدها وتسحب النقود، يتذكر الآن أن ابتسامة ممحونة تسللت لوجهها، تقدم رِجْلًا وتسحب أخرى، وربما ضحكة مرقوعة حبستها بذكاء، وقفت تنظر لأسفل جيب بنطاله، تضحك ضحكة نصفها هازئ نصفها خجل مقصود، نصفها متردد ونصفها يسعى.

مرت الحكاية كأنه لم يرها، لكنه صار حريصًا أن يعاملها نفس معاملته لناجح، يحضر أحدًا معه ويصرفها بسرعة، وإن تعذر يخرج لها معاوية حتى لا يتورط ويخرج لها عليًا.

قرر أن يتخلص منها، وبسرعة، لكنها سقطت من طولها وهي تضع الغذاء.

حملها بنفسه إلى المستشفى، لم ينتظر سيارة الإسعاف، قال الطبيب إنها مصابة بأنيميا، تراجع عن قراره وأصبح حريصًا أن تأكل قبله من الطعام الذي تعده له، يسألها عن الأدوية ويتابع.

قالت إنها مرعوبة أن يتركها زوجها وأن حماتها تضغط على ابنها ليتزوج وينجب، تعاطف معها خاصة بعد أن أشهرت سلاح دموعها، قال لها: من اشترانا نشتريه ومن باعنا نبيعه.

كان يقول من خلف قلبه.

داخت مرة أخرى، خشي أن تسقط ثانية، قالت إنها أجرت حقنًا مجهريًا من قبل وفشل، وتريد أن تحقن ثانية، حقن لها على حسابه الخاص، لم يعد عنده من يهتم به فاهتم بها.

اختفت كل الهواجس، ملأت الشفقة قلبه، تمددت ونامت.

فكر في لحظة مجنونة أن يرسمها، أجلسها أمامه ورسم نصف وجه إلى أن يكملها:

والباقي يا سعادة الباشا؟

عاد ليرسم نصف وجه خجل ونصفًا شريرًا، لم تفهم، هو لم يفهم ولم يحاول:

هو أنا اتنين يا سعادة الباشا.

فكر في وقت أن يجعلها موديلًا، لكنه بعد موقعة السمك والبنطال طرد الفكرة، خشي أن يتحرك السمك ويلعب في البحيرة.

لم يكن يعرف عدد اللوحات التي رسمها، تملأ جدران البيت،

بعضها مكدس في غرفة أخرى، وهي تتفحصها باستغراب، تنقل لوحة من مكانها بحرص، مرة سألها عن لوحة يحبها قالت إنها استعاضت عنها بأخرى أجمل منها.

فرت منه ضحكة ابتلعها بسرعة، في اليوم الثاني أعادتها.

يمد ساقًا، يسحب أخرى ويطلب شايًا.

الغريب أن قدمها تثاقلت عنه حين خرج للمعاش كما تثاقلت قدم ناجح.

في البنك أخبره الموظف إن النقود ليست كما قال، ناقصة، كانت مكافأة المعاش وعائد الصناديق التي اشترك فيها، استلمها وعاد للبيت إلى أن يضعها في حسابه في البنك الذي يتعامل معه، لكنه تلكأ لأيام قليلة.

وانقطعت أخبارها.

لم يقم بعدّ النقود لحظة استلامها، البنك قد يخطئ في ألف لكنه لا يخطئ في خمسين ألفًا.

حين دق الباب فتحت بابتسامة صفراء مترددة، بدت خائفة ثم ركبها الرعب، لكنها أخفت ما استطاعت، تمالكت نفسها، دفعها ودخل.

لم يدفع امرأة بقوة من قبل رغم كل القضايا التي بها نساء، لم يسأل نفسه أي سؤال، إن كان زوجها هنا أم لا؟، هل تحدث معركة، هل يتهم باقتحام منزلها؟

عبَرَتْ أمام عينيه صورة واحدة: ماذا لو كان قد واقَعَها يومًا؟ أو اشتكاها الآن وحبسها بتهمة سرقة النقود، يتخيل منظره وهو واقف أمام المحقق يقول له:

أنت متهم بإقامة علاقة.

لعبت معه كل الألعاب، الخادمة، المريضة التي تستحق الشفقة، المشتاقة للولد، الممحونة، الأم.

كان عبقرينو في نصف هدومه، يتصبب عرقًا.

لم يسألها شيئًا.

أتيت لزيارتك في وقت غير مناسب؟

حين صدمته لوحاته على الحائط أحس أن الوقت مناسب جدًا، رأى لوحة النعل، نعل الفتى القتيل المتخم بلسعات الفحم، يتذكر أنه بكى بمرارة على هذا الفتى.

أشار لها بالصمت، أشار لعبقرينو أيضًا.

وجد قمصانه في الدولاب، وجد بدلتين، بنطلونات، لم يفكر بالأحذية لأن غيابها يتم اكتشافه سريعا، جواربه، وجد الكاسيت الذي كان يسمع فيه شرائطه، والدفاية التي نسيها، وجد الهواتف مغلقة كما هي، بأرقامها وصورها، صور أمه وأبيه وأخيه وحبيبته القديمة.

وسؤال يتيم حارق: لماذا!

.. لم أنجب، كنت خائفة من الزمن، أن يتركني زوجي ويتزوج عليَ.

لماذا؟

بعض الخادمات يسرقن، هذه لم تكن تريد أن تسرق، تريد فقط أن تستعير حياتك، أن تعيش عيشتك.

يسرق من يسرق ولن تنتهي السرقة، لكن هناك من يريد أن يسرق حياة الآخرين ليرتديها هو.

كاد يمضي من القرف، قرصته حاسته، عاد ليفتش، وجد دبلة زواج أمه، قطعًا من ذهبها رغم أنه أخفاها حتى عن عينيه، خمسون ألفًا في لفة واحدة وخمسون منفرطة في لفات أخرى.

كانت تسرقه باستمتاع، بتلذذ، تسرقه بنفس مشيتها وحديثها ويديها الرطبتين.

كانت تعير قمصانك وبلوفراتك لجيرانها في الشارع.

في الحارات الشعبية الكل يستعير من الكل في فرح أو حزن، وهي أصبحت مستودعًا للجميع.

لماذا؟

كنت أريد أن أؤمن مستقبلي.

تؤمن مستقبلها وأنت الذي لم تفكر يومًا أن تؤمن أكثر من الشهر الذي تأخذ فيه راتبك.

أنت استمتعت بحياتك في البوليس ولم تقبض شيئًا يذكر، وهي استمتعت بحياتها في بيت ضابط البوليس.

لم يستطع أن يمد يدًا ليصفعها ولا أن يسبها، والبصقة التي كاد يطلقها في وجهها حبسها داخل فمه وأبقاها لنفسه.

يخرج.

يلحقه عبقرينو.

في هذه الليلة تحديدًا لن يذهب عبقرينو إلى البار.

٢٢

لن أحذرك هذه المرة أيها القارئ، الحظ السعيد يبتسم لك، الموال يحلَوّ، رغم أن هناك ميتًا وعزاء، دنيا التي تراها من بعيد داخل السرادق، تظهر كطيف وتغيب كسر، تجهز مشروبات ناجح فقط ومن حوله من ضيوفه الكبار، هي بطلة حكايتها وحدها وهي من حكتها، جاءت إلى المنطقة من الغيم، أسقطتها السماء فسكنت هنا، تخرج من الظهر وتعود في الليل إن عادت، لا أحد يعرف عنها شيئًا، على باب الله، في الأول كانت سافرة بجلباب طويل، في حالها، تقول إنها تعمل في معرض سيارات، تنظف وتكنس، وحين تنتهي تعمل في البوفيه تجهز الشاي والقهوة، لا يعرف أحد إن كانت ميسورة أم لا، لم تكن تعمل في معرض سيارات لكنها كانت تقف في الشارع للسيارات، يلقطها من يلقطها، تقضي وطرها وتطيل، لم يكن يعنيها الوقت الذي تقضيه تحت أحد، لكنها كانت تفاصل في النقود، لها تسعيرة محددة وأنت وشطارتك.

حظها من الجاذبية كان أكثر من رزق الجمال، بجسد شاب عفي يجعل الصياد يغض النظر عن الشكل من فخامة الوليمة، لماحة تفهمها وهي طائرة.

عندما فارت وصارت أنثى، احلوَّت في عين خالها فقطفها لنفسه، أخذها حتى أدمنت الحكاية صاغرة أو محبة، حين أحست

بالحمل غادرت قريتها، صادفت بنات حلال مثلها خلصنها وبدأت طريق الكفاح من أجل لقمة العيش.

قلة الحيلة غلّابة والعمل بالحب ضرورة، راحت تأكل عيشًا بجسمها، وبعد أن استقرت أمورها راحت تأكله بجسدها، تسكن مع ثلاث بنات أخريات كلهن يعملن في معارض سيارات.

فجأة ارتدى الأربعة الحجاب، الصيادون يحتاجون بائعات حب محجبات لا يكتشفهن أحد في الطريق، حتى لا يلفتن النظر ويستطعن ممارسة عملهن بعيدًا عن الأعين، كانت ظاهرة، اختفت بائعات الحب من الشوارع وحل محلهن بائعات بخمار أو إيشارب خفيف.

ثم حدث التحول الأكبر، وشاركت التكنولوجيا بنصيب كبير في الحب، ظهرت الهواتف المحمولة، حملنها لأسابيع قليلة حتى يعرف الزبائن أرقامهن، ثم اختفت البنات مرة واحدة من الشارع، كن يساهمن أحيانًا في كشف غموض جريمة، تبخرن من الطرق وسقطن في هواتف الصيادين.

من يعرفها يحن إليها، تصنع جوًا وتترك سيرة طيبة، شعارها أن تريح الزبون لا أن تخطفه على السريع، لذا لا ينساها أحبتها مهما تنقلوا بين أفخاذ أخرى.

تعمل بمزاج، كأنها تتزوج كل واحد على حدة في وقته، كأنها مفتقدة للزواج أو للبيت فتطيل فيه، تجلس في مقهى بين طلعة وأخرى تأكل وتشرب قهوتها وتمازح العاملين، بنت طيبة تجري على ذراعها.

تترك الزبون على حريته، معاشرتها مغوية بكسر المحاذير، في لحظة اكتشفت أنها حامل في الشهر الرابع ربما الخامس، لم تكن تعر الأمر اهتمامًا، سابقة خالها والتخلص من آثاره جعلها تعتقد أن

الموضوع سهل ويمكن مداواته بسهولة، في البداية حاولت تخمين من وضع بذرته فيها، لكن العداد لم يتوقف عند واحد بعينه، وحتى لو توقف ماذا ستفعل؟

سترها من سترها، خبأتها صاحباتها وتكفل واحد كانت تعجبه بمصاريف ولادتها، للأمانة قامت صديقاتها بواجب كبير.

معها طفل، عادت للسيارات مرة أخرى، لا تفهمني خطأ وتعتقد أنها عادت للشارع، بالعكس، حنت عليها قوادة رفيعة من النوع الممتاز، تخدم عندها في البيت، تعاين البنات وتضع لهن الماركة المناسبة، حولت البنات لسيارات، حين يتصل زبون يسأل عن البنت، عفوًا السيارة تقول المرسيدس سافرت في مشوار بعيد وقد تعود غدًا، لدينا شيفروليه على الزيرو مؤقتًا.

من يحتاج واحدة بمؤخرة كبيرة يطلب سيارة هاتشباك.

وقعت القوادة، كادت دنيا تروح في الرجلين، استعملوها كشاهد ملك، سمعت ورأت لكنها تنظف فقط وتدهن العجلات ولا علاقة لها بسباق السيارات.

في لحظة سألها الضابط وهي تحمل طفلها: ابن من هذا؟

ردت ببراءة وخوف:

ابن الشعب يا سعادة الباشا.

لا تعرف كيف صاحبت الزعفراني، ربما في مترو الأنفاق حيث يعمل، ركبا معًا في آخر وردية، تحتاج لمن يحمل همها وهو حمال هموم من يومه، كان طفل العجز، أنجبه أبواه بالصدفة بعد أن فقدا كل الأمل بل ونسيا الموضوع، ماتا وهو صغير، الخال حاضر في

حكايتهما معًا، ربما يكون هذا هو السبب في معرفتهما، شكيا الهموم ولعنا سيرة الأخوال، وسخرا معًا من مقولة «الخال والد»، نهبه خاله لكن إرثه كان كبيرًا بما يكفي لأن يرفض الزواج من ابنته، خطب عشرين واحدة، كان الآخرون يصورون له أنهن طامعات في ميراثه، وقع في فخ الأفلام البورنو وعاش حياته، يتفرج على فيلم ثم يستمني وينام، لم يعد في حاجة لرفيقة، عنده مائة رفيقة على الشاشة يكدن ينادينه: مدد يا زعفراني.

مشكلته الوحيدة كيف يدخل إلى الفيلم.

أوقعته جارة لهم طمعًا في نقوده، لكنه فشل، بطلته في مكان آخر، في صندوق ملون، في شريط سي دي، وانتشر الهمس عن عنته، وخيبته، ثقلت رجله عن القرية، وأجر شقة صغيرة كانت من سعده، قريبة من بيت دنيا وصاحباتها، راح يتخيل كيف يدعوهن معًا ليمثلن فيلمًا خارج الشاشة، لكنه خاف من فضيحة أخرى.

هي تحتاج رجلًا ولو كان يكبرها لتربِّي الولد، وهو يحتاج من يخرجه من الشاشة.

تلعب عليه كزوج بعد أن اعتزلت جرَّاء واقعة الماركات، وهو خائف يدخن الحشيش

لينسى، يشاهد الأفلام لينسى، يسهر في قهوة ناجح يفكر فيها، هل يقدم على الخطوة أم لا؟ أخذ قرش حشيش معه للعمل ليساعده على اتخاذ القرار الصحيح، شرب حتى طار من على الأرض ثم وضع سي دي من أفخر سيديهاته داخل الجهاز الذي يحدد ميعاد وصول القطار والتعليمات، وهاص الركاب، كانوا يضحكون وهو يضحك.

استقال، باع باقي الأرض وتزوجها.

٢٣

إذا كنت تعتقد أن لاعبي كرة القدم هم من يعتزلون فقط فأنت لست معنا على الخط، تعيش في دنيا أخرى، وإذا كنت تعتقد أن «قنبل» هو من سيعتزل فأنت مغيب، قنبل لن يعود الآن قبل أن يقضي على دولة المخدرات كلها، حتى لو شرب لوحده كل أطنان الحشيش، يقول هذا بلسانه لكنه بقلب ساخط يرشد عن الآخرين، يتمنى في قرارة نفسه أن يظل الحشيش موجودًا وإلا انتفت الحاجة إليه وألغيت البطولة نفسها.

شحته ليس مثل قنبل، وضع قانونه منذ البداية، لا يقدم معلومة تحبس أحدًا، يكتفي بأن يُحبَس هو.

وحتى هذه يفكر بجدية في اعتزالها، المسألة ليست سهلة، لمن سيترك حيطان السجون؟ من الذي يهون على الآخرين حبسهم، من سيعانق السجانين حين دخوله!

تأخرت يا شحته، وحشتنا.

حتى الدنيا ليست سالكة يا شحته وطيعة على طول الخط مع أنك تعطيها أكثر مما تطلب، تحبس نفسك كي تضحك هي، وما شبعت!

لذا يجب أن تلاعبها أنت وتعتزل فجأة لتفاجئها هي، واحد فقط يفاجئها ويلعب لعبتها، والمفاجآت واردة.

هناك من تبول في رأسه في أحد مشاوير الحبس الشريفة، عرض عليه أن يبيع إحدى خصيتيه بمائة وعشرين ألف دولار، يضعها في البنك ويصرف من ريعها طوال عمره، ورغم أنه بوغت، إلا أن الفرار صعب، صحيح أن السجن تعود عليه ولم تعد هناك حبسة تبل القلب، لذا بدأ يفكر بعمق.

الحبس في الأول كان عملاً، مع الوقت صار داءً ورغبة قاتلة، ومن يهرب من دائه بسهولة؟

يفكر، خصية واحدة سوف تقيه شر السؤال، كبر مع الأيام ولم ينتبه، خصية تعوضه عن كفاح العمر بعد أن صار بيع الكلي موضة قديمة وخطرة، وهو كهل بالكاد تعمل كليتاه بالعافية، ولا يمكن التفريط في واحدة، تضررتا كثيرًا من النوم على إسفلت السجون، ونهشهما البرد دون غطاء في ليالٍ طويلة، دون حشوة تمنع تسلله، ونومه في غرفة أصدقائه السجانين لم يحدث إلا في الأواخر بعدما عدم جسمه.

الآن يتحسس خصيتيه خشية أن يكون البرد وعدم الاستعمال قد أكلهما، العضو الذي لا يُستعمل يضمر ويضعف.

الذي لا يعرفه أحد ولم يخطر ببال شحته نفسه أن الأقدار لها وجه رحيم أحيانًا حتى مع المرشدين الصغار، شبكت سنارته فجأة مع آيات التي أنهكها التعب من الذين يزورونها بالقوة، يغطون عليها كذئاب جارحة، ولم تسمع كلمة شكر، كل ما أخذته العلامات التي سببت اعوجاجًا في ملامحها، كما أنهكها أيضًا غيابهم مرة واحدة بعدما نالها العطش، وجدت عند شحته ما لم

تجده عند أحد، وجدت من يربت على كتفها، من ينظر إلى وجهها الجديد بسعادة، من يحضنها عندما يأتي وعندما يخرج.

صارت سعيدة، يتهيأ لها أحيانًا أن تقدم له مُوسىً حنونًا وتقول: اِجرح أي مكان تحب، أنت تستحق كل الأمواس وكل الضربات.

لم يبخل عليها بضرباته، لم يبخل على نفسه، تقابلا كل واحد بعطشه، والتقى العطشان، كلاهما يعوض ما فاته من رغباته وأحلامه.

وكما حدث للرئيس السادات حين أتته فكرة زيارة إسرائيل وهو في طائرة في قلب السماء، اتخذ شحته قرار الاعتزال وهو في حضنها.

ربما كان شحته أول مرشد يعلن اعتزاله دون سبب خارجي، ولا حاجة به لمباراة اعتزال وسط الجماهير، يعتزل في سرير آيات وحضنها وخلفه آهات الجماهير التي زأرت في وجهها، كأنه يغيظ الجميع أنه أخذها بالمحبة، حتى لو أخذها بالحاجة، بقلة الحيلة، الأشجار التي لم تنبت خارج بيتها من كثرة دهس الزوار ودعكهم، تنبت الآن في غرفة نومها وفي غرفة قلبها.

وإن ذبل فيها شيء فأنت أحييته، وإن مات فيها شيء فقلبك تابوته.

أعلن اعتزاله، صحيح لم تكن عنده سلطة تذكر لكنه أحدث مشكلة كبيرة، من صنعه لم يفكر على الإطلاق بلاعب احتياطي يملأ فراغه.

حين حكى لها الحكاية، وأنه يريد أن يبيع واحدة، ارتجفت في البداية، ثم ردته بقوة:

عثرت عليك في كومة القش، بل في كومة الثعابين.

تذكرت أسلحة أنوثتها، مازحته: لنكن كما نحن، أنت حبسة وأنا حبسة.

قايضته على حلمه بأن تُحبس مرة بعد مرة بدلًا منه، ثم قايضته على أن تحبس هي في كل المرات، شرط أن ينتظرها.

هو لا يعرف أنها لم تعد تريد شيئًا من الدنيا سوى واحد ينتظرها، بعد أن كان الواقفون على باب سريرها كطابور الميكروباص في الميدان القريب.

هي تنتظر ابنها، ولا تستطيع أن تتحمل انتظار اثنين.

يسرح، يغيب طويلًا ويمسك بخصيتيه معًا، ثم يمسك خصية واحدة، يفكر أن يبيع اليسرى، الشمال دائمًا مسكونة بالشياطين، وهي تستحثه إن كان مصممًا على البيع أن يبيع اليمنى الطيبة، ويترك اليسرى بشياطينها، وتضحك.

تحاول أن تُخرجه من الموضوع بذكاء حتى لا يصمم عليه، تعرف أنه يريد أن يعوض كل أيامه الفائتة، تقترب، تضربه بغنج على كتفه:

حاسب، بالراحة، أنت تلعب كثيرًا في البضاعة..

ترقع ضحكة:

أنت تلعب بالملايين.

٢٤

ألا تعتقد أنك ذاهب لفخ ما؟

أنت لست في لحظة عادية، وعليك أن تفكر أن ناجحَ بالطبع في لحظة غير عادية، كل أفعاله ستكون مبررة، لديه كل الأعذار.

هل أنت في الوقت المناسب؟

اختيار اللحظة المناسبة والتوقيت هما من أنجياك دائمًا، لا تستطيع أن تحدد ردة فعله، قد ينتقم منك وعلى ملعبه وسط جمهوره، والنتيجة محسومة سلفًا.

ستذهب إلى النار برجليك، ولن يستطيع أحد أن يجد لك مبررًا واحدًا أو يختلق لك عذرا، بل ستتطاير الأقوال عن علاقتك به، وأقل جملة: أنك كنت تتربح منه أو تستغله، الأسوأ يا مولانا الضابط أن يقال إنه كان يستغلك.

سيعمل خيال الجميع على اختلاق قصص وحكايات سيصدقونها هم قبل الآخرين: كنت تتاجر معه في الحشيش أو تأخذ نصيبك بسبب حمايته، ستتحول من ضابط مجنون بصفحة نظيفة إلى مجرم، سيكون المجرمون أفضل منك، لعبوا على المكشوف، لكنك خرَّبت أساس اللعبة، لعبت من تحت الطاولة وشوهت المداميك.

أنت ذاهب إلى فخ.

قد يأكلونك هناك، ولن تستطيع أن تحتمي في كونك ابن الحكومة، أنت الآن لست ابنها ولا صلة قرابة بينكما، أنت بالكاد ابن سابق، ابن بالتبني على أفضل تقدير، في حالتك تحديدًا ابن من زواج سابق، أبوك تزوج من أخرى طردتك من البيت عند أول فرصة.

وسؤال وحيد: إلى أين أنت ذاهب؟

يهرش رقبته: لقد رأيت بعينيَّ ما يجعلني الآن أغير وجهة سيارتي دون تفكير، أعود إلى البيت لأرسم أو أذهب إلى أي مقهى.

اسمع، أنت تعرف جيدًا أن ناجح عاقل، يحسب حساب كل شيء بهدوء، ولن يجرؤ شيطانه أن يتقدم منك أو يرتكب أية حماقة معك، يعرف قدرك، بينكما مسافة مملوءة بالرهبة والخشية رغم أنك قربته وأجلسته على حجرك، لكنه كان يقول لك في لحظة دعابة:

كل واحدة من عينيك لها لون يا باشا.

فهمتها، عين بها محبة وأخرى بها مسافة.

قلت لنفسك ساعتها: كان يجب أن يكون أنفي هكذا مندفعًا مقوسًا من أعلاه كي يفصل العينين عن بعضهما.

بينكما تاريخ، تاريخ أكبر من كل الخبز والملح، مائة قضية كان معك، بل كان في ظهرك ويعرفك عز المعرفة، لعل هذا ما يخيفك الآن، ظهرك عارٍ، وهو ملك اللعب على الحبال، يملك مائة حبل، يملك شياطين الشياطين الذين يحاوطونه الآن، يبكون بدلًا منه، يدخنون الحشيش نيابة عنه، ويبلعون الأقراص ليرتفعوا للأعالي ويرفعوه معهم، سيفعلون بك الأفاعيل، سينط عليك واحد من مكان لا تعرفه وهو يقول: لا نجوتَ إن نجا، كل واحد منهم سيأخذ قطعة منك يعلقها في ميدالية تذكارية،

سيلتقطون صورًا مع جثتك، يحوم حولك واحد كأنه يرمي النقود على جسد راقصة.

لا تعتقد أنهم تحت سحائب الدخان غافلون، أقل واحد منهم لا يطير من مقعده قبل أن يشرب خمسين حجرًا من الحشيش الفاخر، هذه الليلة ليس بها حشيش مغشوش، المغشوش لا يصلح لإيصال الرحمة إلى روح المرحوم، الحشيش المغشوش يصلح فقط للرعاع، هم رعاع أيضًا، هم سبب اشتعال المشاكل في أي مكان، يزايدون ولا يفهمون، وحتى إن فهموا لا يعرفون كيف يديرون الدفة، ابن ناجح عاد إليه مقتولًا، وقد يعتقدون في هذه اللحظة المجنونة برؤوسهم الموتورة أن رأسك مجرد قربان صغير لمعلمهم، قربان قد يبرد ناره مؤقتًا قبل الوصول للحقيقة ومعرفة الفاعل الأصلي.

أنت لست الفاعل لكنك في نظرهم الحكومة كلها، حتى لو صرت على المعاش، ما زالت آثار من قدمك على الأرض، بل على النفوس، لم تطيرها الرياح ولم يطوها النسيان.

ستصير المسألة رأسًا برأس، والرؤوس هنا سواء.

مش باقي مني غير شوية دم،

متلونين بالهم، مقدرش أسقي في مواجعهم.

هذا ليس مربط الناقة، الخوف كل الخوف أن يعتقدوا أنك قادم للانتقام من خروجك على المعاش بسبب ناجح، وقد يبادرونك قبل أن تبادرهم، أما كان عليك أن تخبر أحدًا من معاوني ناجح أنك قادم، كان هذا سيفتح لك طريقًا ويخفف من الأوهام التي تكاد تأكل رأسك.

المصيبة أن يعتقد أحد أنك قادم بالشماتة، لا يا رجل، هذا احتمال بعيد، لكن كل شيء وارد على أية حال.

المفاجأة قد تلجمهم، ما لا يتوقعونه سوف يصيب أسلحتهم بالصدأ، هالة المباحث سوف تغطي سحابات الحشيش، أراهن أنهم سوف يوقفون الشغل كله، سيتلو قارئ القرآن سريعًا، ثم يقوم ناجحُ بنفسه ليوصلك إلى سيارتك، لتعود الحياة إلى العزاء بعد أن صار عزاءً فعلًا.

ما يطمئنك قليلًا أن معظمهم وربما كلهم ينظرون لك كمسجل خطر حقيقي، وهذه رتبة لم يصل إليها داخلهم أيّ ضابط آخر، موقنون أنك تعرف عنهم أكثر مما تعرف أيديهم.

حين رأوك مرة مع ناجح سارحًا حالما تعض شفتك، تمسح عينيك أو تهرش شعرك ظنوا أنك كنت تفكك خيوط قضية، لم يعرفوا أنك ربما كنت تفكر في لوحة تتكون في مشيمة رأسك أو تفكر في حبيبتك.

أنت الآن تفكر كضابط مباحث حقيقي، تفند كل الاحتمالات وتحسب العواقب، وتفكر بخيالك كفنان، تضع الإنسانية موضعها والعيش والملح والمجرمين في مكانهم.

مش باقي مني غير شوية دم، متلوثين بالهم،

مش باقي مني لحم في كتافي.

نعم، لم يبق لهذا الرجل شيء بعد غياب ابنه، وكل ماضيه لن يسند ظهر رجل فقد ضناه ووريثه، نعم، نعم، سيستقبلك بكل الفرح والتقدير، سيعتبر عزاءك شلال ماء بارد على جرحه الواسع يبيض به وجهه أمام شياطينه حتى ينزاحوا عن دماغه ويحلوا عنها ليفكر جيدًا، ذهابك قد يكون الخيط الذي ينتظره ويتشبث به.

هو الآن قد عاد طفلًا يحتاج من يهدهده، كان ينتظر أن يعيش

ابنه طويلًا يداوي عجزه ويحتفي بمآثره، يحفظ له سمعته التي بناها ببنادقه وأمواسه وشراميطه، بمراوغاته الذكية، بقراراته الحكيمة، النذلة في أحيان كثيرة.

ناجح الذي لم يتركك يومًا إلا حين تحضر نذالته، قضية ابنه هي قضيته الأولى والأخيرة، قلبه مفطور لكن عقله يعمل، ذهابك إليه سيسند ظهره أمام الجميع، سيفهمون حضورك على أنه إشارة من الحكومة أنها تقف في صفهم وسيحصلون على حقهم، مع أنهم موقنون أنهم سيحصلون عليه رغم أنف الحكومة نفسها.

مخطئ من يتخيل أن المسجلين لا يحبون الحكومة، هم يعرفون نظرية المقص جيدًا، إذا ما انفتح وجرح رؤوسًا ستعود أطرافه لتتجاور، ولو بمسافة، كلاهما يحتاج الآخر مع أن كل طرف ينظر في طرف آخر.

ناجح اللعوب الذي اختلفت معه على بعض القضايا، كنت تقول بيضة وهو يقول حجرًا، كنت تعرف وتغض الطرف، ضابط المباحث الناجح يعرف متى يجب أن يغمض عينيه ويترك لمرشده بعض الفخر، يعرف كيف يترك له دارًا مفتوحة وأبوابًا متسعة للفخر.

ناجح اللعوب الذي يفكر أحيانًا بقلب قواد، يغير طريقه ويراوغ حسب غيته: الزراعي في المنتصف يا باشا متاح ومرغوب والصحراوي في الخلفية دائمًا.

أخفى عنك لشهور مكان البنت شهد، لم تنسها له، لكنك مررتها من بين قدميك كحارس متواطئ.

شهد النشالة اللطيفة التي تحك الزبون في موضع عفته، تنشل

محفظته وتترك له شهقة خصيتيه، شهد التي لم يستطع ميمو النشال أن يلعب عليها:

نكتب كتابنا عند الحكومة.

.. يا بنت، أنا الحكومة.

اشترى لها دبلة وإسورة من مال حرام، لم تقبل أن تكون شبكتها من أموال النشل: لا بد أن يكونا حلالًا ومختومين بختم الحكومة أيضًا، حاولت أن تشده، يعلنان اعتزالهما ويبدآن مشروعًا.

وعدها، أخذ قلبها بعد أن نقش اسمه على دبلتها واسمها على دبلته، أخذها كلها، بعدها تراخت في محاولات شَدِّه إلى التوبة، المسجل مثل العاشق يندفع بقوة عاطفته نحو جريمته، نحو دنياه التي يرى نفسه فيها بطلًا.

عاشق بالنهار ينشل من الناس ما عشقوه، وعاشق بالليل بين فخذَي شهد.

طال المطال، الكيف ينشل النقود التي نشلها، وهي على نار، في لحظة ربما لم تكن تقصدها بالضبط:

إما أن تتزوجني أو تفرَّجني عرض أكتافك.

رمى الدبلة في وجهها ونزع منها الإسورة والدبلة.

تنسى المرأة أي مشهد إن أرادت، تتجاوز بعقلها عن الخيانة، لكنها لا تنسى لأحد أن يهين أنوثتها، أن يمسح الأرض بها، حتى ولو كانت نشالة.

غيرت هيئتها، لبست حجابًا ثم بدلته بالنقاب، تبعته في كل مكان كمخبر بأجر، نشلت منه ما نشله من الناس، يعود في آخر اليوم مفلسًا،

وحين شبعت وبقي من الانتقام حرقة بسيطة في القلب، أوقعته داخل محطة السكة الحديد، وشت به عند من سرقه، أكل علقة لم يأكلها حرامي في مولد، ومحطة السكك الحديدية أكبر مولد.

قررت أن تعود لحياتها الهانئة، تنشل وتعيش، نسيت ميمو لكنها لم تنس مشهد قذفها بدبلتها في وجهها.

تخرج إلى الشوارع، لا تتاجر بجسدها كله، فقط بأدوات التسخين، توقف الراغبين، تلقط المتزوجين، تستطيع أن تميزهم عن العزاب:

في السيارة فقط، أنا لا أذهب للبيوت.

استغلت عدَّتها، فمها ولسانها ويديها وبعض الهمس وبعض الفحيح، تأخذ المعلوم، لكنه ليس غايتها ولا يبرد نارها، ما يبردها أن تحصل على دبلته تذكارًا، وإن رفض تصيح فيخشى الفضيحة خاصة إذا كان متزوجًا.

أحيانًا تلقطها حين تغمض الفريسة عينيها أثناء الشغل.

كان «ناجح» يعرف، أخفى مكانها عني لشهور، وعندما ضبطتها بأحد الشوارع متلبّسَة، كانت تضع حول عنقها سلسة بها عشرون دبلة كتذكار أبدي على نجاح الانتقام.

لم يجرؤ أحد أن يتقدم ليشكوها، تقدم ناجح وأخذها قبل أن نحرر لها محضرًا، وبقلب امرأة ملتاعة على ابنتها، امرأة تزرع الورد في تربة مالحة كان يقول:

اتركها من أجلي، اتركها، إنها مجروحة يا سعادة الباشا.

٢٥

أربع لوحات ورَقْصَة

أناقة تَعْبُرُ الشارع.

«ضابط مجنون».

سمعتَها تخرق أذنيك، لكنك تجاهلتَ الحكاية كلها، كأنها ليست عنك، نعم، يجب ألا تطارد الوشاية، دعها تأكل بعضها، هكذا فكَّرت.

أنت لم تحكِ الحكاية لأحد، حكاها العسكري ابن الهرمة الذي كان يقود السيارة وأنت رئيس للدورية، تمرُّ في الشوارع، تتفقَّدُ أمناء الشرطة الذين يقضون ساعات عملهم في حراسة الكنائس بمنطقة الزمالك.

كنتَ تقترب من كنيسة المرعشلي، اسمها على اسم الشارع: «المرعشلي باشا»، لوسألت أي ضابط أو أمين قضى عشرين عامًا في القسم لن يعرفه، لم يسألوا ولا أخبرهم أحد.

شاهدتَ امرأة قد تبدو عجوزًا من بعيد، بملابس زاهية، أنيقة، آثار جمال ما تزال تحوم حول الوجه، روح مبتهجة تسير على قدمين بجانب الرصيف، النساء اللواتي يتمتعن بروح ملوَّنَة متمردة تحب الحياة، تأبى جنيَّات الجمال أن تفارق وجوههن مهما أوغل بهن العمر.

لوَّحَتْ لك فترجَّلْت، ما طلبَتْه كان بسيطًا جدًا، فقط أن تَعْبُرَ بها إلى الرصيف الآخر.

عرفتَها، لا تتذكَّر لماذا لم تخبرها، تأَبَّطْتَ ذراعها فانهمرَتْ دلالًا، عبَرْتَ بها، ورُحْتَ تغني بعفوية: «يا وابور قل لي رايح على فين».

تتذكَّر أنها قَرَصَتْك في ذراعك، ضغَطَتْ عليها.

كحبيبين عَبَرْتُما، صارت أخفّ، كأنها غادَرَتْ عجزها، وسنوات عمرها.

كانت أمك التي تمقُتُ أباك تقول دائمًا إن الكلام الحلو والغزل اللطيف يُطيل عُمْر المرأة، يمنحها عُمْرَيْن.

«ما كل هذه الأناقة؟»، قلتَ لها وأنتما في منتصف الشارع.

«إن شالله انت»، قالت وضحكَتْ.

تتباطأ حبيبتك العجوز، تقول: «أنت أنيق الشكل والروح».

«هل أنتِ مدعوَّة للعشاء عند السفير؟»

«لا، أنا ذاهبة لمن هي أهم من أي سفير، دولة بحالها، سأتعشَّى عند وردة الجزائرية، سفيرة الغناء العربي».

«وردة» ليستْ مُفضَّلَة عندك كثيرًا، كما أنك كنتَ متأثرًا بكلام «محمد عبد الوهاب» عنها حين قال: «صحتها كويسة».

أنت من فريق «فيروز»، أرضَعَتْها لك أمك منذ كنتَ صغيرًا، رغم محاولات أبيك العنيفة أن يُبعدك عن الغناء: «استمع إلى الأغاني الوطنية، فهي التي تلهب قلب الشعب والضباط وتُحفز الأمة على

قتال المجرمين، استمع إلى عبد الوهاب وأم كلثوم، وفُضّك من عمرو دياب وتامر حسني عيال تعبانة، وفيروز هذه لم تُغَن لمصر سوى أغنية يتيمة بالعربي».

لا تستطيع أن تخالف روحك، أنت تُحب «وردة» خفيفًا، لكنها ليست المُفَضَّلة عندك، أنت من العُشَّاق الذين قضوا عمرهم خلف «فيروز»، وهي تصلي على المسرح، ومن الصعب عليهم، مستحيل، أن يكونوا لغيرها، يصعب عليهم أن يركبوا خلف أحد، حتى خلف «أم كلثوم».

كما أنك حين استمعَتَ إلى «بليغ حمدي» وهو يقوم بتحفيظ «وردة» الأغاني، قطعْتَ حبل السُرَّة معها، هو يُغني من طبقة حنون، يربتُ بأصابعه على كتف حبيبته، يخاصرها، يلفُّ ذراعه حول وسطها، ويدور، وهي تهدِر غالبًا في معظم الكوبليهات، كأن الحب معركة حربية، يُغني «بليغ» لرقَّة الحياة وشجنها، وهي تنتصر في معركة فاصلة ضد الاستعمار.

«خذني حتى الأسانسير كي أتمتع بصحبتك».

صعدْتَ بها سلالم البناية، ضغطْتَ زِرّ الأسانسير، ثم ربّتَّ على كتفيها، فغمرَتْكَ بحضن طويل.

حين عُدْتَ للسيارة، كان وجهك يضحك، عينا العسكري في عينيك، ينظر مثل ثعلب، البيه الظابط باس واحدة في الشارع وحضنها!

«هند رستم يا بني آدم».

لم تستطع أن تقاوم، فانفلَتَتْ ضحكَتُك.

العسكري ابن الهرمة أطلقَ الصافرة، خبَّرَ الجميع أن «هند رستم»

قبَّلَتْكَ في خدِّك: «حضَنَتْه بقوة وشدَّتْه من يده ودَعَتْه للصعود معها إلى شقتها».

وراحت الحكاية تَكبُر.

توقَّعْتَ أن يتغيَّر اسمك من فجنون إلى حبيب أو مجنون هند رستم.

والسيد المأمور الطيِّب العصبي يشيح في وجهك أمام الضباط: «سأفتح قسمًا للحب والفنانين في القسم، سأخلع لباسي بسببك في ميدان التحرير»، ثم من خلفهم يقول: «أنت أفضل واحد عندي، لولا لطشة الفن التي ستذهب بك في ستين داهية».

كنتَ تضحك ولا تعبأ بالشائعات ولا تطاردها، مثلما علَّمَتْكَ أمك، والأيام.

تتذكَّر الآن أنك كنت تحاول إغاظة حبيبتك، التي تسأل بفضول لا يتناسب مع شحنة البرود التي تحقن بها علاقتكما.

تسأل بإلحاح عن قُبلة امرأة في عمر أمها: «ماذا فعلْتَ بعد أن قبَّلَتْك؟ قُلْ الحقيقة».

«لا شيء صدِّقيني، لم أغسل وجهي لمدة اسبوع، وأحتفل كل عام بالذكرى السنوية للقُبلة الحارة».

هدية ليليَّة.

«أريد أن أُحَرِّر محضرًا».

قبل أن أنطق أكملت برشاقة: كأنها في محل لبيع العطور: انت الظابط بتاع المحاضر؟

بشحمه ولحمه.

منتصف الليل تقريبًا، أو بعده بقليل، قسم الشرطة خالٍ تقريبًا، إلا من أمناء الشرطة والعساكر، وأنت الضابط الوحيد بين جدرانه، رئيسًا لقسم التحقيقات.

جلسْتَ إلى مكتبك، غرفة بلا أبواب، مفتوحة على باب القسم من ناحية، وعلى الأمناء في النوبتجية من ناحية أخرى.

تتذكر أنك كنت وسيمًا أنيقًا، برتبة ملازم أول في فوهة العقد الثالث من عمرك، تنادي بلطف على عامل البوفيه، فيجيبك: «القهوة على النار يا سعادة الباشا».

فتحْتُ قُفْل الدُّرْج، لكل ضابط درج تقريبًا، أحيانًا لا تكفي الأدراج، فيصير الدرج بالأقدمية، ويرثُ الأقدم دُرْجَ الضابط الذي نُقِلَ لمكان آخر، دُرْجي عامر بالكتب، التي أمنّي نفسي بقراءتها إنْ كانت ليلة هادئة.

رُحْتَ تُقَلِّب في ملف على سطح المكتب، يحوي قضايا اليوم، التي ما زالت مفتوحة، لم يتم الانتهاء منها بعد، والتعليمات المهمة، تتفحَّص دفتر القضايا لتعرف ما حدث طوال اليوم، وصوت الأمين الأقدم الذي يعمل معك يضرب سقف الغرفة ويعود إليك: «مساء الروقان يا سعادة الباشا».

تبتسم، تكاد تضحك، تكتمها، يريدون أن يطيحوا بهيبتك ويتقافزوا فوق كتفك، تعرف أنهم يُسمُّونك الضابط الرايق، وتعرف أنهم من خلفك يتندَّرون: «البيه الفنان»، وتعرف أيضًا أن سعادة المأمور خفيف الظِلّ، حين يتحدث عنك يقول: «لا أستطيع أن أُغمض عيني ليلًا إلا عندما يكون عبده الرايق» في القسم.

اسمك ليس عبده بالطبع، لكنها دعابة المُحِب البك المأمور، ودعابة المأمور مستجابة بإذن الله.

وتبتسم.

تجدها أمامك ومعها رجل، القلق يكاد ينبح من وجهيهما، تدعوهما للجلوس وابتسامتكَ ما زالت على وجهك، لحظتها تأتي قهوتك فتعرض عليهما:

«عندنا شاي وقهوة فقط».

«شكرًا».

«شاي القسم له طعم خاص ونكهة لا تُنسى، إنه يغلي في الحلَّة منذ الصباح».

بتردُّد: «شكرًا جزيلًا».

تنقُر بأصابعك على سطح المكتب كلحن يصاحب كلامك: «قد لا تتكرَّر هذه الفرصة مرة ثانية في العمر».

يضحكان، ملامح القلق تبتعد.

يبادر الرجل الذي معها: «الصديقة لها شكوى».

تلمس أسفل عينك اليمنى بطرف سبابتك، وتقول: «عيني».

قالت: «كنتُ في سهرة، في فندق أوديون مع مجموعة أصدقاء،

روف الفندق بالتحديد، على مقربة منا يجلس شاعر معروف، يسخر بصوت عالٍ من المطرب علي الحجار ويشتمه، قال إنه أضاع موهبته في السهر والشرب مع أولاد الليل، وأن ملامحه حين يغني تشبه ملامح أفراد جوقة المطرب سلامة حجازي في أول القرن، وإنه غبي ترك المطربين الجرابيع يقفزون فوقه ويسيطرون على الساحة، أمطروا آذاننا بالأوساخ، انتصروا عليه وعلينا، ضايَقني الكلام فقلتُ بصوت يصل إلى طاولته، إنه فنان من حقه أن يسهر، الغناء بالليل، والكتابة بالليل، وشياطين الفن والحب لا تفتح عينيها إلا بعد منتصف الليل، ولا تطير لمهماتها إلا في قلب قلبه، حتى أغنيته اسمها في قلب الليل، فصرخ فيَّ وقال اخرسي، أنت لا تفهمين شيئًا، صفعني ردُّه، فقلت له تركنا لك الفهم يا كبير، لا تنس أن عبد الحليم حافظ عاش عمره يسهر الليل وينام النهار كله، ردَّ الشاعر، عبد الحليم كان ذكيًا، قلت، ربما الحجار ليس ذكيًا بمعايير السوق التي اختلَفَتْ، وربما جاء في غير زمنه، وهو أفضل الأصوات في الخمسين عامًا الأخيرة، ردّ بحدة بل أسوأها».

توقفَتْ لحظة وقالت كأنما تتعرَّف إلى رأيي فيما قالته: «هذا ليس حوارًا كما ترى، بل مناطحة»، هزَزْتُ رأسي موافقًا، لم أشأ أن أُقاطع سردها للقصة، فأكملَتْ: «قلتُ له، حرام عليك، هذا ليس كلامًا في الفن، صرخ وقال، هل أنتِ من ستعلمينني الفن، اخرسي، كان يتكلم كطاووس، كأنه صوت السلطان لا يريد صوتًا غيره، وهَبَّ من مكانه واتجه إليّ».

صمَتَتْ، تحاول التقاط أنفاسها، حاولْتُ أن أُخفِّف عنها وأنا أقول: «كملي شاي الحكومة، يروَّق الدم».

التقطت نفسًا، وضعت ساقًا ملفوفة فوق أخرى مصبوبة بأناقة، بجورب رمادي فاتح ملتصق باللحم، الذي اخترعه يعرف بجمال خبيث أنه يوقد دفئًا غريبًا، كأن بخارًا ساخنًا يتمشى على الساقين أو ينضح منهما، يمنحهما جمالًا أحلى من خيالك، تنتظر المرأة هبوب الشتاء لترتديه، أحيانًا تتقلب به على سريرها دون ملابس، تلبسه لتوقد به شهية الرجال.

حين انتبهَتْ لعينيك أنزلت ساقها، أنزلتها في حضرة الضابط.

«خذي راحتك»، قلتَ لها.

ابتسمَتْ، صمَتَتْ للحظات كأنما تستجمع قواها قبل أن تقول بنبرة منكسرة: «قام من مقعده فجأة وصفعني على وجهي».

لا تعرف ماذا تقول لامرأة في هذه اللحظة، وهذا الوَضْع، حتى لو كان مَنْ صفَعَها حبيبها.

تتذكَّر ساعتها أنك أحسَسْتَ بالصفعة أيضًا، ظلَلْتَ صامتًا لفترة أطول مما يجب، أنت تُحدِّق بها، وبالرجل الذي يرافقها، ثم غمغمتَ أخيرًا: «يا خبر اسود».

قالت: «جئتُ لأحَرِّر محضرًا بالواقعة، ولديَّ شهود».

في مثل هذه المواقف يحتاج الشاكي لمن يقف معه، لمن يربت على ألمه، يقول له: «أنت على حق»، أو على الأقل: «سأُحَرِّر لك محضرًا وستأخذ لك النيابة حقك»، أو أن تقول له بصوت غير محايد: «ماذا جرى للناس!»

سحَبْتَ ورقة وقلمًا: «ما اسمك يا هانم؟»

حين نطقَتْ وجمْتَ، ثم أطلْتَ النظر إليها كأنك ضِعْتَ في حلم، وهي ارتبكَتْ، لا يمكنها أن تتوقَّع ما إذا كنتَ ستقول كلامًا طيبًا أم سيئًا.

مدَدْتَ يدك في دُرجك اليتيم، أخرَجْتَ بعصبية كتابًا ثم آخر، ورُحْتَ تجذب واحدًا انحشر بالداخل.

أخرَجْتَ لها ديوانها: «السلطان يرجم امرأة حبلى بالبحر»، رُحْتَ تُلَوِّح به كطفل مسرور، ثم تُقَرِّبُه من وجهها.

بدهشة مَنْ حصد كل جوائز العالم، ونال أكثر مما يتمنَّى، راحت تتكلم وتتكلم، تضحك وتدمع، كأنها نسيت تمامًا الصفعة والسلطان.

لا تتذكَّر، هل أكملْتُ المَحْضَر أم لا.

حين وقفْتَ لتودعهما، كانت عيناها تلمعان، تتكلم أكثر، وحين مشيتَ خلفهما في الصالة المؤدية إلى الباب الخارجي، لوَتْ عنقها بخفَّة، حرَّكَتْ أصابع يدها اليسرى بوداع عاطفي، ثم انسَلَّتْ من رفيقها، وقالت بصوت هامس لا يسمعه: «لو لم نكن في قسم الشرطة لاحتضنتُك».

ما أعرفه أني رُحْتُ أُقَلِّب في صفحات الديوان طوال الليل.

وما لا تعرفه أنك تركْتَ الدُّرْج مفتوحًا.

بورتريه للرقّة.

على عَجَل استدعاك المأمور، بنبرة حازمة قال: «انتظر في مكتبك ليلًا، لا تغادره مهما حدث، ستخرج في مأمورية مع الجماعة».

قبل أن تخرج من مكتبه أضاف بنبرة أقرب إلى التحذير: «ستذهب في مأمورية مع واحد من الجماعة، لا علاقة لك بما يفعله، سيرتدى ملابس مدنية، وأنت بزيِّك الرسمي، لا تسأله عن شيء، لا تتحدث، أنت معه صورة فقط، صورة».

لا تكره شيئًا قَدْر هذه المهمات الرمادية، ليس فقط لطبيعتها، بل لغموضها، لا تعرف بالضبط إلي أين ستذهب، ولا لماذا؟ والضابط الذي تصحبه، أو على وجه الدقّة تمشي خلفه، يَسحبكَ خلفه، يتيه عليك بأنه يعرف أكثر منك، يقول لك من طرف واضح أنك جاهل، لستَ سوى تابع، تابع بملابس الضابط الرسمية وسلاحه، بالعربي مجرد حارس لسيادته، ما مِنْ مرة خرجْتَ في مأمورية كهذه إلا وتأكدْتَ أنك تفهم أكثر من النطع الذي تُلازمه ألف مرة.

كُرْهكَ لهذه الوظيفة يزداد كل يوم، ولكن إلى متى تعيش هذا الكره الذي يكاد يأكلك وحدك، تكره فقط دون أن تفعل شيئًا.

تُكلِّم نفسك، الكره لا يليق بك يا مولانا، لكنك تمقُتْ أكثر ما تمقُت أن تكون تابعًا، دخولك لهذه الوظيفة وانسياقك رغمًا عن أنفك جعلك تكره فكرة التابع، صارت ردود فعلك عنيفة على غير عادتك وتكوينك، كأنك تردُّ على انجرارك ككلب أعمى وراء رغبات أبيك، والأمَرّ على رغبات محيطك ولمعة عيونهم، يحبون الضابط أكثر من الفنان، يُقدسون الضابط ويهزأون بالفن كله، حتى لو تَسمَّروا ساعات أمامه.

تتذكَّر الحكاية التي حكَتْها لك بنت أحببتَها ذات يوم، قالت لصاحبتها إنها تحب رسَّامًا.

«ماهي وظيفته؟»

«رسَّام».

«ماذا يعمل؟»

«رسَّام».

«قولي لي طبيب ويرسم، مهندس ويرسم، مهندس أولًا ثم يرسم عليكِ براحته، هل سيقدِّم لك الغداء ألوانًا، أم سيطبخ الريشة؟»

ضابط ويرسم.

ليس هناك ضابط يرسم، إلا إذا كان يرسم على النسوان.

انتظرْتَ طويلًا لتعرف ذلك الذي ستتَبَعه، بعد منتصف الليل بثلاث ساعات جاء.

قلت: «الوقت متأخر!»

«لا علاقة لك يا حضرة الضابط، أنت معنا للتأمين فقط»، قالها بنبرة ناشفة جدًا، ثم باستخفاف بدا مقصودًا: «إنه فنان مثل سيادتك، يسهر الليالي ليصطاد النجوم»، وبضحكة نصف هازئة: «ونحن سنصطاده وأنت معنا، ثم إن الفجر ما زال بعيدًا، ونحن لسنا زوَّار الفجر يابو قلب حنيِّن».

«البداية كُحلي».

«البيت ليس بعيدًا».

حاوَلَ بلؤم أن يدفعكَ لتدقّ جرس البيت، فتكون أنت، بملابس البوليس، أول ما يراه مَنْ يفتح الباب، وتحدث له الصدمة.

تتذكَّر أنك ضغطْتَ الجرس وانتحيتَ بذكاء جانب الباب حين اقتربَ صوت الأقدام، ليكون زميلك بملابسه المدنية، بمواجهة مَنْ يفتح الباب، ثم دخلْتَ خلفه ووجهه يفور بالغضب.

الفنان أمامك، بجسد نحيل، سامق كنخلة من لحم ودم، تخلَّصَ من كل أدران الرغبة إلا رغبته بالفن، بمحبة البشر والحياة، ابتسمْتَ له فرمَقَكَ بعينين باهتتين كأنه فوجئ بالابتسامة.

والضابط يفشخ الأدراج، يعبث بالأوراق، بين ورقة وأخرى ينظر ناحيتك بطرف عين حادة، مغتاظة، يريدكَ أن تكون خلفه، على مقربة، لتكتمل وصلة الرعب، وعلى مَبْعدَة في الوقت نفسه كي لا تقرأ ولا تعرف.

أنت تعرف مشكلة هذا النوع من الضباط، ضباط الجماعة، موقنون أنهم يعرفون أكثر من الضباط العاديين بأزمنة ضوئية، يعتبرونهم جَهَلَة، وأنت موقن أنهم هم الجهلة، لديهم أحكام جاهزة على كل شيء.

بانت الحكاية حين سألَه زميلك: «لماذا تقول لك ابنتك، الله أبهىَ، لماذا لم تعلمها الله أكبر؟»

ثم التفَتَ إليك، وبصوت هازئ قال: «البيه الفنان بهائي.. يعني.. (كان سيقول كافرًا، لكنه توقَّع أني فهمتُ ما يقصد).

تتذكَّر أنكَ تركتَه وابتعدْتَ، رُحْتَ تتأمَّل العود المُعَلَّق على الحائط وسط اللوحات، أُمك كانت تتابع أسبوعيًا رسمَتَه الشهيرة في الصفحة الأخيرة من جريدة الأخبار، عرَّفَتْكَ على رسوم فنانين عالميين، لكنكَ كنتَ تتوقف دائمًا عند رسوم هذا الفنان، التي تأخذ روحك برفق.

أنت الآن تقف في قلب بيته.

t.me/qurssan

قلتُ: رأيتُ معظم هذه اللوحات من قبل.

لم يرُدّ، كان صامتًا، لم يبدُ أنه كان متفاجئًا بالزيارة، يقف بالقرب من زميلك، ولا يتحرك من مكانه.

«هذه اللوحة نُشرَتْ في الأخبار، وهذه، وهذه..»، قلتُ.

تحركَ الفنان باتجاهك.

«وهذه في كتاب للأطفال».

تقدَّمَكَ، غمزَتْ السنارة، راح يسوقك داخل البيت، المتحف، وأنت تتحدث عن كل لوحة تقريبًا، يرسم وجوها أسوانية أو نوبية مرتاحة، روحها طويلة، ومراكب كثيرة تجري في النيل في اتجاه مفتوح، إلى براح لا نهائي.

تتحدث معه عن البورتريهات، أكثرها لنساء، كان مشهورًا بها، تقول: «هذه كان حظها كبيرًا، رسمْتَها أكثر من مرة».

يبتسم كصفحة النيل التي يرسمها.

«وهذا البورتريه..»

«هل يعجبك؟»

«لقد اصطاد روح حبيبتي، الحبيبات يتشابهن في لحظة»

والضابط ينادى عليك بصوت ينفجر منه الغيظ: «لا تتجاوز حدود المأمورية».

وأنت صِرْتَ في دنيا أخرى، حتى عندما نادى على الفنان تلكأ هو الآخر، لم يذهب إلا بعد نداءين ثم عاد إليك، وقال: «يمكنك أن تأخذ هذا البورتريه، أو اسمع، هات حبيبتك وتعال، سأرسمها».

«لا، سآتي وحدي لأرسمك أنا، ثم ترسمني».

لم يسألكَ إنْ كنتَ ترسُم أم لا.

قال: «اِسمع، أنا أرسم مَنْ أُحبهم فقط، اِخلع هذا الزيّ في المرة القادمة».

والضابط لملمَ الأوراق التي اصطاد بهاءها، كل ما فيها أن الفنان بهائي، سبقكَ إلى الباب دون أن يناديك، يبرطم: «ضباط آخر زمن».

تتمشَّى مع الفنان إلى الباب وأنت تُردِّد: «أمانة عليك يا نهار ياللي اسمك بكرا، تشيل الغِلّ من النفوس العكرة».

لم يتخيَّل أنك تحفظ الأبيات القليلة التي كتبَها، حفظتَها وأنت صغير منشورة مع الرسوم.

وبصوت هادئ مطمئن كأن الضابط لم يزُرْه، صوت ندَيّ كأنه صوت الطفل الذي كنتَه، أكمل: «وتخلِّص قلوب الناس من أي نيَّة أو فكرة».

رُحْتُما تقولان معًا: «تخلِّيها تحسد أو تخلِّيها تِكره».

بعد أسبوع:

«أنتَ متهم.. لم تكن مُنضبطًا أثناء المأمورية».

لا، لا، ليس هذا ما حدث، أنا أهذي كالعادة، صواميل مخي انفرطت.

عندما قلتُ له أني سآتي في وقت آخر لأرسمه ويرسمني، قال لي: «اِخلع الكاب والجاكيت واجلس هنا».

سحبَ الحامل، وضَعَ لوحة بيضاء وراح يرسمني، ينظر ويستغرق.

حين لملمَ الضابط أوراقه نادى عليّ، لم أُجِبه، قفز أمامي وقال بسخرية: «اسم الله عليكم، فنانين مع بعض»، ثم أكملَ بحُرقة: «هيا، انتهت المأمورية».

بهدوء قلت له: «طريق السلامة، اذهب أنت، سأنتظر حتى تكتمل الصورة».

أبو شامة وعلامة.

أنت تتذكَّر ذلك الرجل، ليس عجوزًا، ملامح وجهه اختارت عمرًا معينًا وتوقفت عنده، يمكن أن تقول رجل كبير في السن، تلمحه واقفًا على الرصيف ينتظر هدأة السيارات ليَعْبُر، وأنت واقف تؤدي عملك في ميدان التحرير، تحاول أن تجعل المشاة يمرُّون من خطوط المشاة، وأن تتوقف السيارات من تلقاء نفسها عند ظهور الإشارة الحمراء، معك عشرة أمناء وخمسة وخمسون جنديًا، لكنكم لا تستطيعون ضبط حالة المرور، ولا أن تعلموا المشاة.

تترك الكاب الميري، لا تطيقه، تَعبُر للجهة الأخرى، توسع من خطوتك حتى تمسك يده، تشبكها وتَعْبُر به، تتمشَّى معه حتى يدخل مقهاه المعتاد كل يوم، تفعل هذا سِت مرات في الأسبوع، يغيبُ يومًا واحدًا فقط.

يُفْلِتُ يدكَ بلطف بالغ، قلت لك ليس عجوزًا، ولا يريد أن يلعب دور الأب.

في انتظاره دائمًا رهط من الناس، تتابعه ببصرك حتى ينتهي من تحيَّتِهم، ثم يصعد السلالم وحده إلى الدور العلوي، تتابعه نظراتهم حتى يكاد يختفي.

في تلك اللحظة يتطلَّعون إلى لباسك الميري، يُسدِّدون إليك نظرة غريبة، نصف نظرة على الأرجح، يُطلقونها ويسحبونها، لا تعرف إنْ كانت نظرة ازدراء أم تجاهل.

لحظتها، لحظتها تحديدًا، يقف فجأة وينظر تجاهك، يشير بيد ممتنة وابتسامة واسعة تجد صداها على وجوههم، كأنهم يستكثرونها عليك، فتنسحب.

من شَعرهم الهائش، ملابسهم العتيقة، ونظاراتهم بموديلاتها القديمة، تُخَمِّن أنهم كُتَّاب يجلسون في انتظار مقابلته.

هذه المرة قبل أن يدخل المقهى وتعود، تُلوِّح لك حبيبتك على مسافة، فتُلوِّح لها.

«مَنْ هذه؟ صديقتك؟»، يسألك.

«نعم صديقتي، أحاول أن أحفر لها مجرىً للحب تسبح فيه، أنَ أوسع لها بابًا لتدخل».

«تدخل فيه أم تُدفَن فيه».

ويضحك، يقهقه.

تعرف الناس من أصواتهم، ملامحهم، وملابسهم، أما هذا الرجل فتعرفه من قهقهته.

«سيان يا أستاذ، المهم أن تقع في الشبكة».

تقول بعد تردُّد: «أقول لها أحبك، وهي لا ترُد، تُغيِّر الموضوع، لكنها لا تبتعد عنى».

يجذبني بلطف، يُقرِّب فمه من أذني: «المرأة تحب الرجل الذي يقع بصعوبة في الشبكة، افتح لها الباب، واتركها تدخل أو لا تدخل».

«قرأتُ معظم كتبك، كأنني وصلْتُ لهذا الرأي تقريبًا، لكن قلبي يغلبني».

يُعدِّل من وضع نظارته: «المرأة تعرف الصيَّاد، تختاره، صدِّقني، تختار صيَّادها، وتنصب الشبكة بنفسها، لكنها حين تَسقط تحب أن ترى في عينيك أنك من أسقطتَها، اسمع، حبَّها ولا تشغل بالك بفهمها».

أتوقف في مواجهته وأَحجبها عنه بظهري.

يسألني: لماذا تعطيها ظهرك؟»

«أحيانًا أُغالب قلبي وأفعل، كي تدور وتدور تبحث عن وجهي، تعبتُ وحدي من النظر إلى وجهها، سمعتُ أنك مرشح لجائزة نوبل».

ضحكته تشقُّ الميدان، تكاد توقف السيارات.

«أنا بالكاد مرشح لجائزة نوفل، اسمع، هل تحب عملك؟»

«لا، لكنني أفعله بمتعة تُعوِّض المحبة الغشوم».

«أنت فنان، افعل هذا معها، حتى إذا اختفت يومًا لا تنكسر روحك».

«طريقها نصف مغلق يا أستاذ».

«إنْ كان مُغلقًا افتحه، وإنْ كان مفتوحًا املأه».

كل يوم في نفس الميعاد، يأتي ببدلة سفاري في الصيف، تحتها قميص مع قبعة في الشتاء مُتأبطًا صحيفة، لم يتغيَّر يومًا ولم تنقُص ضحكته، يصعد إلى الدور الثاني، ينادي على النادل، يطلب منه بعد أن يأخذ القهوة أن يصعد واحد من الجالسين، أو اثنان بالاسم.

تريد أن تُخبره كل يوم بما فعَلْت، لكنك تسحب جملتك، هذه المرة انفلَتَ لسانك، قلت: «رسَمْتُ لك صورة يا أستاذ».

يصمت طويلًا، ينظر إليك بتمعُّن:

«بمَن تأثَّرْت؟»

«تأثرتُ بك».

«أنا روائي».

«أنت أفضل ضابط بوليس وأفضل رسَّام.. أستاذ، تفهم الناس، تحكي من أعماقهم عن أعماقهم..».

قهقهتُه قطعَتْ جملتي وفرقعَتْ في الميدان.

«طيِّب، أين هي؟»

مازالت، لم تكتمل بعد.

«من أيِّ صورة لي رسمْتَها؟»

«من خيالي، من روحك بروحي، لم أعد أحتاج صورًا، ينقصها شيء واحد فقط».

«لا تُضفه، الفن جميل وهو ناقص».

«كدْتُ أقول إنني قرأتُ له حوارًا يقول فيه نفس المعنى، الفن يكتمل بنقصانه».

سرَحْتُ منه، انتبهنا معًا إلى أنني أُحدِّق طويلًا في وجهه.

«قل لي، ماذا ينقصها؟»

«تنقُصُها الشامة يا أستاذ، وأنا أفكر أن أُغَيِّر موضعها في وجهك؟»

رقصة الأصبع الصغير.

«بإصبعي الصغير في رجلي الشمال، أستطيع أن أُرسلكَ وراء الشمس».

الغضب الذي انفجر من ملامحها، والوعيد الذي احتشد في نبرة صوتها لم يُنقِص من حلاوتها، خاصة حين أكملتْ ورفعَتْ ذراعها في الهواء فشخللتْ أساورها.

ورغم أنكَ فوجئتَ برَدّ الفعل العنيف إلا أنك ابتسمتَ كأنها قالت لك: «أنت وسيم».

كمين ليلى، بعد منتصف الليل بأربع ساعات تقريبًا، عند مُفترق طرق يؤدي إلى المنطقة الحساسة، منطقة سفارة أميركا، وسفارة بريطانيا التي تواجهها تقريبًا.

أنت ضابط حديث العهد بالخدمة، بالكاد سنتين، على حافة الإرهاق، واقف على قدميك منذ ساعات، تطرد النوم الذي يهاجم جفونك، تطارده بقوة كأنك تطرد كلبًا أجرب حتى لا يفكر في الاقتراب منك مرة أخرى، معك في قلب الليلة ضابط مباحث حديث أيضًا، يختفي في سيارة على مقربة من الكمين ليرتاح بعد يوم عمل طويل، ربتَ على كتفك قبل أن يغمض عينيه: «البركة فيك، الليلة ليلتك والسهرة سهرتك».

قبل أن تُسارِع بالردّ قال وهو يتثاءب: «لا أحد مستيقظ في هذه المدينة الآن غير البوليس والكلاب».

واستدار.

«والراقصات أيضًا».

معك في الكمين بضعة جنود أغلب من الغُلب، أكلَتْ الأيام عليهم وتقيأتْ، وبضعة أمناء، تُدقِّق في رخص السيارات، والسيارات نفسها كيفما اتفق، كل واحد وحدْسه، وكل أمين شرطة ومزاجه.

والسيارات تمُرُّ، أنت تُفسح للعائدين من أعمالهم مُنهَكين، والذين سهروا الليل وصعدوا فيه، حين تقوم بإيقاف سيارة، فأنت لا تتوقف عند أشياء صغيرة يناكف بها بعض الضباط أصحاب السيارات لاستعراض سلطتهم وإثبات وجودهم على قفا عباد الله.

كنت تعرف أن لك اسمًا حركيًا كما لمعظم الضباط، عادة توارثوها منذ كانوا طلبة في الكلية، حين كانوا يطلقون على الضباط أسماء حركية، لا أحد يعرف اسمه، يعرفه الآخرون فقط.

قلتَ لها: الرُّخَصْ من فضلِك».

نظرَتْ إليك نظرة لائمة باستهجان وقلّبَت شفتيها، كأنها تستنكر أنك تجرأتَ وطلبتَ منها.

«ألا تعرفني؟»

«نعم أعرفك».

أكملَتْ نظرتها اللائمة، هذه المرة باستعلاء واضح، راحت تُفتش في حقيبة يدها عن أوراقها، وتُقلِّب الشماسات أعلى الزجاج، فيما كنتَ تختلس بعينيك ما يظهر حول ربع الفستان الأزرق الذي تكاد ترتديه.

تعرف جيدًا أنها الساعة التي يعود فيها المطربون بعد أن أنهوا فقراتهم، والراقصات أيضًا وتعرف أن هناك نوعًا من الضباط عنده هوى أن يستوقفهم، أو يستوقفهن، حتى يُقال عنه فقط أنه استوقف المطرب الفلاني أو الراقصة الشهيرة، تعرف أن هناك نوعًا آخر يهوى

الراقصات بالتحديد، ربما ليطمئن على أحوال الرقص والراقصات في البلاد، أيًا كانت درجة أولى أو راقصة درجة عاشرة، هناك حالة من اللبونة والميوعة الطازجة الساخنة، بحركة ملامح وجوههن وطرقعة الكلام على ألسنتهن وألفاظهن التي تُذيب الحديد، ولا تعرف من أين يخترعنه بالضبط.

تتذكَّر جيدًا أنك تفحصْتَ الرُّخص، وهي تمُدُّ يدها باستعجال خارج الزجاج لالتقاطها، وأنها بوغِتَتْ ونظرَتْ بسخرية مُرَّة حين قلت لها: «افتحي الشنطة من فضلك».

وأنها بصوت مرقوع: قالت «والشنطة أيضًا!»، وأكمَلَتْ وهي تضغط الزِرّ: «ألا تعرف أنني..»

وأنت تركتَها وابتعدْت، سمعتَها تهذي، تكاد تصرخ، والأمناء تَحلَّقوا حولك، لا من أجل صياحها بالطبع، بل للفُرجة على جسدها، فزَجَرْتَ أنت الجميع لأول مرة: «كل واحد يرجع مكانه»، فقط انتقيتَ واحدًا يقف معك حتى لا تتهوَّر هي وتقول إن شيئًا اختفى، وحين انتهيتَ من تفتيش الشنطة الخلفية وأقفلتَها غمزْتَ للأمين أن يعود لمكانه، كانت قد ترجَّلَتْ من سيارتها، وبانت شنطتها الخلفية بقوة أيضًا أسفل نهاية الربع فستان المبجل، الذي راق لك لونه وموديله، بالنقاط البيضاء التي تلمع كالنجوم في قاعه، كدتَ تقول لها إنَّ هذا التصميم ليس من صُنْع عامل أو آلة، ولا بد أن فنانًا تشكيليًا قد صمَّمه، وأخذ ألوانه من جناح فراشة.

ولولا أن الموقف لا يحتمل لقلتَ لها إن الوشاح الخفيف الذي يتألق فوق الرقبة، ويدور ليقسم الكتف نصفين هو عمل فنان أيضًا، وربما أخذوا لونه من لون وردة مثلِك.

كنت ستقول لولا أنك تتوقَّع ردًا قويًا بسبب غضبها الواضح: «نعم يا روح أمك»، أو تقول بقرف: «طول الليل تعبانة، شوف حَدّ غيري تشتغله».

اقتربتْ منك بغضب زادها جمالًا، وبعصبية واضحة: «أول مرة يِحصَل لي في مصر، أن يفتش أحد سيارتي».

المشهد أمامك كأنك تراه الآن: تُقدِّم لها الرُّخَص بأدب وبحزم، واقفة تعطيك جانبها، لا تواجهك، تُعبِّر عن اشمئزازها بطريقتها، فتقول لها: «اتفضلي حضرتك، الحمد لله أنها وقفت لحد هنا.

تتذكَّر أنها ابتلعتْ بسرعة ضحكة ماجنة ونظرَتْ لعينيك، ثم عادت تقلب فستانها كأنها تراه لأول مرة: «هل أعجبك الفستان؟»

«وصاحبته».

وأنها اقتربتْ أكثر، أصبحَتْ بمواجهتك تمامًا، وبصوت لا يسمعه سواكما: «هل تعرف أنني فعلًا يمكن أن أرسلك وراء الشمس، أو أنقلك للصعيد قبل أن تصحو من النوم».

وأنك ابتسمتَ، وكِدتَ تؤجِّل ردَّك لولا أنك لمحتَ ضابط المباحث يخرج من سيارته بعينين متعطشتين، ورغبة أن يُحقِّق الموضوع بنفسه.

«وبإصبع قدمي الصغير في رجلي الشمال.. عملتها من قبل».

قلتُ لها: «ما رأيك أن نُغيِّر الموضوع هذه المرة، وتنقليني بإصبع قدمك الصغير في الرجل اليمين إلى المباحث»؟

كنتُ أمزح، دمي محقون بشياطين أخرى.

ابتسمَتْ، وغمرتْكَ بنظرة حانية هذه المرة، نظرة مندهشة، تجاهَلَتْ ضابط المباحث القادم وهو يفرك عينيه.

وانطلَقَتْ.

بعد أسبوع واحد، وجدْتَ نفسك ضابطًا في المباحث.

٢٦

اِسحبْ صفحة بيضاء من كراسة رسم جديدة، أو لوحة فارغة واملأها، ما حدث قد حدث.

نحن الآن أمام المصائر.

تهيأ، توضأ بروحك للمعركة الأخيرة قبل أن تغلق الصفحات وترمي الكشكول في البئر.

ضع المسجلين خطرًا الصغار أولا.

ضع النساء في لوحات متجاورة، الجمال مفرد لكن الحسن جمع..

اِحشر حبيبتك في الجانب، حاذر أن تقترب من القلب، غفا على ما به، ثم ضع ناجح وحده في صدر البهو، ولا تنس أن تضع تهويماتك كلها، هي في النهاية من صنعك أنت مهما كانت حقيقتها، هي حقيقتك وحدك، عينك أنت.

وروحك أنت.

لا تنس أن تجعل وجه آيات جميلًا تحت الأمواس، ووجه ناجح نصف حزين نصف منتصر تحت الأقواس.

وأمك.

أمك أمام عينيك مباشرة، خلِ عينيها تنظران إليك مباشرة،

طويلًا كما كانت تفعل، فربما تنطق من قلب الصورة، وأعد رسم حذاء البيادة نفسه وأخرج وجه أبيك منه.

لن يضيرك شيء، الآباء الضباط لا يتغيرون، نسخة واحدة تقريبًا.

ابدأ من هناك:

أم حواء انتقمت لنفسها من الرجال، تبادلا الجور، جارت الحياة عليها، كُسرت من البداية، أحبت واحدًا دخلها ثم سلمها لأصحابه، اِرسمها بلسان يصعد نحو السماء مرة، ارسمها مرة أخرى بلسان يتدلى نحو الماء بحثًا عنهم، لا تقربها من الماء كثيرًا، لا تبعدها، نعم، اِجعل الأمل بينها وبين الأمواج، قد يعودون سابحين فوقها.

دعها تغسل ذنوبها فيه.

دع غواصين يسبحون في الماء ولو على مبعدة كي تجعل الأمل ممكنًا، والخيط غير مقطوع.

لا تقطع الخيط.

الولد الذي عثرَتْ عليه على الفيسبوك بمساعدة أسعد قشطة، رفض أن يكلمها، ينظر إليها كأنه ينظر إلى الأم تريزا، قطع خيط الأمل في وجهها، يتحدث لغة أخرى، كان من الممكن أن يبتسم أو يلوح لها، بدل أن ينظر إليها ككائن فضائي.

انتبه، لا تضع أنت المصائر لكل من صادفتهم أو حكيت عنهم، دعهم يحددون مصائرهم بأنفسهم، هم اختاروا منذ البداية، اختاروا مصيرهم، ولم يمشوا في طريق البشر العاديين.

لستَ محتاجًا أن أُذكِّركَ أن شكل النهاية لا يعنيهم طالما المصير

واحد، صراعهم في الحياة مع نفوسهم المشوهة لا مع الناس، مع غواياتهم وغاياتهم، والنهاية لا تعنيهم بالمرة.

ارسمهم بالأبيض والأســود، اسكتشات، حتى لا تختلط المصائر، حذرتك.

الوحيد الذي ينظر خلفه هو ناجح، سيظل ينظر خلفه، لم يعد له أمام.

دعك منه الآن، سيحدد مصيره بنفسه، سنعود إليه فيما بعد.

شحته الآن أفضل حالًا، وجد عند آيات ما كان يحلم به، كان محبوسًا دومًا، فوجد من يحبسها تحته، كان يسجن جسده وروحه في الحبس فصار يحبسهما فيها والفرق كبير.

تصالح مع نفسه، وجد عشًا وحقق بطولة لم يحققها أحد، تسمح له أن يدخل موسوعة جينيس للحبس في جرائم لم يرتكبها.

ما يوجعه أنه تعود على الحبس، وجسده لم يتعود على المراتب بعد، لكن أصابع آيات سوف تنشئه من جديد، سوف تنسيه ماضيه، أول رجل ابتسم لها في حياتها، وأخذها وقت أرادت هي.

آيات ملكة الآن، أنهت سنوات العذاب، دفعت وتتهيأ للقنص، لن يدق قلعتها غريب، ولن يجلب لها ابنها فحلًا، ولن تتعارك معه على صياد، شحته ليس مطمعًا له، دخل من باب الحنان وهذا باب آخر، وخصية واحدة تكفي المطلوب، خصية مع فدان حنان ورضا تكفي لباقي الحياة، هو لا يريد أن ينجب.

آيات ملكة الآن لولا ابنها المحبوس، وعندما يخرج ربما يكون شحته قد مات أو صار شيخًا، هو سيخرج من الحبس شيخًا أيضًا،

وشيخوخة الجسد والروح قد تصنع منهما أصدقاء، خاصة أن شحته سوف يربت على شيخوخة روح ابنها، سيترك له من ثمن بيع خصيته مالًا كثيرًا، ثم أن ابنها سيشبع في السجن وقد يخرج من هناك وقد أعلن اعتزاله أيضًا.

صديقتك الراقصة حتى لو اعتزلت لن تتعب كثيرًا، سوف تغني وربما تغني خلف راقصة وهذا شيء جميل وجديد، مختلف عن المغني الرجل الذي يقف خلفها دائمًا، المهم أنها ستغني ولو لنفسها، الغناء يطيل العمر ويجلب الأحبة.

منير زبالة أو منير أبو شفة الذي كان ينفخ على ميزان الحشيش ليقلل وزنه لن يتعب أيضًا، لا الحشيش سينقطع ولا الذين ينظمون حفلات المزاج ويحتاجونه سينقرضون، وحزب الانبساط هو الحزب الوحيد الباقي على مر الزمن، ثم إن شفته أصبحت تتحرك على الفاضي والمليان، وسينفخ طالما فيه نفس، وحتى إن مات سيموت وهي تتحرك وتنفخ، وسيرتكب حماقات كثيرة.

الذين يرتكبون الحماقات لا يخشى على مصيرهم، هم لا يكترثون ولا يأسى عليهم أحد.

هل تستطيع أن ترسم شفة تتحرك؟

هذا هو رهانك.

لوحة بيكاسو عن الرجل الذي نطره الحصان جمالها فقط في اقتناص الحركة، يهتز الرجل والحصان أمام عينيك.

ابتسم الآن وأنت تدخل عالم النصابين. النصابون ظرفاء مهما أوجعوك، ويمكنك رغم ألمك أن تصفق لمهاراتهم وتعجب بهم.

هل تنتظر مصيرًا للسيد أسعد قشطة، الفنان النصاب المعلم، لن يتورع عن ارتكاب أي شيء، وقد يخترع هو نهايته، قد يموت في النهاية بحقده على أخيه وإن كان أمرًا مستبعَدًا لشخص يعشق الحياة ويفصلها تفصيلًا.

انظر معي وستعرف بنفسك، واحد استطاع أن يضع إعلانات شركته على الجوامع حتى لو كانت شركة وهمية، بل دفع المؤذن من أعلى وأذن العصر بدلًا منه، وأكمل بالإعلان عن شركته، لا يجب أن تخشى على مصيره.

أظن أنه سيحظى بنهاية رائعة تليق بحياته المميزة، قد يؤجر الجوامع للسائحين ليبيتوا ويتحمموا فيها باعتبار أن ذلك طقس غير ممكن لأية شركة سياحية أن تقوم به، بل سيدّعي ببراءة أمام شيخ الجامع أنهم مسلمون من البوسنة أو جورجيا لا يعرفون العربية لكنهم يعرفون الله بقلوبهم.

سيترك كرتونة صابون وشامبو وجل شاور للشيخ.

عقدة واحدة هي عقدة الأخ الكبير، وقد نجد لها حلًا بموت أحدهما في النهاية، بالأحرى موت الأخ الكبير، ارسمهما ضوءًا وظلًا.

أخشى ألاعيبه، قد تتغير نهايته، يفكر أن يذهب للحج ليعمل داعية، عرض على ناجح أن يذهب المسجلون الذين كبروا أو تابوا للحج والعمرة، أغواه أن تصبح شركة سياحية لهذا الغرض فقط بلافتة: شركة سياحة لرعاية المسجلين التائبين أو المعتزلين مثل جمعيات المساجين التائبين، وقد يحصل على جائزة الأيزو ويصبح من رجال المجتمع الصالحين.

لا تتحرك وخلِك في النهايات السعيدة.

البنت التي كانت تقنص دبل الخطوبة والزواج من زبائنها، تزوجت الآن من نشال آخر لكن مستقيم، تحكمه بالحديد والنار، ولا تسمح له أن يخلع دبلته حتى لو ادعى أنه يتوضأ أو أن الصلاة بها حرام، جلبت له دبلة من الفضة، تنظر إلى يده اليسرى قبل أن تنظر إلى وجهه، اليمنى بالطبع تكون مملوءة بحصيلة اليوم.

الضابط المزيف سوف يكون مديرًا إداريًا لشركة السياحة، يشخط وينطر ويعقد الاتفاقات، سيتعامل مع زبائن الشركة بصلف لذيذ يليق به، عنجهيته مطلوبة أحيانًا، لا تنزعج إن وضع جوازات السفر في مظروف وختمها بالشمع الأحمر، من ليس له ماضٍ ليس له مستقبل.

إن لم يقبل ناجح فيكفيه ما أحرزه من أمجاد، نصب على الحكومة بضباطها، يكفيه أن يجلس في غرفته أمام ملابس الضباط التي علقها أمامه على الحوائط، ينظر إلى السقف المرصع بالنجوم يهاتف مدير شرطة نيويورك ليعرض خدماته.

عرِّج الآن على ما يوجعك.، قد تخفف مرارتك بالمصائر.

لن تبحث عن مصير لثريا التي لبسك عارها، فهي قد أراحت واستراحت، فعلت مع غيرك ما فعلَتْ بك، استمرت في غيّها، حاولت أن تسرق حياة الآخرين.

علّمها زوجها المجنون بجمع الهواتف التي تسرقها كيف يكون لها حسابًا على الفيسبوك، وأن تستعمل الإيميل، انتحلت شخصية واحدة جميلة، سرقت صورها من الهاتف، وضعتها على صفحتها كأنها صورتها، عاشت بشخصيتها عامين، أعجبتها اللعبة، ما لم تأخذه باليد تأخذه بالتكنولوجيا حتى وقعت بجرم انتحال شخصية، قضت عامًا واحدًا بالسجن، وعندما خرجت معتلة الصحة طلقها

زوجها لأن العار لبسه بعد أن أصبح زوج مجرمة، ولأنها لن تنجب أولادًا ولا هواتف جديدة، فماتت بحسرتها بعد عشرة أيام.

زوجها لبس قمصانك وبدلاتك وربما باع لوحات لا تتذكرها وينعم الآن بزواج جديد، هذا هو الوحيد الذي يجب أن تحدد مصيره أنت، وتقبض عليه متلبسًا، ربما علق لوحاتك على الحوائط وينتظر فرصة أن تنسى ليبيعها، أو يعلقها على الحيطان ليعيش حياتك.

لاحظ أنك يمكن أن ترسمه بالأبيض والأسود، بقلم جافٍ، حتى تتحكم في المصائر، أو اسمعني: ارسمه زيت على توال، دع الألوان تسيح على بعضها البعض حتى يسقط في مصير غامض، وليطغى الأحمر والأسود على بقية الألوان، وليغرق هو في لون جديد لا يعرفه، نعم هو من يستحق الحبس، سرقت... لكنه هو من زين لها ودفعها وأمسك بلجامها، دفعها وأخافها.

أنت نسيت نفسك، وجهك أمام لوحة بيضاء هي مستقبلك وخيارك، أنت تريد أن تتركها بيضاء حتى تروق وتفعل ما تحب، أو لأنك بل تعرف بالضبط ماذا سيحدث، هذا جيد لك.

لا تنس أن الحظ يجري أمامك وأنت لست أعرج، والصفحة الآن بيضاء، ولا تنس أنك شاهدت محمد عبد الوهاب يتحدث في التليفزيون، كان يقول إنه يدهن الحوائط كلها بالأبيض، تتراقص عليها النغمات وتلونها، وعندما ألحوا في السؤال: لماذا؟ سكت طويلًا ثم عدّل نظارته، ألقى بقنبلته وقال:

اللون الأبيض مسئولية.

قالها بالثاء لأنه ألثغ وأنت لست كذلك.

صوت عبقرينو يقطع حبل أفكاره، أخيرًا جاء، بعد انتظار طويل، جاء لمصيره.

تجادلا كثيرًا حول الذهاب لناجح.

اعترض بشدة، قال بشكل واضح: لا تذهب للقرد في دولته، سحب نفسًا عميقًا من الشيشة أطلقه من أنفه وقال:

يجب أن نقفل على هذا الماضي، ونختم بالشمع الأحمر ولو لآخر مرة في حياتنا.

عبقرينو أصبح أقرب من ناجح، كان يعمل معك في الأساس وأحيانًا تتركه يعمل مع ضباط آخرين كي يشفي غليل غوايته، ولم تتحرك قضية في السنوات الأخيرة دونه، خبير عالمي، ما من حل رآه إلا وحل القضية، لكنه منذ خروجك على المعاش عافت نفسه المباحث وأخواتها، كأنه زهد، كأنه شبع، كأنه كان دفعتك وخرجتما معًا في قرار واحد.

التفت إليك كأنه يعرف فيما تفكر، كأنه يقرر مصيره بنفسه.

فجأة وبصوت خفيض غير مكترث قال إن مدير المباحث اتصل به.

ماذا يريد؟

.. كان يحتاجني في قضية.

شرد قليلًا ثم أكمل:

.. قال لي بصوت آمر ببعض العشم: هل ما زلت نائمًا حتى الآن يا عبقرينو! هيا لا تتأخر.

لم تسأله عن رده.

دعك أنفه، صمت قليلًا، وبوجه مرتاح:

.. قلت له يا باشا، سامحني، لن آتي مرة أخرى، لم أعد ضابطًا عندك، أنا اعتزلت.

٢٧

اِقطع صفحة ناجح، لا، لا تقطعها من حياتك، لا ترمها، لن تستطيع، اطوها إذًا ناحيته يفعل بنفسه ما يشاء.

نقطع صفحات الذين غدروا بنا أو كانوا أنذالًا معنا، ناجح كان نذلًا مع نفسه أولًا ومع الجميع، وأنت قبلته هكذا وأحببته هكذا، وتزوجت به على هذا النحو.

لم يؤذك أنت شخصيًا، كان يدك في معظم الأوقات، ورجلين لنفسه، لا تنس أن له معك دقات مرجلة، لكن ذهابك إليه الآن لن يبرئ ساحتك، وامتناعك عنه لن يعني أبدًا أنك شاركت بأي شيء حتى بالتقاعس عن مساعدته في قتل ابنه، غيابك لن يعني أنك شامت.

عندما تهدأ النار، سوف يظهر ما في القصعة كاملًا بعيدًا عن بقبقة النوايا وفرقعة الحطب.

من يمسك ملعقة ليغرف من سطح القصعة، لن يعرف الطعم من بقبقة الطبخة، هي ليست الطعم النهائي.

المذاق الحقيقي بعد أن تبرد قليلًا، القرارات التي تتخذ لحظة غليان الطبيخ قرارات متسرعة، لم يفعلها حاذق مثل ناجح، صحيح أن من حوله ومناخ الهزيمة قد يدفعونه لقرار أهوج، لكن الذي أعطاك شبشب المقتول في كيس وقال لك بهدوء: خذ هذا، قد ينفعك، لن يفعلها.

لا تذهب، قولًا واحداَ.

أنت ربَّيْتَ الذئب في حضنك، لكن هذا لا يعني أنك يجب أن تربي ابنه، أو تربي مسيرته كلها.

ولا تقلق عليه، هذا الذي يؤرقك بحكم العيش والملح، سيفكر ألف مرة قبل أي قرار طائش، هو يعلم جيدًا أن الثأر ـ إن كان هناك ثأر- يجب أن يطبخ على ماء بارد لا على سطح قصعة ملتهبة، هو مثلك تمامًا، سيتخذ قراره وحده، وهو في النهاية كما يقولون عنه: بني آدم فوقه جنة.

دعه الآن وفكِّر في غيره.

هوجان حدد مصيره بنفسه، لا تقل إنه ذهب غيلة، كان يعرف منذ البداية أن سكته كلها خوازيق، قفز عليها واحدًا تلو آخر، انتصر دائمًا، لكن هناك دائمًا بروتس لكل قيصر وهناك دائمًا خازوق لا يراه أحد، حتى لو كان أقرب خازوق له.

كان يقول بثقة الرئيس إن المسجل الكبير أو المرشد الكبير ليس أمامه سوى النصر أو الشهادة.

ربما هذا ما منح حياته طعمًا حريفًا، كأنه قرن شطة حارق وسط صفحة طماطم، منحها طابع المغامرة والتوتر اللذيذ، غامر في حياته وبحياته وعاش ومات منتشيًا، ارسمه إذًا في لوحة وسط مسجليه بوجه نصف متفاجئ نصف متألم، ينظر لأعلى بفم مفتوح تخرج منه كل الضحايا والمسجلين، ارسم روحه يراها تصعد أمامه إلى السماء.

ولي العهد الذي يُقتل قبل استلام مقعد الملك بيوم يتحول إلى أسطورة.

اِرسمه وهو يقابل الملائكة بقافلته من المسجلين، يحوطونه في الأرض والسماء، اِرسم حوله كلابه، صدقني، الكلاب تنبح والقافلة تنبح أيضًا.

اِدخل الآن إلى مصائر الشجن.

حبيبتك لا تريد نهاية لقصتها ولا أنت تريد، يا رجل حكاية وانتهت، صادفتها في السوبر ماركت، هي من جاءت إليك، تقدمت نحوك ببراءتها القديمة، لم تعد هناك غيومُ على وجهها، وجفناها صارا مفتوحين، جرت نحوك كأنها اشتاقت إليك، كأنها كانت معك بالأمس، تزوجت وتطلقت، لديها ولدان، كبرا، يحوطان حياتها لكنهما في الشارع ليل نهار، وحتى حين يعودان يعسكر كلٌّ في غرفته مع الهاتف واللاب توب، وأشياء غريبة وأشياء لا أعرفها.

تضحك فتذوب تجاعيد خفيفة، كما هي إلا من تجاعيد العمر والتجربة، ظلت نحيلة وإن بقيت مؤخرتها عالية كما هي.

ربع الابتسامة مازال، قالت كأن الحكمة تلبستها فجأة أو دعكتها الأيام:

كنت تفيض عن إحساسي وقلبي، وكنت خائفة، الخائفون لا يحبون، وحتى إن سقطوا في الحب لا يضعون أقدامهم على الأرض، يهربون للخلف، يهربون من الحواف.

صدقني عندما كانت الدنيا تضيق بي، أو يغلقها طليقي أمامي، يسوّدها، كنت أغمض عينيَ وألوذ بفرحك بي، أنت ساعدتني دون أن تدري، عندما كنت أحتاج لثقة في نفسي ألجأ لأيامك، أنت من جعلتني أشعر أنني أنثى، أصعب إحساس على أنثى حين لا تجد أنوثتها في حضن أو عين رجل.

ودون أية مقدمات مدت يدها اليسرى، وضعتها على صدري بحنو ودلال:

لا تغضب مني، أعتذر لك.

لم تجد ما تقوله.

كنت صغيرة وأنت كبير، أكبر من قدرتي على احتمال التوتر.

لا تجد مخرجًا وأذناك احمرتا، قالت وهي تودعك إنها وحيدة الآن ثم ابتسمت، يبدو أنك لم تتزوج؟ هززت رأسك بالنفي فاتسعت عيناها، يا أخي كأنه ميثاق: البنت التي تحبها تتزوج واحدًا، لكنها تتمنى أن تظل أنت تحبها، ورغم حنينك إلا أنك ودعتها ببساطة، أعطتك رقم هاتفها وقبل أن تمضي أضافت:

أريد أن أرى لوحاتك، هل مازالت اللوحة التي رسمتها لي عندك؟

قالتها ثم استدارت لتأخذ قطتها من عربة السوبر ماركت، وضعتها في حضنها ومضت.

وحده عماد يكاد يفقد وظيفته في الملاعب، لا تذاكر من السوق السوداء، لكنه لا يعدم المكافآت، يرمي بلاه على اللاعبين، مازال يحوقل وصار مناسبًا أكثر بشعره الأشيب وشاربه الذي ابّيَض.

لم يعد أمامه غير مباريات المنتخب، يرفع اللافتات للجميع من مدير الاستاد حتى الوزير، لا يعدم الهتافات للوزراء رغم أن العلاقات انقطعت بعد غياب هوجان، لكن طالما الحاجة للتصفيق مستعرة لن يعدم دورًا ولا إيرادًا.

الذي عاشر الدراويش لن يعدم حيلة، تحول فجأة من كبير المشجعين إلى مصور يحمل كاميرته، يصور ثم يذهب بالصور إلى قلب الوزارة.

ينسى الناس أي شيء، قد يهملونه، لكنهم يسقطون كالأطفال أمام صورة.

خلق عملًا جانبيًا، يصنع الأعلام قبل المباريات، يوزع صبيانه القدامى والجدد على النواصي والمفارق في الشوارع، يضع الشارات، ثم حتى يغرف الليلة كلها في كرشه افتتح محلًا لبيع جميع ملابس وشارات الفرق الرياضية.

عبقرينو قد يعود في أية لحظة.

انظر لنفسك كأنك صفحة بيضاء، أنت الآن مولود جديد، الذي يولد في العمر مرتين يعش طويلًا، وسينجح في الحياتين.

فرصتك أمامك، أنت عشت مرتين، مرة في البوليس بجسدك وعقلك، وهذه مرة أخرى للفن خالصة تعيشها بروحك.

لا تخلط الحياتين قسرًا، ستمتزجان رغمًا عنك، أو ستنفصلان، قد تظهر القديمة في الجديدة بروح أخرى.

انظر لها كأنها عملية تناسخ، كأنك مت مرة وعادت روحك في شخص آخر، يتمتم كأنه يُسمِع نفسه: أنت محظوظ لأنها ستهبط في جسدك أنت مرة ثانية، لن تستولي عليك، لكنها ستبدو من بعيد كأنها أطباق طائرة هابطة من السماء عليك وحدك -كأنك بطوط في مجلة ميكي- أو خيالات تراها من بعيد.

من رأيتهم في حياتك السابقة لن تصادفهم ثانية، لكن لا تنس أن التناسخ قد لا يحدث لك وحدك، قرينك معك، عفريتك معك، سيولد ناجح جديد، ربما لن يكون كبيرًا للمرشدين والمسجلين، ربما يكون كبير الجميع، قد لا يأتي بمطواة أو خنجر وليس لاعبًا ماهرًا في النصب والنشل، ربما تجده في لوحاتك وفي حياتك يركب دبابة أو يحمل مدفعا، أو يضع إصبعًا في عين الجميع.

الدنيا تغيرت، الجريمة تتغير والسلطة أيضًا وعليك أن تتغير تمامًا وأنت راضٍ وسعيد.

دعك من كل هذا، صف أنت الآن حساباتك القديمة، لا ترم الجلباب القديم، علقه في خزانة لا تراه إلا صدفة، حتى إذا ما صادفته ستصادفه كأنه لواحد غيرك.

ستبدو مخاويًا كأنك تعمل مع عفاريت، مسكونًا بالجن، ستسمع كما سمعت من قبل أنك ترسم كائنات بملامح خرافية وتصنع عالمًا آخر ليس جهنمًا ولا جنةً، عالمك وحدك، جنتك وجهنمك بالألوان.

الفنان يخلق مدينة أخرى حتى لو كان يرسم شارعًا واحدًا، يطحن التراب والأعمدة ويصنع منهما لونًا، ويصنع منهما فراغًا.

حياتك امتلأت بالألوان، وأذناك بالأصوات، ضع أصواتك داخل اللوحة، كن أول من يرسم الصوت، واخلق لغة جديدة.

كل القبائل تصنع أول ما تصنع لغة جديدة بأصواتها لتمشي بها في الحياة، لغة تضرب في الأرض ولا يستطيع الهواء أن يمنعها فيحملها.

ارسم الفراغ، أنت تحتاج تحديدًا للفراغ كي تصفو روحك، صفحة جديدة تعني أنه يجب أن تغلق الصفحات القديمة، مع أنك تعرف أن كل الذين عاشرتهم ورأيتهم لا يحتاجون مصائر، هم كما هم، اختاروا دنيتهم ويعرفون مصيرهم وحدهم، أقدامهم تأخذهم لنهاياتهم دون أن ينظروا لأقدامهم.

ربما كان عليك أن تضع أنت خواتيمهم وتغلقها بالشمع الأحمر، وتنساها، وإن أتت إليك ستأتي كرؤى تصبها في لوحاتك.

نصيحة أخيرة ، نسيت أن أخبرك، لا تكترث لهؤلاء الذين يريدونك أن تظل ضابطًا لتقضي لهم أعمالهم الطيبة والسيئة، لهؤلاء الذين يتمسحون بسلطتك، هم لا يعنيهم أن تكون فنانًا وتأكد أنهم يسخرون منك، ويعتبرونك فجنونًا، البوليس كأية مهنة بها موهوبون ضلوا طريقهم، الموهبة تطلع في الحجر كجرح، وأنت جرح بالنسبة لهم، حتى لزملائك، خرجوا على المعاش، لا يجدون ما يفعلونه، عملوا صفحة على الواتس آب، يهنئون بعضهم بأعياد الميلاد، بالحج، ويتجمعون في الجنازات، ويشتكون من معاملة الأصغر منهم، يتحسرون على مجد لن يعود، يسألون عن ميعاد نزول المعاش وعن الأطباء والأدوية، ويكتبون مقاطع في حب الوطن، يطلبون زيادة المعاش لأنهم ضحوا في سبيله، فيهم قساة ومنهم من أدى وظيفته بأمانة، ومنهم من يريد أن يحقق القصص البوليسية التي قرأها في الواقع، أكثرهم صياحًا هؤلاء الذين دخلوا الكلية بمجموع خمسين بالمائة.

هؤلاء حياتهم وراءهم، وأنت حياتك أمامك.

امسك ريشتك، هي سلاحك وريشتك، اصنع حياتك أنت.

اصنع حياتك بيدك وإن لم تستطع فأنت أحببت وحاولت، وعلى الأقل اصنع جنازتك.

اصنعها بالألوان.

٢٨

دعك من البدايات وخلّكَ في النهايات.

تأخر عبقرينو، كل دقيقة تقريبًا يتطلع إلى باب المقهى من مقعده، يرى الشارع وقد أصبح معقولًا، السيارات تعبر بانسيابية، يفكر أن يقوم ليرى المعرض التشكيلي على بعد مبنيين من المقهى، قرأ عنه بالأمس، كان عازمًا أن يذهب اليوم مبكرًا لولا عزاء ابن ناجح، عمومًا سيظل مفتوحًا حتى الحادية عشرة، مازال هناك وقت.

أخيرًا وصل، يصعد مع عبقرينو في الطريق إلى بيته، الأخير يقود كالعادة، بالضبط كأنهما في مأمورية، لكن لا شيء يشغل بالهما، أخذا قرارهما، صامتان مسترخيان.

يشعر أنه مسطول كأنه شرب خمسين حجرًا، يقول لنفسه، يكفي أنك ضغطت على دواسة البنزين أكثر مما ضغطت على الفرامل، كنت فاصلة وسطرًا وصفحة وكتابا، ولم تكن أبدًا نقطة.

الآن جاء دور النقطة.

كنت علامة استفهام، ولم تكن علامة تعجب إلا في بداياتك، لم تقل نعم أبدًا إلا في بداياتك حين قبلت أن تدخل البوليس، لم تقلها سوى مرة واحدة، بعدها صرت تقول لا وألف لا.

الآن جاء وقت اللاء الحقيقية التي تخصك وحدك، تعثرت لكنك لم تسقط، بحت بما في قلبك ولم تخف إلا مرة واحدة،

ظُلمتَ لكنك لم تتغير، قلبك كما هو، سألت وحصلت على الإجابات إلا قليلا، وقعت وانكسرتِ لكنك الآن تسير نحو النهاية التي اخترتها لنفسك.

كان النشيد القومي للبوليس: لا تفتح سوستة بنطلونك، لا تفتح يدك، لا تفتح فمك، لكنك فتحت سوستة البنطلون قليلًا، فتحت فمك ودفعت الثمن، لكنك لم تفتح يدك لأحد، عشت نزيها تصرف على من حولك، تشتري العشاء لك ولكل المأمورية، قلبك دائمًا كان للناس، الآن جاء دور أن تفتح فمك عن آخره.

أنا شارب سيجارة بني،
حاسس إن دماغي بتاكلني،
قاعد في الحارة بسقّط، والغسيل عمال ينقط،
والشارع اللي ورايا قدامي، والكلام على طرف لساني.
الناس تتذكر البدايات والنهايات.

تتذكر الآن في نهاية سنوات الكلية، قبل التخرج بأسابيع، كان الطلبة الذين أصبحوا ضباطًا يرسمون على السبورة في المدرج ضابطًا على كتفه نجمة، نجمة التخرج، يشيرون بسهم نحوها، كتبوا تحتها «دي بس يا رب واحنا أي خدمة».

كانت الجملة المعلقة في كل مكان والتي تغيظك: إما إفلات وإما انضباط ولا وسط بينهما.

كنت تشعر بالحصار من «جملة»، الآن يمكنك أن تنفلت حتى آخر الطرف، تلعب أمام لوحاتك، بجِد تختاره ولا يفرض عليك.

الآن يجب أن تنسى البدايات. النهاية مشرعة أمامك، كلها ألوان لوحات ومعارض.

انظر إلى نفسك في المرآة، ستجد واحدًا آخر، إن وجدت اعوجاجًا فهو في المرآة وليس فيك، حتى وإن كان فالاعوجاج طبيعي جدًا بل مناسب لحالتك، لم تكن أبدًا خطًا مستقيمًا ولا صورة مهزوزة، الاهتزاز كان بفعل الماء، حين يسكن سترى صورتك واضحة.

عليك أن تعترف أنك كرهت البوليس لكنك أحببت المباحث، قربتك من الناس، من الواقع الذي بدا أكثر جنونًا من خيالك، كنت تنام قلقًا حتى تصل لنتيجة، ثم تنام راضيًا فيما بعد، أمسكت بالقاتل وإن أوجعك القتيل.

هذه هي الحياة إذًا.

المباحث كانت بالنسبة لك غواية وكيف، ومن وقع أسير الكيف لا بد أن يأخذ جرعته.

ضابط المباحث الحقيقي مدمن كالمدمنين تمامًا، حل القضايا بالنسبة له أفيونة.

الفارق أنه في لحظة الاعتزال لا يشعر بدوخة ولا يهرش جسده، وقُفّتك مملوءة أسرارًا تكفي بقية العمر.

تحمد ربك لأن عبقرينو اعتزل عن قناعة، ولم يعرض عليك تكوين شركة خاصة للأمن والحراسة.

كان يعمل بقلب هوايته لا محترفًا، أراد أن يكون ضابطًا ونجح ولو بشكل آخر، وناجح كان يريد أن يكون ضابطًا، وأنت تريد الطيران، كل واحد يريد أن يأخذ مقعد الآخر.

يخرب بيتك يا كيف ويخرب بيت معرفتك.

صحيح دمك خفيف بس يا ريتني ما عرفتك،

في الأول كنت تمام بتدوس على الأحزان

دلوقتي أنا هربان من نفسي والأيام.

يصعد مع عبقرينو إلى شقته، يغيب في الداخل قليلًا ثم يعود، يعرف الحائط، ينزع منه لوحة النعل، القضية الأولى التي شاركه فيها عبقرينو، يقدمها له.

يقدم له الأجندة التي كان يدون فيها ملاحظاته أثناء العمل، عبقرينو أولى بها، هي دنياه التي أحبها واستمتع بها، أعطاه فردة الشبشب من قبل:

خذها، واحدة عندك وواحدة عندي.

يتعانقان، يدعوه للبار، أول مرة سيفعلها معه.

سأحضر غدًا، الليلة مشغول، لديَ مشوار خفيف، وقد ألحق بك متأخرًا.

سيذهب حتى ولو لم يشرب، يستمع للغناء، الغناء يهيج نقطة الرسم في الدماغ، وقد يرى رقصًا وبشرًا آخرين، ثم يعود منتشيًا لحامل لوحاته، للوحة بيضاء، لن يضيره أن يقول له أي واحد ساعتها:

أنت متهم بإقامة علاقة.

٢٩

في سيارتي بميدان «طلعت حرب»، الإشارة حمراء، و«ناجح» إشارته تضيء وتُطفئ في زاوية من رأسي، أُغلِق عينيَّ، فأراه في السرادق، وحيدًا، حزينًا، رغم أن الجميع حوله، الجميع إلا أنا، أرى نظراتِه تتساءلُ عني، كلٌ منا رفيق رحلة خاصة داخل حياة الآخر، أعرف أنه سيفكر بأن شيئًا قويًا مَنَعني عن الحضور، أو ربما يقول لنفسه إنني سآتي إليه في وقت متأخر، أراه الآن من داخل سيارتي، وهو هناك في سرادقه، يُمَرِّر عينيه على جميع الموجودين، وأسمعه يقول لنفسه، وربما لي أيضًا: «كل هؤلاء قتلوا ابني».

وعَدْتُ عبقرينو بسهرة للصباح، عندي مشوار صغير وسألحق به، السيارة تتحرك ببطء، تقاطعات طرق، زحام طبيعي في هذه المنطقة سرعان ما ينفك، اتخذتُ الجانب الأيمن لسهولة المرور منه، المارة يتدفقون من مكتبة مدبولي ومن محل الورد المجاور ومحل التحف الذي يليه، ليلة نجف كما يقول العامة، تقع عيناي في عيني فتاة تحمل باقة ورد، أبتسم من قلبي، الفتاة ترد الابتسامة كأنها تعرفني.

أجمل ما في قصص الحب تلك اللحظات الأولى غير المُتعمَّدَة، العفوية دون حساب، والتي قد لا تصادف صاحبتها ولا تصادفك، نسمة طرية في جو الحياة الحار، يفكر أن يزيد الجرعة والقلب صياد، والقلب عشّاق.

أقوم بإنزال زجاج الباب الأيمن وأقول بصوت عالٍ أتمنى أن تسمعه الفتاة: الورد للورد.

عيناي تتابعانها بحنان، تدخل إلى اليمين، أول عطفة، ألحق بها، أراها في الطريق إلى الأتيليه، معرض الفنون التشكيلية، أتابعها، كأنها لوحة خرجت من المعرض لتدلني عليه، وعلى نفسها قبل أي شيء.

يمرج يديه بفرحة، المستقبل لوح بوردة، اللفتات السحرية تعيدنا أطفالًا، يعرفه جيدًا، يتملص بسيارته سريعًا، يترك مفاتيح سيارته لسايس الجراج المواجه للأتيليه، يدخل إلى المعرض، يلقي نظرة عامة، لا يتفرج على اللوحات بل يبحث عن اللوحة التي ابتسمت له في الشارع. «كأني أعرفك»، قلتُ لها.

قالت دون تـردد: «حين رأيتك أخبرني حدسي أنك قادم للمعرض، لا تسألني كيف ولا لماذا؟ منظرك فنان، ربما شعرك الطويل المنكوش بلطف، تضحك: لم أقصد أنه بشع لكنه يكاد يطير مثل شعور الفنانين».

وتضحك: «حتى ملابسك، الصديري الملون أعلى سويت شيرت، ماركة مسجلة».

أضحك وأقول: «إنها علامة، لن أفعلها ثانية حتى لا يمسكوني في المباحث».

«ربما كنت تسكن جنبنا من قبل».

«سأسكن بجانبكم من الآن».

نضحك، الدنيا حلوة، وسنها الأمامية المشطوفة من أسفل كأنها توسع فتحة للبهجة.

ندور معًا، نتفرج على اللوحات، تسبقني، أتوقف للفرجة مع أني أريد أن ألحق بها.

ابتسمَتْ، قالت لي: «دعنا نذهب للقهوة التي تقع في الممر الموازي، قهوة فنانين وجرابيع من النوع الفاخر، هل تعرفها؟ والحساب عندي».

قلتُ وعيناي ترقصان: «يا بختي، دقيقتان فقط أمر ثانية على لوحة أعجبتني، الليلة الأخيرة في المعرض وسينقلون اللوحات في الصباح، هناك معرض جديد مساء غد».

غاب، اختبأ بعيدًا عن عينيها، كأنه استكثر الفرحة على نفسه، اختبأ حتى حان وقت إغلاق المعرض، تعبت الفتاة من النظر، كأنها رأت جنيًا وسيمًا واختفى: «حركات فنانين»، ظلت واقفة حتى أوجعتها قدماها، في الأخير انصرفت.

كما قابَلَتْه صدفة اختفى صدفة.

حضر الفنانون في الصباح، لملموا لوحاتهم وانصرفوا.

بقيت لوحة واحدة على الحائط العريض، لم يتسلمها صاحبها، لا بأس، سيعرفونه من التوقيع أسفلها أو في جانبها.

فتشوا، دققوا النظر..

كانت لوحة بدون توقيع.

٣٠

انتبه معي أيها القارئ، هذا الضابط ربما كان يضحك علينا، أو أن خياله هو الذي رسم هذه الحكاية؟

خذ مني الكلام الصحيح، أنا الراوي، أنا من يعرف، وإذا كنتُ قد تركت هذا الضابط يتكلم طويلًا، فالسبب أنني أردت أن أعرف خبيئته.

صدقني، وأنت حر طبعًا، ربما لم يحدث كل ما سبق، وربما حدث.

تظن الآن بالطبع أن الرحلة انتهت!

لا، لم تنته، لا تصدق الضابط على طول الخط، ضابط طري، هو حائر، مشوش بعض الشيء، وعذره معه حسب ظني، صحيح ضحك علينا، وربما كان يتوهم كل ما سبق، سوف تتأكد من ذلك في نهاية المشهد.. أو لا تتأكد.

وصل إلى السرادق، ركن سيارته، مشى بقدمَيْن متثاقلتَيْن، حام حوله يستطلع المشهد دون أن يقترب من الباب، ولولا أن اثنين من الحراسة رأياه، وراقبا تحركاته ما عاد إلى السرادق، ورغم أنه اتجه إلى الباب مباشرة، فقد ظلّا يلاحقانه وشعر بأعينهما مغروزة في ظهره.

أخيرًا دخل بقدمه اليمنى، لم تعد هناك ضرورة للهواجس، ولا لتوقع أي شيء، فليحدث ما يحدث.

المشهد في عز فورته، رغم اقتراب منتصف الليل، هؤلاء هم ملوك الليل، لا يحسبون حسابًا للوقت إلا في جرائمهم.

الصورة كاملة ولا تذهب بعيدًا، عضلات أم خنوفه بارزة، ذراعاها مشمرتان كالعادة، الروسي أخذته غفوة وهذا أفضل، والمزيف مضطجع كله برقبة مشدودة تكاد عروقها تنفجر.

يأكلون ويشربون كأنهم على مائدة معاوية، كأنهم في استراحة بين حربين.

يدخل، يُقلِّب عينيه، لا أحد انتبه له، يتخطى كرسيًا فارغًا، لا يجلس، يتحسس ظهره، ربما ينقضُّون عليه من الخلف، لكن لا أحد يتابعه، ربما شكله مختلف بعض الشيء، جاكيت رمادي على قميص وبنطلون جينز، دون ربطة عنق، يفرغ أصابعه في شعره مرات كأنه يطرد القلق.

في منتصف السرادق يتقدم منه أحد أعوان ناجح، فيعتقد أنه سيأخذه إلى مقعد شاغر، لكنه يتخطاه في الطريق إلى ناجح، ناجح الذي بدا مضطجعًا أكثر، وهادئًا عن بداية الليلة، جالس على الكرسي الكبير المميز برأس أسد كأنه شيخ قبيلة من قبائل أفريقيا، أو في فيلم وثائقي عن الغرائب والعجائب، لا ينقصه سوى أن يقف وراءه اثنان بمقشات من الريش يهشان عنه الحزن والذباب، يجددان له الهواء رغم أنه لا يعرف غير هذا الهواء الأزرق.

يقف ناجح، فتتوقف العقارب وتتحرك التماسيح، يقفز من يقفز، لكنه بإشارة واحدة أعادهم لأماكنهم وإن ظلت عيونهم تحاوطه، ينزل عن كرسيه، يتقدم خطوة للضيف، يقف كعمود، كأن الموت والميت لأحد غيره، والضابط يقترب.

حين صار على بعد خطوتين فتح ناجح ذراعيه واحتضنه ثم ابتعد بسرعة.

.. البقية في حياتك.

ـ مقدر ومكتوب.

ورغم أن ناجح نظر حوله عسى أن يجد لفجنون كرسيًا فارغًا، أو يترك أحد مقعده، إلا أن أحدًا لم يتحرك، الذين يجلسون في صفه هم عتاولة المسجلين وكبار تجار الصنف، ولو أزيح واحد منهم عن مقعده لصارت عيبة وحكاية.

وهو كأنه في لحظة سحرية لا تأتي إلا للموهوبين والملاعين، يدرك جيدًا أن هؤلاء هم الباقون وغيرهم إلى زوال، يدرك أنه زعيم لأنه زعيم لهؤلاء، ولو كان الضابط كبيرًا في زمن ما فالزمن فات، وناجح هو الكبير الآن، صحيح أنه محل اختبار الآن لكن اللحظة لحظته، واللحظة القادمة ملكه هو، هو وحده، يرمق الضابط بعيين ثابتتين، ضابط على المعاش، كل ما يمكن أن يفعله أن يستعيد ماضيه في صمت، على وجهه حسرة، مثل امرأة كانت تعيسة مع زوجها لكنها عاشت من أجل أطفالها.

يذهب فجنون إلى كرسي شاغر في صف ثالث، ويعود ناجح إلى مقعده، يعود صلبًا مثل البارحة، على وجهه علامات تحدٍ وارتياح، جاءته الحكومة بثوب باهت، وهو كطاووس في مقعده، نعم يجب أن يكون هكذا ولو لم يكن هذا هو المقام، يجب أن يخرج كل من عزّاه وهو على يقين أن الموت كان دور انفلونزا ومرّ، مَنْ مات مات، والحياة تسير، يجب أن تمضي على الوتيرة ذاتها، مات الفرع لكن الشجرة قوية بخير، والجذع ما زال ينتصب حياة وقوة، مازال شامخًا.

وفجنون وحيد في مقعده، لم يتعرف عليه أحد، لم ينظر واحد في وجهه كأنه رآه من قبل، حتى الذين يعرفونه عز المعرفة كأنهم لم يصادفوه يومًا، رغم أنه يعرف ربع السرادق بالاسم.

هؤلاء أناس لا ينظرون خلفهم ولا يعنيهم ماضيهم إلا إذا كان يصب في غدهم، حتى ناجح، قابله بالشكر لكنه لم يكن حميميًا، كفٌّ عزاء وجملتين مجاملة والسلام، كأنه شجرة بانجو تسقط منها أوراقها فتطرح أوراقًا جديدة أشد بأسًا وأقوى رائحة.

لم يتكلم معه أحد، اللهم إلا العابرون بين الصفوف بجمل الشكر المعتادة، غير الموجهة له بالتحديد، كأنه دخل عزاءً بالخطأ واضطر للجلوس خوفًا من الإحراج.

استمع للربع الأخير ثم نهض، العتاولة حول ناجح يربتون عليه بصوت خفيض، صوته هو الأعلى.

يأخذ دوره، بالكاد يصل إليه، يمد يدًا من بعيد:

.. شد حيلك.

شكر الله سعيك.

يودعه كأنه يودع هذا العالم برمته، عالم لا يموت ولو مات منه واحد كبير.

في اتجاه باب السرادق يمضي، وحيدًا، يسرع نحو سيارته بقدمين غير مترددتين، كأنه يخشى أن يقول له أحد:

أنت متهم بإقامة علاقة.

بقيت جملة لم أسمعها من الضابط جيدًا، ربما كان يهمس لنفسه ويقول: إلى أين أنا ذاهب؟

ربما يعرف الآن جيدًا إلى أين هو ذاهب.

المقاهي التي كتبت فيها الرواية

مقهى سلطنة بالرحاب:

مقهى جميل لولا أن أسعاره مرتفعة جدًا، لكن ما يخفف الألم أن المنطقة مرتفعة عن باقي المناطق مما يجعل الكتابة في الصيف ممكنة، صاحبها الحاج خيري ابن بلد بمعنى الكلمة، ويسقط عني نصف أسعار طلبات أصدقائي خاصة إذا كانوا من جنسية غير مصرية.

مقهى سلطنة ٢ بالتجمع:

المعادل الموضوعي للمقهى الأولى.. تحمي من برد القاهرة وتجعل مناخ الكتابة حارًا.

بالمناسبة: الحاج هشام أبو العمران هو شريك الحاج خيري في المقهى الموجود بالرحاب، ولا أعلم حتى الآن من هو شريك الحاج خيري في مقهى سلطنة٢.

مقهى الفردوس ـ الإسكندرية:

شيشة سيئة وشاي طيب.

مقهى عجيبة، الإسكندرية- مقهى تاج محل، الإسكندرية:

لا نجلس في الداخل إلا في حالة البرد الشديد، مشروبات فاخرة، والشيخ العفاسي يرتل طوال اليوم كأنه قدر، مما دفعني لأن أترك المراجعة، وأقوم بتشغيل حفلات الشيخ مصطفى إسماعيل، والتي اكتشفوا معها سماءً أخرى لم يعرفوها، كانوا ينتظرونني كل صباح لأختار وأشرح وأعلق وأصيح داخل المقهى: يا بن الإيه، تأخرت المراجعة بعض الشيء لكننا حظينا بالكرسي الجلد والنفحات الطيبة.

مقهى الرحباية.

مقهى المغربي:

ما زالت مكانتنا به عالية رغم أننا لا نغشاه إلا قليلًا، يقولون إنني أحد المؤسسين العظام للمقهى، ولست في حاجة بالطبع لأذكر أنني أحظى بمعاملة تفضيلية.

مقهى أندلسية:

المقهى الرئيسي للمراجعة، لم يعد أحد يقول: جاء الدكتور وحيد. تغير الأمر: هات شاي الدكتور... الحذف ضروري في اللغة والحياة.

عناوين الرواية

يمكن لك عزيزي القارئ إذا أعجبتك الرواية أن تطلب نسخة بالعنوان الذي أحببته، وذلك بعد مرور عام على صدور الطبعة الأولى:

- جمال طبيعي
- عشاء خفيف للأم تريزا
- نظرية الشبورة
- أرانب السباق
- فتحة دخول وخروج
- جرح نافذ
- قانون محاميمو «مات محاميمو أثناء كتابة الرواية، الأرجح قتله واحد من المسجلين، والحكاية ما زالت غامضة حتى الآن»
- المعدن والمغناطيس
- صخرة ليلى مراد

تنقلك رواية «جنازة جديدة لعماد حمدي» إلى عوالمَ سُفلية غامضة مع فنان مجنون تصادَف أنه ضابط شرطة. عالم غرائبي من القتلة والمخبرين والبلطجية ومُسجّلات الآداب وعُشاق البذلة الرسمية.

تساؤلات كثيرة تثيرها الرواية التي تدور حول «فجنون»؛ الضابط الذي يواجه الإجرام والفساد معًا، ولا تضايقه كآبتهما بقدر ما يضايقه سجنه الداخلي وعذابه بين ميوله الفنية وبين إجبار أبيه له على الالتحاق بكلية الشرطة، بينما تبحث روحه عن حريتها وسط عالم مليء بالجريمة والحب والفن.

في لغة هي مزيج بين نزق مُسجّل خطر ولمسة فنان، يأخذ وحيد الطويلة القارئ معه إلى داخل الرواية. لا يكتفي بكونه شاهدًا على الأحداث، وإنما يمتد تفاعل القارئ إلى اختيار عنوان الرواية مع الكاتب وهو يدعوه لعنونتها كما يشاء حين ينتهي من مُتعة القراءة.



وحيد الطويلة: كاتب مصري. رئيس المنظمة العربية للمقاهي، وعضو اتحاد المقاهي العالمي. صدرت له أربع روايات: «ألعاب الهوى»، و«أحمر خفيف»، و«باب الليل»، و«حذاء فيلليني». وثلاث مجموعات قصصية: «خلف النهاية بقليل»، و«كما يليق برجل قصير»، و«مائة غمزة بالعين اليسرى».



دار الشروق
www.shorouk.com